التمهيد

ترجمة الشاعر:

لقد ترجم للسان الدين بن الخطيب عدد غير قليل من علماء الشرق ومفكري الغرب في القديم [1] والحديث [2]، وذلك لما يتمتع به من مكانة مرموقة في السياسة والأدب وغيرها؛ لذا سأقتصر الحديث عن بعض ملامح حياته، وذكر بعض شيوخه، وأهم آثاره العلمية والأدبية.

1_اسمه ومولده:

هو محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السلماني، قرطبي الأصل، ثم لوشية، ثم غرناطية، يكنّى أبا عبد الله، ويلقب من الألقاب المشرقية بلسان الدين [3]، وكان بيتهم في القديم يعرف ببني الوزير، ثم ببني الخطيب، وسعد جده الأعلى أول من تلقب بالخطيب[4].

ولد لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله في الخامس والعشرين من شهر رجب عام (713هـ)[5]، وتربّى في أسرة عرفت بالأصالة والجاه، فقد كان أبوه عبد الله من أكابر العلماء والخاصة، ولد أبوه عام (682هـ) واستقر حينا في غرناطة، ثم عاد إلى لوشه [6] مقر الأسرة، ثم رجع إلى غرناطة حتى التحق بخدمة السلطان أبي الوليد إسماعيل ملك غرناطة سنة (713هـ)، ولما توفي هذا السلطان وخلفه ابنه السلطان أبو عبد الله محمد، التحق والد ابن الخطيب بديوان كتابته أيضا، ثم بأخيه السلطان أبي الحجاج يوسف (733هـ)، حيث عاصر الكاتب الكبير والرئيس العظيم أبا الحسن علي بن الجياب، والذي منح من جانبه لقب الوزارة، وأخيراً سقط عبد الله والد لسان الدين مع ولده الأكبر قتيلاً في معركة طريف[7] الشهيرة سنة(714هـ)[8].

---

[1] – بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبدالواد ليحى بن خلدون الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني.

[2] – عبد الله الجراري ((ابن الخطيب السلماني في حياته سياسيا وأدبيا))، دعوة الحق، ع 7،6 سنة 1966، محمد عبد الله ((ابن الخطيب والسخاوي في كتابهما الإحاطة والضوء اللامع)) مجلة العربي ع 160،سنة 1973.

[3] – ينظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للمقرّي ،9/5.

[4] – ينظر: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، المقري،1/ 187.

[5] – أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، المقري،1/ 187.

[6] – لوشة: مدينة بالأندلس من أقاليم البيرة، بينمها ثلاثون ميلا، ينظر: الروض المعطار في خبر الأقطار، الحميري، 513.

[7] – طريف: وهي جزيرة على البحر الشامي من أول المجاز المسمى بالزقاق، ويتصل غربيها بحر الظلمة، وهي مدينة صغيرة عليها سور تراب، ويشقها نهر صغير، ومن جزيرة طريف إلى الخضراء ثمانية عشر ميلاً، ينظر: الروض المعطار في خبر الأقطار،الحميري،392.

[8] – مجلة دعوة الحق، العدد 90.

2- نشأته وحياته:

نشأ لسان الدين بن الخطيب في غرناطة، وتلقى بها دراسته، وكانت غرناطة [1] وقتئذ ميداناً احتشد فيه الأكابر من العلماء والأدباء[2]، فحظي بفضل المكانة التي تبوأتها أسرته في دولة بني الأحمر بالرعاية التامّة التي كان إسهامها في تكوينه العلمي والعملي، وفي توجهه النفسي والسلوكي، وطموحه المتنوع المشبوب للعلم والمعرفة، ومن مظاهر الحظوة التي لقيها في صغره ما أتيح له من الحصول على أرقى وأغزر الروافد في تكوين ملكاته وثقافته، فقد وفر له والده قماطر الكتب الحافلة والمبرزين من الشيوخ والعلماء[3].

وكان أول من قرأ عليه القرآن أبي عبد الله بن عبد الولى العواد ، فأتقنه كتابةً وحفظاً وتجويداً، وقرأه أيضاً على أستاذ الجماعة أبي الحسن القيجاطي [4]، وأخذ عنه العربية، وهو أول من انتفع به، وقرأ على الخطيب أبي القاسم[5]، ولازم قراءة العربية والفقه والتفسير على الإمام أبي عبد الله الفخاري الألبيري[6] شيخ النحويين لعهده، وقرأ على قاضي الجماعة أبي عبد الله بن بكر، بكر، وتأدب بالرئيس أبي الحسن الجياب[7]، وهو سلفه في الوزارة، وروي عن كثير من الأعيان، وأخذ الطب وصناعة التعديل عن الإمام أبي زكريا بن يحيى بن هذيل [8] ولازمه، وألّف في هذين العلمين...، وغير هؤلاء من الأعلام والشيوخ من أهل الأندلس.

---

[1] – غرناطة: مدينة بالأندلس بينها وبين وادي آش أربعون ميلًا وهي من مدن إلبيرة، ينظر: الروض المعطار، الحميري، 45.

[2] – السحر والشعر، لسان الدين بن الخطيب، ص25.

[3] – فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب، مُحَمَّد مسعود جبران، ص46.

[4] – على بن عمر بن إبراهيم الكناني القيجا طي، يكنى: أبو الحسن، من علماء العربية نسبة إلى قيجاطة من أعمال جيان، في الأندلس، استدعي إلى غرناطة سنة 712هـ فولي الخطابة ومات فيها ينظر: الأعلام، للزركلي، 316/4.

[5] – هو مُحَمَّد بن احمد بن عبدالله بن يحيى بن عبد الرحمن بن يوسف بن جزي الكلبي، من أهل غرناطة، فقيها حافظا قائما على التدريس، ينظر: الكتيبة الكامنة، ص46.

[6] – مُحَمَّد بن علي احمد الخولاني، يكنى، أبا عبد الله أصله من مجلقر، ويعرف بابن الفخار وبالبيري، أستاذ الجماعة عاكفا على العلم ملازما للتدريس، ينظر: الإحاطة في أخبار غرناطة، لابن الخطيب، 22/3./

[7] – علي بن مُحَمَّد بن علي بن سليمان: أبن الجياب، شاعر أندلسي غرناطي أنصاري، من شيوخ لسان الدين ابن الخطيب، ينظر: الأعلام، للزركلي، 6/5.

[8] – يحيى بن أحمد بن إبراهيم بن هذيل التجيبي الغرناطي، أبا زكريا، شاعر مبدع، حكيم، من أهل غرناطة ، تولى التعليم في إحدى المدارس إلى أن مات، ينظر: الأعلام، للزركلي،136/8.

ولما توفي والده سنحت له الفرصة المرجوّة، ودُعي للخدمة مكان أبيه، فتولى أمانة السر لأستاذه الرئيس أبي الحسن بن الجياب وزير السلطان أبي الحجاج[1] وكاتبه الأثير، فلما توفي ابن الجياب بالطاعون، خلفه ابن الخطيب في رياسة الكتابة، ورياسة ديوان الإنشاء، ومنحه السلطان أبو الحجاج رتبة الوزارة وألقابها [2]، ولما توفي السلطان أبو الحجاج يوسف قتيلا في عيد الفطر (755هـ) خلفه في الملك ولده السلطان محمد الغني بالله[3]، واستمر ابن الخطيب في معاونة الوزير أبي النعيم رضوان على خدمة السلطان الجديد، كما تولى الوصاية على الأبناء القُصّر للسلطان المتوفى[4]، وأرسله السلطان الجديد لأول ولايته سفيراً عنه إلى السلطان أبي عنان المريني سلطان المغرب، وهو يعرب في رسالته إليه عن أمله في تجديد أواصر المحبة والوصل التي كانت بين أبيه والسلطان أبي عنان [5]، ويستنصره، ويطلب عونه، على مقاومة ملك قشتالة [6]، واستقبل السلطان أبو عنان سفير الأندلس– ابن الخطيب– بترحاب وحفاوة سنة(755هـ)[7]، وأنشد بين يديه يديه قصيدة وهو قائم يقول فيها:[8]

خَلِيفَةَ اللهِ، سَاعَدَ الْقَدَرُ ... عُلَاكَ مَا لَاحَ فِي الدُّجَى قَمَرُ

وَدَافَعَتْ عَنْكَ كَفُّ قُدْرَتِهِ ... مَا لَيْسَ يَسْتَطِيعُ دَفْعَهُ الْبَشَرُ

وَجْهُكَ فِي النَّائِبَاتِ بَدْرُ دُجًى ... لَنَا وَفِي الْمَحْلِ كَفُّكَ الْمَطَرُ

وَالنَّاسُ طُرًّا بِأَرْضِ أَنْدَلُسٍ ... لَوْلَاكَ، مَا أَوطَنُوا وَلَا عَمَرُوا

وَجُمْلَةُ الْأَمْرِ أَنَّهُ وَطَنٌ ... فِي غَيْرِ عُلْيَاكَ مَا لَهُ وَطَرُ

---

[1] – يوسف بن محمد بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل، أبو الحجاج، سابع ملوك بني نصر، ابن الأحمر في الأندلس، بويع بغرناطة ساعة مقتل أخيه محمد أواخر سنة 733 و سنه خمسة عشر عاما وثمانية أشهر، ينظر الأعلام، للزركلي، 8/ 217.

[2] – الإحاطة في أخبار غرناطة، ا بن الخطيب، 22/1.

[3] – محمد بن يوسف بن أبي الحجاج بن إسماعيل، ثامن ملوك دولة بني نصر بن الأحمر في الأندلس ولي بعد وفاة أبيه سنة 755هـ، ينظر: الأعلام، للزركلي، 7/ 153.

[4] – السحر والشعر، ابن الخطيب، ص 26.

[5] – فارس بن علي بن عثمان بن يعقوب المريني، أبو عنان، المتوكل على الله، من ملوك الدولة المرينية بالمغرب، ينظر: الأعلام، للزركلي، 127/5.

[6] – قشتالة: عمل من الأعمال الأندلسية قاعدة قشتالة، سمي العمل بها، وقالوا: ماخلف الجبل المسمى الشارات في جهة الجنوب يسمى اشبانيا، وما خلف الجبل جهة الشمال يسمى قشتالة، ينظر: الروض المعطار، الحميري، ص 483.

[7] – الإحاطة في أخبار غرناطة، ابن الخطيب،1/ 23.

[8] – ديوان ابن الخطيب،403/1.

فاهتز السلطان لهذه الأبيات وأذن له في الجلوس، وقال له قبل أن يجلس ما ترجع إليهم إلا بجميع طلباتهم، ثم أثقل كاهلهم بالإحسان وردهم بجميع ما طلبوه [1]، فظفر ابن الخطيب بمكانة ممتازة لدى سلطانه الغني بالله إذ منحه ثقة الملك كأبيه، وخلع عليه لقب (ذو الوزارتين)[2]؛ لجمعه لجمعه بين الكتابة والوزارة[3].

ولما تبدلت الظروف السياسية في غرناطة، ونشبت الثورة في (27 رمضان سنة 760هـ)، التي فقد فيها الغني بالله ملكه [4]، واستولى أخوه الأمير إسماعيل على العرش، فتمخضت هذا الثورة عن مقتل الوزير أبي رضوان، ثم فرار الغني بالله إلى وادي آش [5]، وعليه أصبح ابن الخطيب لا يملك من الأمر شيئا، غير أنه حاول أن يستميل السلطان الجديد، فقبله في الوزارة مؤقتا، فتمَّ التَّشكك في نواياه بتحريض منافسيه وحساده؛ فقبض عليه، وصادر أملاكه وبهذا فقد ابن الخطيب كل شيء[6]، ولكن محنة ابن الخطيب لم تطل، وسرعان ما جاء الإنقاذ إليه، وذلك أن السلطان المخلوع الغني بالله تربطه علائق مودة وثيقة بملك المغرب السلطان أبي سالم [7] ولد السلطان أبي الحسن المريني [8]، فامتعض لمهلك رضوان، وخلع السلطان رَعْيا لما سلف له في حسن جوارهم فبعث أبو سالم سفيره أبا القاسم الشريف إلى غرناطة [9] يسعى إلى إجازة السلطان المخلوع ووزيره المعتقل ابن الخطيب إلى المغرب؛ فلم يسع السلطان إسماعيل المتغلب على عرش أخيه، إلا الاستجابة لرغبة سلطان المغرب حفظاً لمودة بني مرين[10].

---

[1] – أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، المقري،1/ 206.

[2] – ذو الوزارتين: السيف والقلم، ينظر: نفح الطيب، المقري، 75/5.

[3] – السحر والشعر، ابن الخطيب، ص27.

[4] – الإحاطة في أخبار غرناطة، ابن الخطيب، 1/ 24.

[5] – وادى آش: مدينة بالأندلس قريبة من غرناطة كبيرة وخطيرة تطرد من حولها المياه والأنهار، ينحط نهرها من جبل شلبر، وهو في شرقيها، وهي على ضفته، وعليها سور حجارة في ركنها بين المغرب والقبلة، ينظر :الروض المعطار في خبر الأقطار، الحميري، ص604.

[6] – السحر والشعر، ابن الخطيب، ص27.

[7] – إبراهيم بن علي بن عثمان بن يعقوب المريني، يكنى: أبو سالم، السلطان المستعين بالله: من ملوك بني مرين في المغرب الأقصى، من بني عبد الحق، ينظر: الأعلام، للزركلي: 52/1.

[8] – علي بن عثمان بن يعقوب بن عبدالحق المريني، أبو الحسن، المنصور بالله، من كبار بني مرين ملوك المغرب، كان يعرف بالسلطان الاكحل، لسمرة لونه، بويع بفاس، سنة،731هـ، ينظر: الأعلام، للزركلي: 311/4.

[9] – أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ،المقري التلمساني، 1/ 203.

[10] – الإحاطة في أخبار غرناطة: ابن الخطيب، 1/ 25.

وقدم ابن الخطيب على السلطان بفاس، وأجل قدومه، وركب للقائه، ودخل به إلى مجلس ملكه، وقد احتفل بقدومه احتفالا عظيما، فانشد ابن الخطيب السلطان قصيدته الرائية يستصرخه لسلطانه، ويستحثه لمظاهرته على أمره، واستعطف واسترحم بما أبكى الناس شفقة له ورحمة ومنها قوله:[1]

قَصَدْنَاكَ يَا خَيْرَ الْمُلُوكِ على النوى ... لِتُنْصِفَنَا مَمَا جَنَي عَبْدكَ الدَّهْرُ

كَفَفْنَا بِكَ الْأَيَامُ عَنْ غَلْوَائِهَا ... وَقَدْ رَأَيْنَا مِنْهَا التَّعَسُّفَ وَالْكِبَرُ

وَعَدْنَا بِذَلِكَ الْمَجْدُ فَانْصَرَمَ الرَّدَى ... لُذْنَا بِذَاكَ الْعَزْم فَانْهَزَمَ الشَّرُّ

وَلَمَّا أَتَيْنَا الْبَحْرُ يُرْهِبُ مَوْجَهُ ... ذَكَرْنَا نِدَاكَ الْغَمْرُ فَاحْتُقِرَ الْبَحرُ

فالتقى بابن خلدون في هذا المحفل لأول مرة، فكان هذا اللقاء بين رجلين عظيمين، حادثًا في حياة كل منهما، فقد كانت تجمع بينهم متشابهات عديدة، أدبية ومادية، فقد كان كلاهما أستاذ عصره وقطره في التفكير والكتابة، وكان كلاهما شخصية بارزة، وكان كلاهما وزيرا مطلق السلطان، ومستشاراً لأمراء عصره[2]، وقد طاب العيش لابن الخطيب بالمغرب في رعاية السلطان السلطان الذي أقطعه الأراضي، ورتب له الرواتب، حيث استقر في سلا منفيًّا حوالي ثلاثة أعوام تقريبا[3]، فتوالت مدائحه للسلطان أبي سالم في عدة قصائد منها قصيدة طويلة يهنئ فيها السلطان السلطان بفتح تلمسان[4]، وكان مطلعها:[5]

أَطَاعَ لِسَانِي فِي مَدِيحِكَ إِحْسَانِي ... وَقَدْ لَهِجَتْ نَفْسِي بِفَتْحِ تِلِمْسَانِ

فَأَطْلَعْتُهَا تَفْتَرُّ عَنْ شَنَبِ الْمُنَى ... وَتُسْفِرُ عَنْ وَجْهٍ مِنَ السَّعْدِ حَسَّانِ

كَمَا ابْتَسَمَ النُّوارُ عَنْ أَدْمُعِ الْحَيَا ... وَجَفَّ بِخَدِّ الْوَرْدِ عَارِضُ نِيسَانِ

كَمَا صَفَّقَتْ رِيحُ الشَّمَالِ شُمُولَهَا ... فَبَانَ ارْتِيَاحُ السُّكْرِ فِي غُصُنِ الْبَانِ

---

[1] . نفح الطيب، المقري، 87/5.

[2] – الإحاطة في أخبار غرناطة، ابن الخطيب ، 1/ 26.

[3] – السحر والشعر، ابن الخطيب، ص29.

[4] – تلمسان: قاعدة المغرب الاوسط، وحد المغرب الاوسط من واد يسمى مجمع وهو في نصف الطريق من مدينة مليانة إلى أول بلاد تازا من بلاد المغرب ، ومن البحر الذي على ساحل مدينة وهران ومليلة إلى مدينة سول، وهي مدينة في أول الصحراء، على الطريق إلى سلجلماسه ووارکلان وغيرها من بلاد الصحراء، ينظر: الروض المعطار، للحميري، ص135.

[5] –الإحاطة في أخبار غرناطة، ابن الخطيب، 588/2.

ولبث الغني بالله، سلطان الأندلس المخلوع من جانبه في فاس [1] يرقب الحوادث، ويتطلع إلى استرداد ملكه، حتى تهيأت له الفرصة، بوقوع ثورة جديدة في غرناطة، قتل فيها أخوه السلطان إسماعيل، على يد زوج أخته السلطان محمد بن إسماعيل بن فرج، الذي فرّ هو وأصحابه إلى ملك قشتالة واحتمى به، فلم يغثه؛ بل اعتقله وأصحابه، وأمر بإعدامهم، وبعث برؤوسهم إلى الغني بالله[2].

وبعد أن عاد السلطان المخلوع إلى ملكه بالأندلس سنة (763هـ) بعث عمّن خلفه بفأس من الأهل والولد، وكان القائم بالدولة يومئذ عمر بن عبد الله بن علي، فاستقدم ابن الخطيب من سلا فسُرّ السلطان لقدومه، ورده إلى منزلته كما كان مع رضوان كافله[3]، فلما وصل ابن الخطيب بأهل السلطان وولده، وأعاده إلى مكانه في الدولة لم يكن ينعم بسابق نفوذه؛ إذ كان من ينافسه على السلطة (شيخ الغزاة)[4] عثمان بن أبي يحيى صاحب اليد على السلطان في استرجاع ملكه، فأدركته الغيرة منه ونكر على السلطان بالاستكفاء به، وآراه التخوف من هؤلاء الأعياص [5] على ملكه، فحذر السلطان وأخذ في التدبير عليه، حتى نكبه وإياه وإخوته، و أودعهم المطبق، ثم غرّ بهم بعد ذلك[6]؛ وبهذا خلا الجو لابن الخطيب، واستعاد سلطانه المطلق دون أية منافسة، ولكنه فيما يبدو كان هدفا لحملات خصومه، وشعر ابن الخطيب بأن السلطان قد بدأ يتغير عليه ويتوجس شرًا من العواقب، وكان في مقدمة خصومه ابن زمرك [7] والقاضي النباهي [8] فقد كان الأول يتزعم ضد ابن الخطيب الخصومة السياسية، ويتزعم الثاني حملة أشد خطورة وهي اتهام

---

[1] – فاس: مدينة عظيمة، وهي قاعدة المغرب، وهما مدينتان مقترنتان يشق بينهما نهر كبير وادى فاس ، ينظر الروض المعطار، للحميري، ص434.

[2] – ينظر: الإحاطة في أخبار غرناطة، ابن الخطيب، 1/ 28.

[3] – ينظر: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، المقري التلمساني، 208/1 .

[4] – شيخ الغزاة: وظيفة عسكرية، ينظر: نفح الطيب، المقري، 386/6.

[5] – الأعياص: الأعوص بالخصم لوى أمره، وادخله فيما لا يفهم، والأعياص الدواهي، ينظر: تاج العروس، مرتضى الزبيدي،50/18.

[6] – ينظر: نفح الطيب، المقري، 5/ 101.

[7] – محمد يوسف بن محمد بن أحمد الصريحي، أبو عبد الله، المعروف بابن زمرك، وهو وزير من كبار الشعراء والكتاب في الأندلس ، أصله من شرقيها، تتلمذ للسان الدين بن الخطيب وغيره، ترقي في الأعمال الكتابية إلى أن جعله الغني بالله كاتم سره سنة 773هـ، ينظر الأعلام، للزركلي: 154/7.

[8] – علي بن عبد الله بن محمد بن محمد ابن الحسن النباهي، وهو من الأدباء والمؤرخين، ولي القضاء بغرناطة، كان صديقا للسان الدين بن الخطيب ثم انقلبا عدوين، فنال منه ابن الخطيب لقبه بالجعسوس، ينظر: الأعلام للزركلي: 4/ 306.

ابن الخطيب بالإلحاد والخروج عن أحكام الدين والشريعة [1]، فشعر ابن الخطيب بخطورة موقفه عند السلطان، فدبّر أمر مغادرته الأندلس، فاستأذن السلطان في تفقد الثغور، وسار إليها في لمّة من الفرسان، وكان معه ابنه علي[2].

فلما وصل إلى جبل طارق تلقاه قائدها في قواته حيث كان من أملاك بني مرين، وكان السلطان عبد العزيز قد أصدر أوامره باستقبال ابن الخطيب، وتجهيز السفن اللازمة لنقله هو ومن معه إلى المغرب؛ ولكنه قبل أن يغادر إلى جبل طارق بعث إلى السلطان الغني بالله برسالة مؤثرة يودعه فيها، ويوضح أسباب تصرفه، ويطلب إليه المغفرة ويؤكد له بقاءه على الود، ويلتمس رعايته لأسرته وولده، وتبدأ الرسالة بهذه الأبيات:[3]

بَانُوا فَمَنْ كَانَ بَاكِيًا يَبْكِي — هَذِي رِكَابَ السُّرَى بِلَا شَكِّ
فَمِنْ ظُهُورِ الرِّكَابِ مَعْمَلِه — إِلَى بُطُونِ الرُّبَى إِلَى الْفُلْكِ
تَصَدَّعَ الشَّمْلُ مِثْلَمَا انْحَدَرَتْ — إِلَى حُبُوبِ جَوَاهِرِ السَّلْكِ
مِنْ النَّوَى قَبْلُ لَمْ أَزَلْ حَذِرًا — هَذِي النَّوَى جَلَّ مَالِكِ الْمُلْكِ

فلما وصل إلى سبته [4] تلقاه ولاتها بكل أنواع التكرمة، وامتثال المراسم، ثم سار لقصد السلطان سنة(773هـ)، لمقامه من تلمسان، فاهتزت له الدولة وأركب السلطان خاصته لتلقيه، وأحله من مجلسه بمحل الأمن والغبطة، وأخرج لوقته كاتبه أبا يحيى ابن أبي مدين سفيرًا إلى الأندلس في طلب أهله وولده، فجاء بهم على أكمل حالات الأمن والتكرمة [5]، فاستقر ابن الخطيب في مقامه الجديد بعيدًا عن الأهل والوطن، وما لقاه من كرم وعلوّ مكانة خفف عنه الكثير من مرارة النفي؛ ولكن فرار ابن الخطيب بهذه الطريقة لم يهدئ من ثورة خصومه [6]؛ بل اتخذوا من هربه على هذه الصورة مادة دسمة للكيد، وأكدوا للسلطان إدانته، وعدم وفائه لوليّ

---

[1] – ينظر: الإحاطة في أخبار غرناطة، ابن الخطيب، 1/ 33.

[2] – ينظر: نفح الطيب، المقري، 5/ 102.

[3] – الإحاطة في أخبار غرناطة، ابن الخطيب،1/ 33.

[4] – سبته: وهي مدينة عظيمة على الخليج الرومي المعروف بالزقاق، ويحيط بها البحر شرقا وجوفا وقبلة ولها طريق واحد للبر من ناحية الغرب، وفي اخر المدينة شرقا جبل المنيا، ينظر: الروض المعطار، الحميري، ص303.

[5] – نفح الطيب، للمقري، 5/ 103.

[6] – الإحاطة في أخبار غرناطة، ابن الخطيب، 1/ 36.

نعمته، وزاد الاتهام تأكيدا أن ابن الخطيب كان حريصا على أن يحمل معه أمواله وذخائره الى المغرب[1]، وفي هذا يقول القاضي النُباهي في رسالة بعث بها إليه: ((فهمزتم ولمزتم، وجمعتم من المال ما جمعتم، ثم وريتم بتفقد ثغر الجزيرة الخضراء، مكرًا منكم، فلما بلغتم أرض الجبل، انحرفتم عن الجادة، هربتم بأثقالكم...))[2]؛ وأفتى القاضي النباهي بإحراق كتبه في ساحة غرناطة ، ووجه له تهمة الإلحاد والزندقة، وأرسل القاضي النباهي هذا الحكم إلى السلطان عبد العزيز يطالبه بتنفيذ حكم الشرع فيه، فرفض ذلك وقال لهم: ((هلا أنفذتم فيه الحكم وهو عندكم، وأنتم عالمون بما كان عليه))[3].

3- وفاته:

ولما توفي السلطان عبد العزيز حاول ابن الأحمر سلطان الأندلس أن يحمل الوزير ابن غازي على تشريد ابن الخطيب و نفييه، فأبى ابن غازي، وساءت العلائق بين بلاط فأس وغرناطة[4]؛ الأمر الذي حمل ابن الأحمر على أن يوغر صدور بعض الأمراء المرينيين ضد النظام القائم في فأس، وبذل في سبيل هذا مساعدات ضخمة واتفق معهم على تنصيب الأمير المريني أبي العباس أحمد بن سالم ملكا على المغرب، و محمد عثمان سيكون الوزير القادم، وأعطاهم المساعدات الهائلة لتنفيذ هذا الاتفاق[5]، وكان ابن الأحمر قد اشترط على محمد بن عثمان عثمان وحزبه شروطا منها: أن ينزلوا له عن جبل الفتح الذي هو محاصر له، وأن يبعثوا له جميع أبناء الملوك من بني مرين ليكونوا تحت حوطته، وأن يبعثوا إليه بالوزير ابن الخطيب متى قدروا[6]، فلما وقع الانقلاب المنشود، بادر السلطان الجديد بالقبض على ابن الخطيب واعتقاله، تنفيذا للعهد الذي قطعه لابن الاحمر[7]، فلما بلغ خبر القبض على ابن الخطيب الى السلطان ابن ابن الأحمر بعث كاتبه ووزيره ابن زمرك لإحضار ابن الخطيب في مجلسه[8]، فوجهت اليه بعض

---

[1] – السحر والشعر، ابن الخطيب، ص32.

[2] – لسان الدين بن الخطيب حياته وتراثه الفكري، محمد عبد الله عنان ، ص159.

[3] – الإحاطة في أخبار غرناطة، ابن الخطيب، 41/1.

[4] – ينظر: الإحاطة في أخبار غرناطة، ابن الخطيب، 1/ 41.

[5] – ينظر: السحر والشعر، ابن الخطيب، ص36.

[6] – ينظر: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، المقري التلمساني، 1/ 226.

[7] – ينظر: الإحاطة في أخبار غرناطة، ابن الخطيب، 1/ 42.

[8] – ينظر: نفح الطيب، المقري، 111/1.

بعض التّهم القديمة التي وجهت إليه في غرناطة فرأى السلطان أحمد أن يعقد مجلسا خاصا من رجال الدولة وأهل الشورى لمناقشة التهم المنسوبة اليه من الإلحاد والزندقة استنادًا لما ورد في بعض كتاباته لعبارات وردت في كتابه: (روضة التعريف بالحب الشريف)[1] ، فاشتوروا في قتله بمقتضى تلك المقالات المسجلة عليه، وأفتى بعض الفقهاء فيه، ودسّ سليمان بن داود بعض الأوغاد ولفيف من الخدم الذين جاءوا مع سفراء ابن الأحمر وقتلوه خنقًا في محبسه فدفن بمقبرة باب المحروق، وفي الغد أخرجت جثته من قبره وأضرمت فيها النار وأعيد إلى قبره (776هـ)[2].

وهكذا انتهت محنة ابن الخطيب وقد آن آخر أيام سجنه ينشد أبياتًا توقعًا منه لمصيره المحزن فيقول:[3]

بَعُدْنَا وَإِنْ جَاوَرَتْنَا الْبُيُوتْ — وَجِئْنَا بِوَعْظٍ وَنَحْنُ صُمُوتْ

وَأَنْفَاسُنَا سَكَتَتْ دَفْعَةً — كَهَجَهْجِ الصَّلَاةِ تَلَاهُ الْقُنُوتْ

وَكُنَّا عِظَامًا فَصِرْنَا عِظَامًا — وَكُنَّا نَقُوتُ فِهَا نَحْنُ قُوتْ

وَكُنَّا شُمُوسَ سَمَاءِ الْعُلَى — غَرَبْنَ فَنَاحَتْ عَلَيْهَا الْبُيُوتْ

فَكَمْ خَدَّلَتْ ذَا الْحُسَامِ الظُّبَى — وَذَا الْبَخْتِ، كَمْ خَذَلَتْهُ الْبُخُوتْ

وَكَمْ سِيقَ لِلْقَبْرِ فِي خُرْقَةٍ — فَتىً مُلِئَتْ مِنْ كِسَاهُ التُّخُوتْ

فَقُلْ لِلْعِدَا ذَهَبَ ابْنُ الْخَطِيبِ — وَفَاتَ وَمَنْ ذَا الَّذِي لَا يَفُوتْ

فَمَنْ كَانَ يَفْرَحُ مِنْكُمْ لَهُ — فَقُلْ يَفْرَحُ الْيَوْمَ مَنْ لَا يَمُوتْ

ولقد ترك لنا ابن الخطيب بعد موته تراثًا حافلًا، ما بين تاريخ، أدب، وسياسة، وتصوف، وطب، ومن أهم مؤلفاته:

1_ الإحاطة في أخبار غرناطة.

2_ أرجوزة في الطب.

3_ استنزال اللطف الموجود في سير الوجود.

4_ أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام.

[1] – ينظر: الإحاطة في أخبار غرناطة، ابن الخطيب، 1/ 42.

[2] – ينظر: الإحاطة في أخبار غرناطة، ابن الخطيب،42/1

[3] – ديوان ابن الخطيب،185/1.

5_ الإكليل الزاهر فيمن فصل عند نظم التاج من الجواهر.

6_ الإماطة عن وجه الإحاطة فيما أمكن من تاريخ غرناطة.

7_ بستان الدول.

8_ التاريخ المحلى في مساجلة القدح المعلى.

9_ تافه من جم ونقطة من يم.

10_ جيش التوشيح.

11_ الحلل المرقومة في اللمع المنظومة.

12_ خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف.

13_ الدرر الفاخرة واللجج الزاخرة.

14_ الديوان المسمّى (الصّيب والجهام والماضي والكهام).

15_ (رجز في الأغذية) أو (أرجوزة الأغذية).

16_ رسالة في السياسة.

17_ رسالة في الموسيقى.

18_ رقم الحلل في نظم الدول.

19_ روضة التعريف بالحب الشريف أو كتاب المحبة.

20_ ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب.

21_ السحر والشعر.

22_ طرفة العصر في تاريخ دولة بني نصر.

23_ عائد الصلة.

24_ عمل من طب لمن حب.

25_ كتاب في علاج السموم.

26_ الكتيبة الكامنة فيمن لقيته بالأندلس من شعراء المائة الثامنة.

27_ كناسة الدكان بعد انتقال السكان.

28_ كناش منظوم في عروض الرجز.

29_ اللمحة البدرية في الدولة النصرية.

30_ مثلي الطريقة في ذم الوثيقة.

31_ معيار الاختبار في ذكر المشاهد والديار.

32_ نفاضة الجراب في علالة الاغتراب.

34_ وصول لحفظ الصحة في الفصول[1].

هذا ماكان من سيرة ابن الخطيب حياته، ومؤلفاته ومواقفه أجملها الباحث في الصفحات السابقة لعلها تفي بالتعريف بشخصيتة.

[1] - ينظر نفح الطيب،97/7، ينظر الإحاطة،4/ 459.

القيم

أما ثاني ما يجب التعريف به في تمهيدي هذا فهو القيم في اللغة وفي الاصطلاح هما على النحو الآتي:

القيمة في اللغة:

لقد وردت كلمة القيمة في معاجم اللغة بمعان عدة، من ذلك: ثمّن الشيء بِالتَّقْوِيم، ويقول: تَقَاومُوا فيما بينهم، وإذا انقاد واستمرت طريقته، فقد اسْتَقَام لوجهه [1]، والقيمة أيضا قيمة الشيء قدره، والقيمة: الثمن الذي يقام به المتاع؛ أي: يقم مقامه، وهي شيء قيمي نسبه إلى القيمة على لفظها؛ لأنه لا وصف له ينضبط به في أصل الخلقة حتى ينسب إليه بخلاف ما له وصف ينضبط به...[2]

والْقِيمَةُ: واحدة القيم، وأصله الواو؛ لأنه مقام الشيء، والقيمة ثمن الشيء بالتقويم[3].

وٱلْقِيمَةُ: واحدة القيم، وأصله الواو؛ لأنه مقام الشيء، يقال : قَوَّمْتُ السلعة، وأهل مكة يقولون: اسْتَقمتْ السلعة والاسْتِقَامَة: الاعتدال. يقال استقام له الأمر. وقوله تعالى : ﴿ فَاسْتَقِيمُواْ إِلَيْهِ ﴾[4]؛ أي: في التوجه إليه دون الآلهة. وقَوَّمْتُ الشيء فهو قَوِيم؛ أي: مُسْتَقِيم. وقوله تعالى: ﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾[5]، إنما أنّثه لأنه أراد الملة الحنفية والقوام: العدل، وقال تعالى : ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَاماً ﴾[6].

أما الْقِيمَة في الاصطلاح: فهي كلمة تدل على عدة معان، فمنها ما هو ذو علاقة بالجانب الروحي، ومنها ما له علاقة بالجانب المادي، ومنها ما له علاقة بالمحيط الاجتماعي، والقيمة يسعى أفراد المجتمع إلى تحقيقها متى كان فيها نفعهم، وطردها والابتعاد عنها متى كانت مضرة بهم.

---

[1] – ينظر: كتاب العين، الخليل ابن احمد الفراهيدي، 5/ 233.

[2] – يَنظر: المصباح المنير، الفيومي، ص309.

[3] – يَنظر: لسان العرب، ابن منظور، 5/ 3783.

[4] – سورة فصلت، من الآية: 6.

[5] – سورة البينة، من الآية: 5.

[6] – سورة الفرقان، من الآية: 67.

إذاً فالقيم في عمومها: جملة من المقاصد التي يسعى القوم إلى إحقاقها متى كان فيها صلاحهم عاجلا أو آجلا، أو إزهاقها متى كان فيها فسادهم عاجلا أو آجلا[1].

كما عرفت بأنها: مستوى أو مقياس أو معيار نحكم بمقتضاه، ونقيس به، ونحدد على أساسه المرغوب فيه والمرغوب عنه[2]، أو هي القواعد التي تقوم عليها الحياة الإنسانية، وتختلف عن الحياة الحيوانية، كما تختلف الحضارات بحسب تصورها لها[3].

وهي حكم يصدره الإنسان عن شيء ما مهتديًا إليه بمجموعة من المبادئ، والمعايير التي ارتضاها الشرع، محددًا المرغوب فيه، والمرغوب عنه من السلوك[4].

ولعل هذا أقوم الآراء وأفضلها؛ لأنه جعل القيم راجعة إلى الشرع القويم، مستمدة منه، من خلال مبادئ ومعايير يلتزمها الإنسان في حكمه على الأشياء.

الأخلاق:

أما الأخلاق لغة فهي جمع خلق، بضم الخاء المعجمة، وبضم اللام وبسكونها. والخُلُق يطلق في اللغة على معانٍ هي: الدين، والطبع، والسجيّة [5]. والْخُلُقُ: ((الْخَاءُ. واللَّامُ. والْقَافُ. أصلان؛ أحداهما تقدير الشيء، والآخر ملاسه، أما الأول فيقال فيه: خَلَقْتُ الأديم للسقاء، إذا قدرته... ومن ذلك: الخُلُق وهي السَّجية؛ لأنّ صاحبه قد قدّر عليه، وفلان خَلِيقٌ بِكذا؛ أي: هو ممن يقدّر فيه ذلك، والْخَلَاقُ: النصيب؛ لأنّه قد قُدّر لكل أحد نصيبه. أما الأصل الثاني فيقال فيه فصخرة خَلْقَاء، أي ملساء... ومن هذا الباب أخْلق الشيء وَخُلَقُ، إذا ....،))[6]، وقالوا أيضا هو: السجيّة، والعادة، والسليقة، والطبع، والدين[7]، والخلق : السجية والطبع والمروءة والدين[8] ، ولا ولا تكاد تخرج كتب اللغة في مجملها عن هذا المعنى ، فالخلق: هو الطبع أو السجيّة وكما جاء

---

[1] – ينظر: الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، طه عبدالرحمن ص68.

[2] – ينظر: نظرة النعيم في اخلاق الرسول الكريم، لعدد من المتخصصين بإشراف الشيخ صالح ابن عبد الله ابن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، ص78.

[3] – ينظر: الثقافة الإسلامية تخصصا ومادة وقسما علميا، عبد الله إبراهيم الطريقى وآخرون، ص14.

[4] – ينظر: القيم بين الإسلام والغرب دراسة تأصيلية مقارنة، مانع المانع، ص15.

[5] – ينظر: لسان العرب، ابن منظور، 1245/2.

[6] – مقاييس اللغة، ابن فارس، 213/2.

[7] – ينظر: معجم متن اللغة، أحمد رضا، 2/ 325.

[8] – القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص881.

في التنزيل قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1]، وكما جاء في الحديث الشريف في الحث عن حسن الخلق فقالﷺ : (ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق)[2].

أما الأخلاق اصطلاحا: ((فهي ملكة تصدر بها النفس الأفعال بسهولة من غير تقديم فكر و روية وتكلف))[3]، والْخُلُقْ: ((عبارة عن هيئة للنفس راسخة يصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة التي تصدر عنها الأفعال عقلًا وشرعًا بسهولة سميت خلقًا حسنًا، وإن كان الصادر منها أفعالا قبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا))[4]، وهي أيضا : معيار سلامة منهج الإنسان في سلوكه، وهي التي تحدد مستقبله الدنيوي والأخروي في أحد اتجاهين: السعادة أو الشقاء.

إن كل إنسان يكتب سعيدًا أو شقيًا جزاء عمله، وبناءً على ما طابعه من إقدام على فعل الخير، أو هوى في ارتكاب الشرور[5]، والأخلاق عند ابن مسكويه : ((هي تحديد المعايير لسلوك الإنسان، وتنير له الطريق الموصل إلى الرشد و الهداية، وأما إذا تجاوز الإنسان معيار الخلق السليم، ومنهج الأخلاق التي تقود إلى المثل العليا فإن الإنسان ينحط إلى بهيمية خطيرة))[6]، والأخلاق مبنية على المعرفة لأن الفضيلة تقوم على العلم[7].

إذاً فالأخلاق في مجملها هي مجموعة من القواعد والأسس التي يعرف بواسطتها الإنسان معيار الخير في سلوك ما، أو مدى الانحراف والفساد في سلوك آخر، وفي هذا التمهيد سوف يعرض الباحث الأخلاق في مستويات عدة منها السماوية كالقرآن الكريم والسنة النبوية، والبشرية كالعرف والتقاليد وغيرها.

---

[1] – سورة القلم، الآية: 4.

[2] – سنن أبي داود، 253/4.

[3] – كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، مُحَمَّد على التهانوي، ص762.

[4] – التعريفات، لجرجاني ، ص 105.

[5] – ينظر: الأخلاق في مداواة النفوس، ابن حزم، ص18.

[6] – الأخلاق في الإسلام والفلسفة القديمة، أسعد الحمراني، ص144.

[7] – ينظر: الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكري الإسلام، ص21.

مصادر الاخلاق:

1_ الأخلاق في القرآن الكريم.

إنَّ المصدر الأساسي للقيم الأخلاقية القرآن الكريم ؛ وذلك بما يحمله من قواعد أخلاقية متكاملة، فالدين الإسلامي وما يتضمنه من قيم ومبادئ عامة للسلوك تلعب دورًا مهمًا في حياة المؤمن، وتكون مصدرًا أساسيًّا من مصادر التزام الأخلاق، فالقرآن الكريم يحث الفرد والمجتمع على هذه القيم الإسلامية، كالإيثار والعدل، والتراحم، والتواضع، والأمانة، والصدق، والوفاء، والنزاهة، والصبر، وغير ذلك مما ترقى به الأمم، ويسعد به الأفراد، وشيوع هذه الأخلاق في المجتمع تكسبه سموًّا في الخلق، وطهارةً في النفس ونزاهةً في الكسب، وصيانةً في العرض، وصدقًا في المعاملات ورقيًّا في المشاعر والإدراك [1]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِے لِلَّتِے هِيَ أَقْوَمُ ﴾[2]، وقد جعله الله مفرقًا بين الحق والباطل، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾[3] ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآءِ ذِے ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[4] ، ونظائر هذه الآيات كثيرة في كتاب الله تعالى ، وكلها من مصادر الأخلاق والرسول _ ﷺ_ هو أول من تخلق بأخلاق القرآن، وألزم نفسه بآداب القرآن، وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: ((كان خلقه القرآن))[5].

2_ السنة النبوية:

---

[1] – ينظر: الأخلاق الإسلامية في الشعر الأندلسي(عصر ملوك الطوائف)، يوسف شحادة الكحلوت، ص25.

[2] – سورة الإسراء، من الآية: 9.

[3] – سورة البقرة، من الآية :257.

[4] – سورة النحل، من الآية :90.

[5] – مسند الإمام أحمد، 41/ 148.

وهي المصدر الثاني من مصادر الأخلاق الإسلامية، فكما جاء القرآن واضعًا الأسس الأخلاقية العامة جاءت السنة النبوية شارحة ومفصلة لهذه الأسس [1]، قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [2]، وتشغل السنة دورا بارزا في تأسيس الأخلاق، فقد وصف الله خلق نبيه ﷺ في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[3]؛ وبذلك تصبح أخلاق النبي_ ﷺ_ هي النموذج الأخلاقي الذي يجب أن يقتدي به الإنسان المسلم لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[4]، وبهذا قد مثل الرسول_ ﷺ_ القدوة في الأخلاق والقيم الإسلامية، سواء في تصرفاته الفعلية أو القولية، أو من خلال إقراره أو تركه أو نهيه، أو في جميع أحوال حياته [5]، وقد لخص النبي _ ﷺ_ ذلك في قوله: ((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)) [6] ؛ وبهذا كانت أخلاق الرسول ﷺ نوارً يهتدى به في جميع نواحي الحياة.

فبالقرآن الكريم والسنة النبوية يكتمل النظام الأخلاق في الإسلام، وتسعد البشرية، لقوله ﷺ: ((تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة نبيه))[7].

3- الْعُرف

العرف: ((هو ما استقرت النفوس عليه بشهادة العقول، وتلقيه الطبائع بالقبول)) [8]. وهو الفعل أو العمل الذي مالت إليه النفوس واستحسنته، أي أنها وجدت فيه الراحة والطمأنينة [9]. فهو نوع من العادات الاجتماعية، التي تعد باتفاق الجماعة بطريقة لا نشعر بها ولا نحس، شأنه شأن القواعد الأخلاقية وغيرها من الأمور التي يخلقها المجتمع لنفسه بنفسه، فالعرف ينشأ تدريجاً وببطء فقد يتبع شخصان أو أكثر قاعدة ما في حكم تصرفاتهم، حتى إذا ظهر صلاح تلك القاعدة واتفقت مع ظروف الجماعة وحاجاتها لجأ باقي الأفراد إلى إتباعها بدورهم، مدفوعين في

---

[1] – ينظر: الأخلاق الإسلامية في الشعر الاندلسي(عصر ملوك الطوائف)، يوسف شحدة الكحلوت، ص26.

[2] – سورة النحل، الآية: 44.

[3] – سورة القلم، الآية: 4.

[4] – سورة الأحزاب، من الآية: 21.

[5] – ينظر: الأخلاق الإسلامية في الشعر الاندلسي(عصر ملوك الطوائف)، يوسف شحدة الكحلوت، ص26.

[6] – الأدب المفرد، البخاري، ص104.

[7] – الموطأ: مالك بن أنسن، 5/ 1323.

[8] – التعريفات، الجرجاني، ص99.

[9] – ينظر: الأخلاق والعرف، هنية مفتاح القماطي، ص28.

ذلك بغريزة التقليد والسير على المألوف وهكذا يستمر سير الناس على هذه القاعدة، وتنتقل بينهم من جيل إلى جيل حتى يصل بها الأمر إلى كثرة إتباع الناس لها، حتى يتولد في أذهانهم وجوب احترامها[1]، وبهذا يصبح العرف عنصر أساسي في القيم الأخلاقية، وذلك لما له من أثر كبير داخل المجتمع، إذ لا يمكن للإنسان البقاء أو الاستقرار خارج مجتمع بشري يكون عضوًا فاعلًا فيه، وشؤون المجتمع لا تصلح ولا تستقيم إلا لوجود ضوابط مستمدة من العرف، وهو ركيزة أساسية لإصلاح الأفراد والجماعات، وأي ضوابط أخلاقية أخرى تستحكم فيها الذاتية والأهواء، ستؤول بالمجتمع إلى الفوضى والانهيار[2]؛ ولذلك كان للعرف اعتبار جدير في النظام الأخلاقي الإسلامي، فالإسلام قيمة داخلية، وتكيف خارجي، وإيمان وعمل، واعتقاد بالجنان، وقول باللسان وعمل بالأركان، ((وبالقدر الذي يتوافق العرف مع الإسلام يكتسب القيمة السامية، ويصبح محكما في تقدير كثير من الأعمال، ولذا ورد في قواعد فقهنا الإسلامي)) [3] ((العادة محكمة))[4] وإذا حصل للعرف التوافق مع الشرع يصبح للعرف وظيفة أخرى كذلك، وهي أنه يسد عن الشرع في الأمور التي لم ينزل فيها نص، ولم يبلغ فيها اجتهاد أو قول من الأئمة الأعلام، قال تعالى: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾[5].

[1] – ينظر: القيم والعادات الاجتماعية، د. فوزية ذياب ، ص117.

[2] – الأخلاق في الإسلام والفلسفة القديمة، أسعد الحمراني، ص32.

[3] – الأخلاق الإسلامية في الشعر الاندلسي(عصر ملوك الطوائف)، يوسف شحدة الكحلوت، ص27.

[4] – مبادئ الفقه الإسلامي، يوسف قاسم الحداد، ص216.

[5] – سورة الأعراف، الآية 199.

الفصل الأول: القيم الدينية

التقوى

الإيمان بالقضاء والقدر

التوكل على الله

الصدق

الحياء

الحلم

العفو

الصبر

العدل

الجهاد

المقدمة:

جاء الإسلام خاتماً للأديان السماوية، وكانت رسالته الكريمة خلاصة نقية للرسالات الإلهية، التي أعادت الإنسانية إلى مسارها الصحيح بعد أن رسمت لها طريق الحق والحياة الكريمة[1].

فوضع الإسلام الدعائم الأخلاقية التي يجب أن تكون المقياس الوحيد للخلق الإنساني كما ينبغي أن يكون؛ حتى يظل الإنسان أهلاً للخلافة في الأرض يعمرها بالفضيلة والخير ، ويعلي فيها كلمة الحق والصدق[2].

إن حياة الجماعات الإنسانية لا تصلح إلا بالدين، ولا يقوم لها شأن بغير هدايته، ولا تستقر إلا بقوله؛ لأن الأديان تهذب العالم والجاهل، وذا العقل القوي وصاحب العقل الضعيف، فهدايتها عامة شاملة لا تخص فريقاً دون فريق ؛ بل إن الجماعات مهما تكن ثقافتها ومعارفها تخضع للدين وتستولي على مشاعرها آياته[3]، فكل فضائل الإسلام لتربية النفس، وتزكيتها، وجعل العربي وكل مسلم صالحاً للا لتئام مع غيره، وبعد أن كانت الشجاعة في المبارزة والمناضلة للمفاخرة مع سواه، صارت في الجهاد في سبيل الله لرفع كلمة الحق، وبعد أن كان الجود سبيلاً ليملأ المعطي م ا صنع ه فخراً، صار في إمداد المجاهدين، وسد حاجة المعوزين وإعطاء المحرومين ابتغاء مرضاة الله، وحناناً وعطفاً على بني الإنسان[4].

إنَّ حسن الخلق يقوم على أربعة أركان: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل، فالصبر يحمله على الاحتمال، وكظم الغيظ، وكف الأذى، والحلم والأناة والرفق، وعدم الطيش والعجلة، والعفة تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل، وتحمله على الحياء وهو رأس كل خير، وتمنعه من الفحشاء والبخل والكذب والغيبة والنميمة، والشجاعة تحمله على عزة النفس وقوتها، وإيثار معالي الأخلاق والشيم، وعلى البذل والندى الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته؛ وتحمله على كظم الغيظ والحلم، فإنه بقوة نفسه وشجاعتها يمسك عنانها، ويكبحها بلجامها عن النزع والبطش ، كما قال النبي ﷺ: ((ليس الشديد بالصُرع ة، إنما

---

[1]- ينظر: شعر العقيدة في شعر صدر الإسلام، أيهم عباس حمودي القيسي، ص 147 .

[2]- ينظر: دعائم العقيدة في الإسلام، د. محمد الدسوقي، ص 63.

[3]- ينظر: الخطابة أصولها وتاريخها في أزهر عصورها عند العرب، الإمام محمد أبو زهرة، ص 155.

[4]- ينظر: الخطابة أصولها وتاريخها في أزهر عصورها عند العرب، الإمام محمد أبو زهرة، ص 201.

الشديد من يملك نفسه عند الغضب))[1]، وهو حقيقة الشجاعة، وهي ملكة يقتدر بها العبد على قهر خصمه.

والعدل يحمله على اعتدال أخلاقه، وتوسطه فيها بين الإفراط والتفريط، فيحمله على خلق الجود والسخاء، الذي هو توسط فيها بين الذل و القحه، وعلى خلق الحلم الذي هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس، ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة[2].

إن التحلي بالأخلاق الفاضلة والتمسك بالخصال الحميدة مبدأ جوهريًّا من مبادئ الإسلام وتعاليمه، فقد أحاط الإسلام المجتمع بمنظومة من القيم الخلقية، ووضع للأخلاق قواعد يتم على أساسها تربية النفس وته ذيبها منها: القناعة، والتوكل على الله، والصبر، والتقوى، والتزام الصدق، والوفاء، والحياء... فهذه القيم الإسلامية خالصة يستمد أصولها من مفاهيم الإسلام ومبادئه؛ لتهذيب السلوك الإنساني، وتربية النفس الإنسانة على القيم العليا والسامية.

فكانت أخلاقه_ ﷺ_ متكافئة، بحيث لا يطغى جانب من أخلاقه على جانب آخر، ولا مظهر على مظهر، فكان ((صبره_ ﷺ_ مثل شجاعته مثل كرمه، وكرمه مثل حلمه، وحلمه مثل رحمته ورحمته مثل مروءته ...))[3].

وكانت دعوة الصحابة من بعده بسلوكهم وأخلاقهم، كما كانت بدعوتهم وجهادهم، حيث أعجب المدعوون بأخلاقهم من زهد، وقناعة، وصدق حديث، وأمانة، وعفة، وكرم، وشجاعة، ووفاء...، فكان غالبًا ما يسلمون لهم أنفسهم رغبة فيهم وفي دينهم، كما هو مشهور من أخبار فتوحاتهم ودعوتهم الأمم إلى الله_ تعالى_ فإن أغلب من دخل في الإسلام أيام الفتوحات الإسلامية؛ إنما كان تأثرًا بأخلاق الفاتحين من الصحابة والتابعين؛ لأن الإسلام لا إكراه فيه على الدين، فمن أصر على البقاء على ديانته، لا ضير عليه إذا لم يناوئ الإسلام، ولم يمتنع من دفع الجزية، فكانوا يتركونهم ودينهم فما يلبثون إلا قليلًا حتى يدخلوا في الإسلام رغبةً و حبًّا في أخلاق فاتحي بلدانهم، وهي الأخلاق التي اقتبسوها من سلوك نبيهم الكريم وتعاليمه[4].

---

[1]- صحيح البخاري، 28/8.

[2]- يرظر: مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم الجوزية، 294/2.

[3]- أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة، أحمد الحداد، 71/1.

[4]- ينظر: أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة ، أحمد الحداد، 1424/3.

وهذا ما حدث تمامًا بالقياس إلى الأندلس، إذ أسلم من سكان الجزيرة عدد كبير على إثر الفتح العربي الإسلامي، وانتشرت اللغة العربية في الأندلس وامتزجت دماء الفاتحين بدماء أهل البلاد الأصليين، وأخلاق هؤلاء بأخلاق أولئك[1].

لقد أدرك شعراء الإسلام حقيقة التلازم بين الأخلاق والشعر، باعتبارهما يرجعان إلى حقيقة جمالية واحدة داخل الإنسان، فالزبير بن بكار أبرز هذا الدور الأخلاقي حين وصفه بأنه: ((يحل عقدة اللسان، ويشجع قلب الجبان، ويطلق يد البخيل، ويحض على الخلق الجميل))[2].

وإننا نجد الشاعر في العصر الأندلسي لم يذهب بعيداً عن سبر أغوار نفسه، حيث يعبر عن أحاسيسه وانفعالاته، ويرسم لنا موقفه من الحياة بأبيات تَظْهَر فيها ذاته واضحة؛ ليبرز مواطن الخير والشر في هذه الحياة، فهو يعبر عن معاناته الخاصة وانطباعاته النفسية [3]، ((ومن تلك الموضوعات ما كان نابعاً من ذات الشاعر، صادراً عن تجربة ذاتية، وقناعات شخصية))[4]، ولقد اتضح أثر الإسلام في شعرهم، و حولت تعاليم الإسلام الواردة في القرآن الكريم والهدي النبوي الشريف الكثير من الشعراء إلى وعّاظ مصلحين، يدعون الناس في إخلاص وأمانة إلى إتباع سبيل الهداية والرشد، والمحافظة على ما جاء به الدين من قيم ومثل عليا [5]، فبعض الشعراء يتأثرون بالقيم الدينية في حياتهم، وبذلك تأثرت أشعارهم بها، بما ظهر فيها من عناصر إسلامية كثيرة[6].

فالقيم الدينية من صدق، وصبر، وتواضع، وحلم ، وغيرها تعدُّ هي جوهر مكارم الأخلاق، فحينما يتحلى المرء بها يورث مجتمعه الفضيلة، وحينما يتجرد عنها، يورث مجتمعه الرذيلة، وإذا صار المجتمع كله متجردًا عنها كان مجتمعًا لا وزن له في المعايير الأخلاقية، والحضارة الإنسانية عامة والإسلامية خاصة .

---

[1]- ينظر: اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري، نافع محمود، ص 6.

[2]- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، 30/1.

[3]- ينظر: اتجاهات الشعر الأندلسي إلي نهاية القرن الثالث الهجري، نافع محمود، ص 212.

[4]- القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن الهجري الظواهر والقضايا والأبنية، د. عبد الحميد عبد الله الهرامة، 439/1.

[5]- ينظر: في أدب الإسلام عصر النبوة والراشدين وبني أميه دراسة وصفية تحليلية، محمد عثمان على، ص 324.

[6]- الأدب العربي في الأندلس ، د. عبد العزيز عتيق، ص218.

فلما كانت القيم الدينية هي روح الأخلاق كلها ومعيارها، أولى القرآن الكريم والسنة المطهرة عنايتهما الفائقة بها، من حيث الحث عليها أمرًا وترغيبًا وتنويهًا ، ومن ضدها تحذيرًا و نهيا وتنفيرًا وذمًا.

فهذه القيم تكون في سلوك المرء نفسه تظهر من خلال ملامحه وتصرفاته، سواء كان هناك تعامل للأفراد في المجتمع بحيث تظهر آثارها، أو لم يكن هناك تعامل، فإنها تعرف من خلال ملامح الفرد وسماته.

فالقيم الدينية إذا: هي مجموعة الأخلاق المستوحاة من القرآن والسنة المطهرة، التي تصنع نسيج الشخصية الإسلامية، وتجعلها متكاملة قادرة على التفاعل داخل المجتمع، والتوافق مع أعضائه، وعلى العمل من أجل النفس والأسرة والمجتمع.

وسوف نتعرف في هذا الفصل على مدى تخلّق الأندلسيون بالقيم الدينية، ومدى تمسكهم بها في حياتهم ممن خلال شعر لسان الدين ابن الخطيب ، التي سيعرضها البحث على النحو الآتي.

التقوى:

التقوى رأس كل شيء، وجماع كل خير، وهي غاية الدين، ووصية الله_ تعالى_ للناس أجمعين، الأولين منهم والآخرين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ إِتَّقُواْ ﴾[1]، **والتقوى في لغة** : من وَقِيَ، والواو والقاف والياء كلمة واحدة، تدل على دفع الشيء بغيره، والْوِقَايَة: مَا يَقِي الشيء، وَاتَّقَ الشيء: تَوَقَّهُ؛ أي اجعل بينك وبينه كالوقاية [2]، وهي: الخشية والخوف، تقوى الله امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وأصله وقيا قلبوه للفرق بين الاسم والصفة[3]، والأصل: قَوِيٌّ فأبدلوا من الواو الأولى تاء، وأبدلوا من الواو الثانية ياء، وأدغموها في الياء التي بعدها، وكسروا القاف لتصبح الياء[4].

---

[1]- سورة النساء، من الآية: 131.

[2]- ينظر مقاييس اللغة، ابن فارس، 131/6.

[3]- ينظر المعجم الوسيط، 1052/2.

[4]- ينظر لسان العرب، ابن منظور،402/5.

أما التقوى في الاصطلاح : فهي عبادة الله بفعل الأوامر، وترك النواهي عن خوف من الله، وعن رغبة فيما عنده، وعن خشية له– سبحانه– وعن تعظيم حرماته، وعن محبة صادقة له سبحانه، ولرسوله عليه الصلاة والسلام[1].

وقد سُئل علي بن أبي طالب – ﷺ– عن التقوى فقال: الخوف من الجليل، والعمل بما في التنزيل، والاستعداد ليوم الرحيل[2].

وبذلك فإن التقوى تعني أمرين:

- الإتيان بما يصلح الإنسان من خلال الالتزام بأوامر الله تعالى.
- الامتناع عما يضر الإنسان من خلال الابتعاد عن نواهي الله تعالى .

وكلاهما يساعدان بعضهما، فكلما أطاع الإنسان ربه من حيث الأوامر ساعده ذلك على الابتعاد عن النواهي .

ولعل الأصل الخلقي الذي تتفرع منه القيم الإسلامية كلها يتمثل في التقوى التي لا معنى لإيمان المسلم بغيرها؛ فهي الباعث الملهم لمحامد الأخلاق، وهي الصمام الذي يحكم كل قول، ويضبط كل فعل؛ لأن تقوى الله إذا وجدت سبيلها إلى القلوب، وعمرت بها السرائر، حجبت عن الإنسان بذلك كل أشكال الرذيلة، فتقوى الله بوتقة تنصهر فيها النفوس فتصفو، ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، ولن تتغير أنفسهم إلا بالتقوى[3] .

وقد أبرز ابن الخطيب دور التقوى حين جعلها خلقًا ساميًا تعمر به سريرة الإنسان طوال حياته، ومالها من فضل وثواب عند الله فيقول.[4]

أَبْدَيْتَ، مِنْ تَقْوَى الْإِله، سَرِيرَةً يُحْبَى مَقَامُكَ فَضْلَهَا ويُثابُ

وتظهر التقوى من خلال الأعمال الظاهرة، والعبادات التي يقوم بها الإنسان، ومن ذلك مدح ابن الخطيب لأبي الحجاج بأنه رجل تقي في صومه بما يقوم به من حقوق في شهر

---

[1]– ينظر: التقوى تعريفها وفضلها ومحذوراتها وقصص من أحوالها، عمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر العتيبي، ص9.

[2]– كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري، الشنقيطي،402/1.

[3]– ينظر: القيم الخلقية في الخطابة العربية من الجاهلية حتى بداية القرن التالث الهجري، سعيد حسين منصور،ص61.

[4]– ديوان ابن الخطيب، 106/1.

الصيام، من قراءة القرآن، وقيام ليل، فيزداد به تقربًا إلى الله تعالى، لما فيه من عظيم الأجر والثواب فيقول:[1]

تَلَقَّيْتَ شَهْرَ الصَّوْمِ بِالبِرِّ وَالتُّقَى تَودُّ بِأَنْ لاَ يَنْقَضِي ذَلِكَ الشَّهْرُ
وَوَدَّعَ يَثْنِي بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ وَقَدْ جَلَّتِ الزُّلْفَى وَقَدْ عَظُمَ الْأَجْرُ

وقد تكون التقوى بالنصح والإرشاد، والتمسك بالقيم والأخلاق الإسلامية، والبعد عما يشغل النفس من ملذات الحياة الدنيا، ونهي النفس عن هواها بإتّباعِ كتاب الله في كل أمور الحياة، فهو خير ما يشتغل به الإنسان؛ وذلك لا يكون إلا بالتقوى ، ومن ذلك قول ابن الخطيب للغني بالله:[2]

وَعَلَيْكَ بِالتَّقْوَى وَبِالْخُلُقِ الَّذِي يَنْهَى النُّفُوسَ عَنِ الْقَبِيحِ ويَعْذِلُ
وَاشْغَلْ عَنْ اللَّذَّاتِ نَفْسَكَ بالَّذِي نَفْسُ الْحَكِيمِ بِهِ تَلذُّ وتُشْغَلُ

وذهب ابن الخطيب في مدح أبي الحجاج إلى أنه رجل تقي، فتقواه امتدادًا لتقوى أسلافه من بني نصر، وعلى رأسهم أبوه إسماعيل، وأنهم سخَّروا أنفسهم لحماية هذا الدين، فكان النصر حليفهم، والملائكة قبيلا وعونًا لهم، وفي ذلك يقول:[3]

وَسَلَكْتَ لِلتَّقْوَى سُبِيلًا سَنَّهَا عَلَمُ الْمُلُوكِ أَبُوكَ إِسْمَاعِيلُ
وَرَجَعْتَ، وَالنَّصْرُ الْعَزِيزُ مُصَاحِبٌ لَكَ وَالْمَلَائِكَةُ الْكِرَامُ قَبِيلُ

لم تكن تقوى أبي الحجاج امتداداً لأسلافه فقط؛ بل اقتدى وسار على الطريق نفسه الذي سار عليها الخلفاء الراشدين، ويظهر هذا واضحًا في مدح ابن الخطيب له في ذكرى مولد الرسول– ﷺ – بأنه أثر تقوى الله في هذه الليلة المباركة، ولم ينشغل عنها بمجالس اللهو والغناء وأنه سار على طريقهم لقوله ﷺ : ((عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهدين من بعدي))[4]، فيقول:[5]

---

[1]– ديوان ابن الخطيب، 402/1.
[2]– ديوان ابن الخطيب، 504/2.
[3]– ديوان ابن الخطيب، 487/2.
[4]– سنن أبي داود، 329/4.
[5]– ديوان ابن الخطيب، 531/2.

أَشَادَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِفَضْلِهَا فَأَحْيَا سَبِيلاً دَارِساً لِأُولِي الْعِلْمِ
وَآثَرَ تَقْوَى اللهِ مِنْهَا فَلَمْ يَكُنْ بِمُشْتَغِلٍ عَنْهَا بِزِيرٍ وَلَا بَمِّ [1]
تَقِيٌّ حَذَا حَذْوَ الْخَلَائِفِ وَاقْتَدَى بِهِمْ مِثْلَ مَا خُطَّ الْكِتَابُ عَلَى الرَّسْمِ

وقد تتعدد الصفات والقيم في نفس الشخص من: عزم، وحزم، وحكمة، وكلم طيب، وعلى رأس هذه القيم : التقوى، كما جاء في مدح ابن الخطيب لأبي حمو [2]: موسى بن يوسف الزيانّي في قوله:[3]

وَمَا هُنَّ فِي التَّحْقِيقِ إِلَّا صِفَاتِه بِهِنَّ إِلَى إِطْرَائِهِ اسْتَطْرَدَ النَّظْمُ
وَمَنْ مِثْلُهُ قَدْ أَعْجَزَ الدَّهْرُ مِثْلَهُ إِذَا ذُكِرَ الْعَزْمُ الصَّرِيحُ أَوِ الْحَزْمُ أَوِ
أَوِ الدِّينُ مَرْفُوعًا عَلَى عَمَدِ التُّقَى الْكِلمُ الْحِكْمِيُّ يُشْفَى بِهِ الْكَلْمُ

وقد ذهب ابن الخطيب في مدح أبي حمو إلى أنه رجل شجاع شديد في غير قسوة، لينًا في غير ضعف، حازمًا صارمًا، فهو في رعيته كالأم التي تحنو على رضيعها، كما جاء في حديث النبي ﷺ: ((كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)).[4] فهو رجل يتقي الله في رعيته لما له من فكر صائب، وعلم بشؤون الرعية، والحكم فيقول مادحًا له:[5]

تَوَالَى مَن اسْتَرْعَيْتَ أَمْناً وَرَأْفَةً وَرِفْقًا كَمَا تَحْنُو عَلَى الْمُرْضِعِ الْأُمُّ
وَتَبْلُغُ أَعْنَانَ السَّمَاءِ بِهِمَّةٍ بِغَيْرِ جَمِيلِ الذِّكْرِ لَيْسَ لَهَا هَمُّ
وَتُوجِفُ مِنْ فَصْلِ الْخِطَابِ لِغَايَةٍ أَنَافَتْ وَجَلَّتْ أَنْ يُحِيطَ بِهَا وَهْمُ
وَتُصْمِي رَمَايَا الْغَائِبَاتِ بِفِكْرَةٍ يُسَدِّدُهَا التَّقْوَى وَيُنْجِدُهَا الْعِلْمُ

---

[1] – الزير من العود: مايقابل البم، والبم: الوتر الغليظ من أوتار العود، والزير أرفع أوتار العود، ينظر: الأغاني، للاصفهاني، 566/2.

[2] – موسى بن عثمان بن يغمراسن بن زيان، أبو حمو: رابع سلاطين بني عبد الواد من آل زيان، في تلمسان وبلاد المغرب الأوسط ، كان عضدا لأخيه أبي زيان في حربه وسلمه، خلفه بعد وفاته سنة 707هـ، ينظر الاعلام للزركلي: 7/ 325.

[3] – ديوان ابن الخطيب ، 543/2.

[4] – صحيح البخاري، 12/5.

[5] – ديوان ابن الخطيب، 546/2.

وجاء في مدح ابن الخطيب لأبي حمو، بأنه رجل تقي، شجاع، حكيم، عادل أقام سياسة دولته على التقوى، وأساس متين من العلم، فعم العدل أركانها، يقول في ذلك:[1]

مَلِيءٌ بِأَوْصَافِ الْإِمَامِ بِمِثْلِهِ وَلَا مِثْلَ مَنْ يَبْغِي الْإِمَامَةَ يَأْتَمُّ
إِذَا اجْتَمَعَ الْإِقْدَامُ وَالرَّأْيُ وَالتُّقَى وَسَاعَدَ سَعْدٌ وَاسْتَقَلَّ بِهِ عَزْمُ
وَلَاحَتْ بِآفَاقِ السَّمَاحِ مَخِيلَةٌ مِنَ الْجُودِ يَتْلُو بَرْقَهَا الْعَارِضُ السَّجمُ
وَقَامَ عَلَى التَّقْوَى بِنَاءَ سِيَاسَةٍ يُمَهِّدُ مِنْ أَسَاسِ أَرْكَانِهَا عِلْمُ
وَرَفَّتْ عَلَيْهَا نِسْبَةٌ طَالِبِيَّةٌ فَلَيْسَ ظَلَامٌ فِي الْوُجُودِ وَلَا ظُلْمُ

ومن ناحية أخلاقية أخرى، يربط ابن الخطيب بين التقوى والتعصيب، إذ استخدم مصطلح التعصيب؛ ليجعل الأرض إرث لممدوحه لما يتصف به من تقوى وصلاح متأثراً بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2] يقول تهنئة يوسف بن إسماعيل بهلاك طاغية الورم:[3]

وَإِذْ قِيلَ: أَرْضُ اللهِ إِرْثُ عِبَادِهِ بِمُوجِبِ تَقْوَى اللهِ ، أَنْتَ أَقْرَبُ عَاصِبِ

وفي موضع آخر، وفي المعنى نفسه يقول:[4]

الْأَرْضُ إِرْثٌ وَالْمَطَامِعُ جَمَّةٌ كُلٌّ يَهَشُّ إِلَى الْتِمَاسِ نَصِيبِ
وَخَلَائِفُ التَّقْوَى هُمُ وُرَّاثُهَا فَإِلَيْكَهَا بِالْحَظِّ وَالتَّعْصِيبِ [5]

وقد تظهر التقوى واضحة على صاحبها ، ولا تحتاج إلى ذكر، فأخباره وأعماله تشهد له بذلك، كما جاء في مدح ابن الخطيب لأبي الحجاج في قوله:[6]

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمُرَجَّى والَّذِي شَهِدَتْ بِتَقْوَى رَبِّهِ أَخْبَارُهُ

---

[1]- ديوان ابن الخطيب، 546/2.
[2]- سورة الأعراف، من الآية: 128.
[3]- ديوان ابن الخطيب، 114/1.
[4]- ديوان ابن الخطيب ، 132/1.
[5] - العصبة: الذين يرثون الرجل ، وفي الفرائض فكل من لم تكن له فريضه مسماة فهو عصبه، إن بقيه شيء بعد الفرائض أخذه ، ينظر: القاموس المحيط، 115/1.
[6]- ديوان ابن الخطيب، 373/1.

بل زاد في وصف تقوى يوسف الحجاج، فجعله من أئمة المتقين الذين يُهتدى بهم متأثرًا في ذلك بقوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾[1]، ويقول في ذلك:[2]

لِلهِ يُوسُفُ مِنْ إِمَامِ هِدَايَةٍ مَلِكٍ غَدَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامَا

ومما يدل على حسن خاتمة عمر الإنسان أن يموت على تقوى الله، في ظل ذكره عطراً حتى بعد موته، كما جاء في قول ابن الخطيب وهو يرثي أبا الحجاج، عندما قتل وهو ساجدًا في صلاته فيقول:[3]

تَوَلَّى شَهِيداً سَاجِدًا فِي صَلَاتِهِ أَصِيلَ التُّقَى رَطْبَ اللِّسَانِ مِنَ الذِّكْرِ

وعندما يموت الإنسان لن يبقى معه أحد في قبره سوى العمل الصالح، فخير ما يتزود به الإنسان في هذه الدنيا هو التقوى، مصدقاً لقوله تعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[4]، فالتقوى أفضل زاد يتزود به العبد. فكانت التقوى هي خير زاد تزود به أبو الحجاج في حياته؛ لما كان عليه من قيم وأخلاق إسلامية فاضلة، ومن أصل رفيع، وسلالة كريمة، عرفت منذ الجاهلية بالجود، وكرم، وحلم، وشجاعة، وفروسية، وعلى رأس هذه القيم التقوى، فهو من سلالة سعد بن عبادة الخزرجي أحد صحابة رسول الله_ ﷺ_ وفي هذا يقول ابن الخطيب:[5]

وَيَا مَلْحَدَ التَّقْوَى، ويَا مَدْفَنَ الْهُدَى وَيَا مَسْقِطَ الْعَلْيَا، وَيَا مَغْرِبَ الْبَدْرِ
لَقَدْ حَطَّ فِيكَ الرَّحِلَ أَيُّ خَلِيفَةٍ أَصِيلِ الْمَعَالِي غُرَّةٍ فِي بَنِي نَصْرِ،
لَقَدْ حَلَّ فِيكَ الْعِزُّ وَالْمَجْدُ وَالْعُلَا وَبَدْرُ الدُّجَى، وَالْمُسْتَجَارُ مِنَ الذُّعْرِ
وَمَنْ كَأَبِي الْحَجَّاجِ حَامِي حِمَى الْهُدَى وَمَنْ كَأَبِي الْحَجَّاجِ مَاحِي دُجَى الْكُفْرِ
إِمَامُ الْهُدَى، غَيْثُ النَّدَى، دَافِعُ الْعِدَى بَعِيدُ الْمَدَى فِي حَوْمَةِ الْمَجْدِ وَالْفَخْرِ

---

[1]- سورة الفرقان، من الآية: 74.
[2]- ديوان ابن الخطيب، 534/2.
[3]- ديوان ابن الخطيب، 399/1.
[4]- سورة البقرة، من الآية،196:.
[5]- ديوان ابن الخطيب، 398/1.

سُلَالَةُ سَعْدِ الْخَزْرَجِ بْنِ عُبَادَةٍ وَحَسْبُكَ مِنْ بَيْتٍ رَفِيعٍ وَمِنْ قَدْرِ
إِذَا ذُكِرَ الْإِغْضَاءُ وَالْحِلْمُ وَالتُّقَى وَحَدَّثْتَ عَنْ عَلْيَاهُ، حَدِّثْ عَنِ الْبَحْرِ

ومن ذلك قوله أيضًا:[1]

الْعَدْلُ وَالشِّيَمُ الْكَرِيمَةُ وَالتُّقَى وَالدَّارُ والْأَلْقَابُ وَالْخُدَّامُ
حَسْبِي بِأَنْ أَغْشَى ضَرِيحَكَ لَا ثِمًا وَأَقُولُ: وَالدَّمْعُ السَّفُوحُ سِجَامُ
يَا مَدْفَنَ التَّقْوَى، وَيَا مَثْوَى الْهُدَى مِنِّي عَلَيْكَ تَحِيَّةٌ وَسَلَامُ

فالتقوى هي أجمل لباس يتزين به العبد، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ﴾[2]، وقد جمع ابن الخطيب بين التقوى والعفاف في رثاء أبي الحسن المريني فقال:[3]

مَلِكُ الْمُلُوكِ أَجَلُّ مَنْ كُسِيَ التُّقَى بُرْداً، وَشُدَّ عَلَى الْعَفَافِ إِزَارُهُ
مَلِكُ الْمُلُوكِ، وَنُخْبَةُ النُّخَبِ الَّذِي عُرِفَتْ عَلَى طُولِ الْمَدَى أَنْوَارُهُ

وقد تجتمع الشجاعة والفروسية والفضل والتقوى، كما جاء في قول ابن الخطيب عند مخاطبته لشيخ العرب مبارك بن إبراهيم بن عطية الخلطي[4] مستدعيًا لذلك شخصيات من التراث العربي عرفت بالأخلاق الرفيعة والشيم الحميدة، فقال: [5]

عِنْدَ الْهِيَاجِ رَبِيعَةُ بْنُ مُكَدَّمٍ [6] فِي الْفَضْلِ وَالتَّقْوَى الْفُضَيْلُ [7] وَمَالِك [8]

فالتقوى من أهم الشعائر الدينية التي يحرص عليها أصحاب الرسول ﷺ، وقد جمع ابن الخطيب بين العزم والتقوى، والحذر واليقظة، لما جاء في قوله ﷺ: ((عينان لا تمسهما النار ،

---

[1] – ديوان ابن الخطيب، 558/2.

[2] – سورة الاعراف، من الآية: 26.

[3] – ديوان ابن الخطيب، 442/1.

[4] – شيخ العرب: مبارك بن إبراهيم بن عطية ابن مهلهل الخلطي، شيخ قبيلة الخلط، صاحب الشورى في عهد أبي الفضل، ينظر: تاريخ ابن خلدون، 420/7.

[5] – ديوان ابن الخطيب، 473/2.

[6] – ربيعة بن مكدم: من بني كنانة، أحد فرسان مضر المعدودين في الجاهلية. يرظر الأغاني،130/14

[7] – وهو الزاهد المشهور: أبو علي الفضيل بن عياض الفنديني. ينظر وفيات الأعيان،47/4

[8] – أبو يحيى مالك بن دينار البصري، كان زاهداً كثير الورع والتقوى. ينظر وفيات الأعيان،4/ 139

عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله))[1]، ومن هنا مدح ابن الخطيب قومه فقال:[2]

قَوْمٌ أَهَابَ بِعَزْمِهِمْ دَاعِ ي الْهُدَى فَاسْتَشْعَرُوا التَّقْوَى وَجَابُوا الْبيدَا

فَإِذَا ظَلَامُ اللَّيْلِ مَدَّ جَنَاحَهُ كَحَّلُوا جُفُونَ عُيُونِهِمْ تَسْهِيدَا

فمن أهم سمات التقوى التي اتصف بها الصحابة، أنهم أشداء عن الكفار رحماء فيما بينهم، متأثرًا بلفظ القرآن الكريم ومعانيه في قوله تعالى: ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾[3]، ومنه مدح ابن الخطيب لقوم الحجاج من آل نصر، فيقول:[4]

سِيمَاهُمُ التَّقْوَى أَشِدَّاءٌ عَلَى الْـ كُفَّارِ فِيمَا بَيْنَهُمْ رُحَمَاءُ

ومما سبق تظهر مظاهر التقوى في شعر لسان الدين ابن الخطيب، من خلال الأعمال الظاهرة والعبادات من صوم وصلاة، والتمسك بالقيم الأخلاقية والإسلامية، وعدم إشغال النفس بملذات الحياة الدنيا، فكانت التقوى هي خير زاد يتزود به الإنسان في هذه الدنيا، وكانت خير لباس يتزين به العبد أيضا، ومن أهم مظاهر التقوى أنها تجسدت في الرحمة بين الناس.

الإيمان بالقضاء والقدر:

الإيمان بالقضاء والقدر: هو النظام المحكم الذي وضعه الله تعالى لهذا الوجود، ضمن

---

[1]- سنن الترمذي، 175/4.

[2]- ديوان ابن الخطيب، 352/1.

[3] - سورة الفتح، من الآية: 29.

[4]- ديوان ابن الخطيب، 95/1.

نظام محكم تضبطه قوانين عامة تربط الأسباب بمسبباتها [1]، والتسليم بهما من العقائد الإيمانية التي تكشف عن مدى وعي المسلم بدينه في ضوء سنن الحياة التي يحياها، فمتى ترسخ في وجدانه أن جميع حركات الحياة المرتبطة بسننها إنما تقع وفق علم الله_ سبحانه_ وتقديره، وتوافق مع هذا الإيمان سلوكه الذي لايترك سبباً إلا أخذ به، كانت هذه العقيدة دافعاً إلى حياة إيمانية راقية على مستوى الفرد والجماعة ، وفي ظل هذه العقيدة يعد القدر المحرك الأصيل للنفس البشرية، وهو الدافع الحقيقي للعمل في ميدان الحياة ، وقد ورد القضاء والقدر في مواضع كثيرة من القرآن منها قوله تعالى:﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِے ٱلْأَرْضِ وَلَا فِے أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِے كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَےْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ قُل لَّنْ يُّصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾[4]، وقوله تعالى ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَےْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيراً ﴾[5]، أما ما ورد في الهدي النبوي في هذا الصدد، قوله ﷺ:((لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه))[6].

وقد أعلن ابن الخطيب التسليم والانقياد لقضاء الله وقدره، لما مر به من خطوب في هذه الدنيا، فالتسليم بقضاء الله وقدره يجعل النفس أكثر خضوعاً لله وأشد ارتباطاً بهديه، فهو يريح النفس ويكفيها مؤنة التفكير والحسرة والألم، طالما أن الذي قدر هو الله_ عز وجل_ الذي لا راد لقضائه. فيقول:[7]

قَدْ غَ زَتْنِي الْخُطُوبُ غَ زْو الْأَعَادِي وَبَرَتْنِي الْهُمُومُ بَرْيَ قِدَاحِ
سَبَقَ الْحُكْمُ وَاسْتَقَلَّ وَهَلْ يُمْحَى قَضَاءٌ قَدْ خُطَّ فِي الْأَلْوَاحِ؟

---

[1] – العقائد الإسلامية، سيد سابق، ص 95.
[2] – سورة الحديد، الآية: 22.
[3] – سورة القمر، الآية: 49.
[4] – سورة التوبه، من الآية: 51.
[5] – سورة الفرقان، من الآية: 2.
[6] – سنن الترميذي،667/4.
[7] – ديوان ابن الخطيب،254/1.

والتسليم بالقضاء والقدر عند ابن الخطيب يجعل الإنسان أكثر شجاعة في ممارسة حياته، دون خوف أو وجل ؛ لأنه على يقين دائم أن قضاء الله وقدره يغلب العزم في حكمه فيقول:[1]

وَلَكِنْ قَضَاءٌ يَغْلِبُ الْعَزْمَ حُكْمُهُ وَيَضْرِبُ مِنْ دُونِ الْحِجَا بِحِجَابِ

ومنهم من كانت همته تمضي كالقضاء والقدر الذي لا يرد، وهذا ما يراه ابن الخطيب في حكم أبي الحجاج فيقول:[2]

إِذَا هَمَّ أَمْضَى الله فِي الْأَرْضِ حُكْمَهُ وَمَا لِقَضَاءِ اللهِ فِي الْأَرْضِ مِنْ رَدِّ

بل إن ابن الحجاج ماضٍ في نصرة دين الله ، كما يمضي القضاء والقدر، وهذا ما جاء في قوله:[3]

وَتَمْضِي كَمَا يَمْضِي الْقَضَاءُ بِقُدْرَةٍ مِنَ اللهِ لَا يُلْفَى لَهَا الدَّهْرَ دَافِعُ

وقد يمضي قضاء الله وقدره في إرساء مبادئ العدل ، ونصرة دينه إلا بحد السيف، وفي هذا يقول:[4]

وَرَأَيْتُ سَيْفَ اللهِ مَطْرُورَ الشَّبَا يَمْضِي الْقَضَاءُ بِحَدِّهِ الْمَرْهُوبِ

فالنصر قضاء وقد ر، والله كفيل بنصر المسلمين حتى من بعد هزيمة ، وهذا ما جاء على لسانه:[5]

السَّعْدُ جُنْدُكَ وَالْقَضَاءُ دَلِيلُ وَاللهُ بِالنَّصْرِ الْعَزِيزِ كَفِيلُ

فمن كان الله عونً ا له وملائكته لا يخشى المكر والخديعة، وهذا ما جاء في قول الرسولﷺ: ((واعلم إن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله

---

[1]- ديوان ابن الخطيب،156/1.

[2]- ديوان ابن الخطيب،302/1.

[3]- ديوان ابن الخطيب،649/2.

[4]- ديوان ابن الخطيب،130/1.

[5]- ديوان ابن الخطيب،486/2.

لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف))[1]، ومن ذلك قول ابن الخطيب:[2]

إِنْ أَبْرَمُوا أَمْرًا، فَرَبُّكَ مُبْرِمٌ أَمْرًا، وَإِنَّـهُمُ هُمُ السُّفَهَاءُ

وَاللهُ- جَلَّ اسْمًا- لِمُلْكِكَ نَاصِرٌ وَاللهُ فِيهِ كِفَايَةٌ وَكِفَاءُ

فَمَنِ الْمُدَافَعُ وَالْمَلَائِكُ حِزْبُهُ وَاللهُ رِدْءٌ، وَالْجُنُودُ قَضَاءُ

فربما يأتي القضاء والقدر بكل ما يختاره الإنسان، وهذا ما يراه ابن الخطيب في قوله:[3]

وَانْعَم بمقْتَبلِ السُّعُودِ فَإِنَّمَا يَجْرِي الْقَضَاءُ بِكُلِّ مَا تَخْتَارُهُ

ومما سبق يتبين أنّ مظاهر الإيمان بالقضاء والقدر عند ابن الخطيب في التسليم بالقضاء والقدر، مما يجعل النفس أكثر خضوعًا لله_ تعالى_ وارتباطًا بهديه، فتكون النفس أكثر شجاعة وقوة دون خوف أو وجل.

[1]- مسند الإمام أحمد بن حنبل، 410/4.

[2]- ديوان ابن الخطيب،95/1.

[3]- ديوان ابن الخطيب،374/1.

التوكل على الله:

يعد التوكل من أعظم منازل العبادات، لكونه أصلًا لكافّة أنواع العبادات، فهو أجل وأعظم الأعمال القلبية وأشرفها، وهو سبب في انغمار قلب العبد بالراحة، والأمان النفسي.

فالتوكل لغة يعنى: إظهار العجز، و الاعتماد على غيرك، وَأَوْكَلَ فلان: إذا ضيع أمره مُتَكِلاً على غيره[1]، وَاتَّكَلَ على فلان في أمره: إذا اعتمده[2]، وَتَوَكَّلَ على الله وَأَوْكَلَ وَاتَّكَلَ: استسلم إليه، وَوَكَلَ الأمر وَكَلًا.[3]

أما التوكل اصطلاحًا: الثقة بما عند الله، واليأس عما في أيدي الناس [4]، وهو أن توطن قلبك على أن قوام بنيتك، وسد خلتك، وكفايتك، إنما هو من الله – عز وجل – لا بأحد دون الله، ولا بحطام من الدنيا، ولا سبب من الأسباب، ثم الله – سبحانه – إن شاء سبب له مخلوقًا أو حطامًا، وإن شاء كفاه بقدرته دون الأسباب والوسائط[5].

إن التوكل خلق نابع من إيمان قوي بالله – تعالى – وبقدرته وحسن تدبيره لعبيده، إذ لا يحمل عليه إلا هو.

فقد جعل الله– تعالى– التوكل شرطاً في الإيمان، فهو يدل على انتقاء الإيمان عند انتقاء التوكل فمن لا توكل له لا إيمان له[6]، قال تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[7]، وإن قوة التوكل وضعفه حسب قوة الإيمان وضعفه، وكلما قوى إيمان العبد، كان توكله أقوى، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل، وإذا كان التوكل ضعيفاً، فهو دليل على ضعف الإيمان.

غير أن التوكل على – الله تعالى – مرتبط بالسعي فالتوكل وحده لا يكفى، ولكن على المرء أنْ يسعى في دنياه ولا يقتصر على التمني؛ ((لأن التوكل لا ينافي القيام بالأسباب فلا

---

[1]– ينظر: مجمل اللغة، ابن فارس، 547/4.

[2]– ينظر: مختار الصحاح، الرازي، ص 734.

[3]– ينظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي،66/4.

[4]– ينظر: التعريفات، الجرجاني، ص70.

[5]– ينظر: منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين، الغزالي،ص250.

[6]– ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم،128/2.

[7]– سورة المائدة، من الآية: 23.

يصح التوكل إلا مع القيام بها))[1]، فعن أنس بن مالك– ﷺ –أنه قال: ((قال رجل: يا رسول الله أعقلها وأتوكل، أو أطلقها وأتوكل ؟ قال اعقلها وتوكل))[2].

فالتوكل على الله من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب، ويدفع بها المكروه؛ لأن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه.

وقد استعان ابن الخطيب بالحديث المذكور آنفًا، في حث السلطان المخلوع محمد الخامس بالمطالبة بحقه في حكم الأندلس، وذلك بالتوكل على الله، والصبر، والأخذ بالأسباب فيقول:[3]

الْحَقُّ يَعْلُو وَالْأَبَاطِلُ تَسْفُلُ ... وَاللهُ عَنْ أَحْكَامِهِ لَا يُسْأَلُ

وَالْأَمْرُ فِيمَا كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنٌ ... كَالْعِلَّةِ الْقُصْوَى فَكَيْفَ يُعَلَّلُ

وَهُوَ الْوُجُودُ يَجُودُ طَوْرًا بِالَّذِي ... تَرْضَى النُّفُوسُ بِهِ وَطَوْرًا يَبْخَلُ

وَالْيُسْرُ، بَعْدَ الْعُسْرِ، مَوْعُودٌ بِهِ ... وَالصَّبْرُ بِالْفَرَجِ الْقَرِيبِ مُوَكَّلُ

وَالْمُسْتَعِدُّ لِمَا يُؤَمِّلُ ظَافِرٌ ... وَكَفَاكَ شَاهِدُ ((قَيِّدُوا وَتَوَكَّلُوا))

لقد أعد الله – تعالى – للمتوكلين عليه من عظيم المثوبة في الدنيا والآخرة، فهو جزاء صدق اعتماده عليه، ويقينهم به وتوكلهم عليه؛ لأنه أكرم من رُجي، وأفضل من سُئل، وهو عند حسن ظن عبده به، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[4]، فالله عزيز لا يذل من استجار به، ولا يضيع من لاذ بجنابه، حكيم لا يقتصر عن تدبير من توكل على تدبيره، فالتوكل والدعاء سببان لحصول المطلوب، كما في قول ابن الخطيب:[5]

عَسَى اللهُ يُدْنِي سَاعَةَ الْفَرَجِ الَّتِي ... بِهَا يَتَسَرَّى عَنْ فُؤَادِي خَبَالُهُ

صَرَفْتُ إِلَى اللهِ الرَّجَاءَ ضَرَاعَةً ... وَمَا خَابَ يَوْماً مَنْ عَلَيْهِ اتِّكَالُهُ

---

[1]– مدارج السالكين، ابن القيم، 117/2.

[2]– سنن الترمذي،668/4.

[3]– ديوان ابن الخطيب، 495/2.

[4]– سورة الأنفال، من الآية: 49.

[5]– ديوان ابن الخطيب،495/2.

ومن صور التوكل ترك الأمور إلى الله سبحانه وتعالى، والاتكال عليه، وعدم التسرع والتعجل في طلب المراد، كما جاء في مدح ابن الخطيب لأبي عنان المريني:[1]

فَكُلِ الْأُمُورَ إِذَا اعْتَرَتْكَ لِرَبِّهَا مَا ضَاقَ لُطْفُ الرَّبِّ عَنْ مَرْبُوبِ

مَنْ رَامَ نَيْلَ الشَّيْءِ قَبْلَ أَوَانِهِ رَامَ انْتِقَالَ يَلَمْلَمٍ [2] وَعَسِيبِ [3]

وخلاصة ما سبق أن مظاهر التوكل على الله في شعر لسان الدين ابن الخطيب هي: التوكل على الله والسعي والأخذ بالأسباب، وكان التوكل أيضا مربوط بالدعاء ، فالتوكل والدعاء سببين لحصول المطلوب، وترك الأمور إلى الله، وعدم التسرع والتعجل في طلب المراد

الصدق:

الصدق من أحب الصفات إلى الله تعالى، وهو سمة الأنبياء الطاهرة، والصدق من أعظم الأخلاق، وهو منبع الفضائل التي أمر الإسلام بها.

فالصدق لغة: نقيض الكذب، صَدَقَ، يَصْدُقُ، صِدْقًا، وصَدُقًا وتَصْدَاقًا. صَدَقَهُ: قبل قوله. وَصَدَقَهُ الحديث: أنْبَاءه بِالصَّدْقِ ويقال صَدَقْتُ القوم؛ أي: قللهم صِدْقاً، وكذلك من الوعيد إذا أوقعت بهم قلت صَدَقْتُهم. ومن أمثالهم: الصِّدْقُ ينبئ عنك لا الوعيد. ورجل صَدُوقٌ: أبلغ من الصَّادِقْ[4].

وصدق (الصاد، والدال، والقاف) أصل يدل على قوة في الشيء قولاً وغيره. من ذلك الصِّدْقُ: خلاف الكذب، سمي لقوته في نفسه؛ لأن الكذب لا قوة له: هو باطل. وأصل هذا من قولهم شيء صَدْقٌ؛ أي صلب، ورمح صَدْقٌ[5].

والصدق اصطلاحًا: ((مطابقة الحكم للواقع، وهو قول الحق في مواطن الهلاك، وقيل : أن تصدق في موضع لا ينجيك منه إلا الكذب وألا يكون في أحوالك شوب، ولا في اعتقادك ريب، ولا في أعمالك عيب))[1].

---

[1]- ديوان ابن الخطيب،129/1.

[2]- يلملم: وادٍ يحرم منه أهل اليمن، انظر الجبال والامكنة المياه، أبو القاسم محمود الزمخشري، ص333.

[3]- وعسيب: جبل لبني هذيل، انظر الجبال والامكنة والمياه، أبو القاسم محمود الزمخشري، ص220.

[4]- ينظر: لسان العرب، ابن منظور، 193/10.

[5]- ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، 339/3.

فالصدق في الأقوال: ((استواء اللسان على الأقوال، كاستواء السنبلة على ساقها. والصدق في الأعمال: استواء الأفعال على الأمر والمتابعة، كاستواء الرأس على الجسد. والصدق في الأحوال: كاستواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص، والاستفراغ الواسع، وبذل الطاقة))[2].

فالصدق مقدمة لجميع أنواع الخير، وهادٍ إلى ضروب البر، وراع عن التلبس بباطل القول والعمل، ومنج ي صاحبه من مواقف الخزي والعار، وموروث أهله ثقة، وكرامة، وحسن أحدوثة، ومراقبة لجانب الله- سبحانه وتعالى- وعنوان الشرف في الدنيا، وصقيل النفوس، وجلاء الضمائر، ودليل الشجاعة الأدبية والشهامة المحمدية[3].

فلقد أمر به الله- عز وجل- في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[4]، فمنزلة أهل الصدق عند الله عظيمة، لذا رفع شأنها وأعلى مكانتها، والصدق من صفات الله تبارك وتعالى، كما جاء في قوله عز وجل: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴾[5]، وهو من أبرز صفات الأنبياء والمرسلين ، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَالذِے جَآءَ بِالصِّدْقِ ﴾[6]، فالذي جاء بالصدق هو نبينا محمد _ ﷺ_ وشهد لما جاء به من عنده سبحانه أنه صدق [7]، فوجب التصديق به_ ﷺ_ في كل ما جاء به؛ لأنه العلامة الفارقة بين الإيمان والكفر. كما في قول ابن الخطيب:[8]

رَسُولُ الْبَرَايَا جَاءَ بِالصِّدْقِ فَامَّحَتْ بِنُورِ هُدَاهُ التُّرَّهَاتُ الصَّحَاصِحُ [9]

أما شهادة الله- تعالى- لسيدنا محمد- ﷺ- بهذا الصفة العظيمة بخصوصه، زيادة على شهادته سبحانه له بعظمة الأخلاق عامة[10]، ومنها قوله تعالى: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾[1] وكما

---

[1]- التعريفات، الجرجاني، ص182.

[2]- مدارج السالكين، ابن القيم، 258/2

[3]- ينظر: القيم الخلقية في الشعر الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، سلمى سلمان على، ص126.

[4]- سورة التوبة، الآية: 119.

[5]- سورة النساء، من الآية: 122.

[6]- سورة الزمر، من الآية: 33.

[7]- ينظر: أخلاق النبي ﷺ في القران والسنة، أحمد الحداد،413/1.

[8]- ديوان ابن الخطيب،225/1.

[9] -الصحاصح: الترهات الباطلة، ينظر: القاموس المحيط، الفيروز آبادي، 228

[10]- ينظر: أخلاق ﷺ النبي في القران والسنة، أحمد الحداد،413/1.

جاء في مدح ابن الخطيب للرسول – ﷺ– بما مدحه الله سبحانه وتعالى من خلال سمات وصفات حميدة جاء ذكرها في القرآن الكريم، وعلى رأسها الصدق فيقول:[2]

رَسُولٌ أَتَى حُكْمُ الْكِتَابِ بِمَدْحِهِ وَأَثْنَى عَلَيْهِ اللهُ بِالصِّدْقِ وَالْحِلْمِ
أَحَبُّ مِنَ الْمَحْيَا، وَأَجْدَى مِنَ الْحَيَا وَأَهْدَى. لِمَنْ ضَلَّ السَّبِيلَ مِنَ النَّجْمِ

فالصدق لا يكون في الأقوال والأفعال فقط ؛ بل له جوانب أخرى منها الصدق في المحبة، كما جاء في قول ابن الخطيب في محبته لرسول الله ﷺ ، حيث استخدم مصطلح القرض، دليلاً على محبته لرسول الله– ﷺ– مستمداً قوله من الآية الكريمة ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِے يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ أَضْعَافاً كَثِيرَةً ﴾[3]، فيقول:[4]

أَقْرَضْتُ فِيكَ اللهَ صِدْقَ مَحَبَّتِي أَيَكُونُ تَجْرِي فِيكَ غَيْرَ رَبِيحِ؟
حَاشَا وَكَلَّا أَنْ تَخِيبَ وَسَائِلِي أَوْ أَنْ أَرَى مَسْعَايَ غَيْرَ نَجِيحِ

وقد يكون الصدق في المودة كما جاء في قول ابن الخطيب في صدق مودته لأبي الحسن بن الصباغ العقيلي[5]، فيقول:[6]

وَاللهُ يَعْلَمُ فِيكَ صِدْقَ مَوَدَّتِي وَحَقِيقَةُ الْأَشْيَاءِ غَيْرُ مَجَازِهَا

ولقد دعا ابن الخطيب إلى الابتعاد عن الكذب، وكل ما يدنس النفس، والتمسك بخصلة الصدق، فقد قيل: ((أحسن الكلام ما صدق فيه قائله ، وانتفع به صاحبه))[7]، فالصدق عكس الكذب، ينجي من سوء العواقب ، قال رسول الله ﷺ :((إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإن الكذب يهدي إلى الفجور،

---

[1]– سورة الأحزاب، من الآية: 22.

[2]– ديوان ابن الخطيب، 530/2.

[3]– سورة البقرة، من الآية: 245.

[4]– ديوان ابن الخطيب، 243/1.

[5] – علي بن محمّد بن عبد الحق بن الصباغ العقيلي، يكنى أبا الحسن، من أهل غرناطة، ينظر: الإحاطة في أخبار غرناطة، ابن الخطيب، 96/4.

[6]– ديوان ابن الخطيب،453/2.

[7]– القيم الخلقية في الشعر الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، سلمى سلمان على، ص127.

وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا))[1]، ففي هذا الحديث ترغيب في الصدق، والحث عليه مبينًا فضائله وثمراته، وتحذير من الكذب، مبينًا عواقبه، وفي هذا يقول ابن الخطيب مرغبًا في الصدق ومحذرًا من الكذب:[2]

أَخِي لَا تَقُلْ كَذِباً إِنْ نَطَقْتَ فَلِلنَّاسِ، فِي الصِّدْقِ، فَضْلٌ وَضَحْ
وَخَفْ إِنْ كَذَبْتَ طُرُوَّ افْتِضَاحِ فَمَا كَذَبَ الْفَجْرُ إِلَّا افْتَضَحْ

فالصدق يكون أيضًا في صحة الأخبار، وهو أفضل الصدق، ومنه قول ابن الخطيب لأبي الحجاج يهنئه بخبر هلاك طاغية الروم فيقول:[3]

هُوَ الْخَبَرُ الصِّدْقُ الَّذِي وَضَحَتْ بِهِ سَبِيلُ الْهُدَى بَعْدَ الْتِبَاسِ الْمَذَاهِبِ

أما الصدق والحق صفتان متلازمتان، فكل صاحب حق صادق، فعندما يكون الحق ظاهر وواضح كان الصدق أكثر ظهورًا ووضوحًا، فصاحب الحق دائمًا صادق وصوته مسموع، فقد يكون الصدق في الكلام الحسن، من حسن الثناء والذكر الجميل، وكما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾[4]، ومنه قول ابن الخطيب يثني على (لأبي عبدالله بن مرزوق)[5] في شرحه كتاب الشفاء للقاضي عياض السبتي، فيقول:[6]

لِلهِ مَا أَجْزَلْتَ فِينَا بِهِ مِنْ مِنْحَةٍ تَقْصُرُ عَنْهَا الْمُنُوحُ
رَوْضٌ مِنَ الْعِلْمِ هَمَى فَوْقَهُ مِنْ صَيِّبِ الْفِكْرِ الْغَمَامُ السَّفُوحْ
فَمِنْ بَيَانِ الْحَقِّ زَهْرٌ نَدٍ وَمِنْ لِسَانِ الصِّدْقِ طَيْرٌ صَدُوحْ

حض الإسلام على الصدق والاستقامة؛ لذا كان في شعر لسان الدين ابن الخطيب معيارًا إنسانيًا، وأخلاقيًا، فالصدق في القول والفعل دليل المؤمن العاقل العادل؛ لأنه الأساس

---

[1]- صحيح البخاري، 25/8.

[2]- ديوان ابن الخطيب،248/1.

[3]- ديوان ابن الخطيب،113/1.

[4]- سورة الشعراء، الآية: 84.

[5] - مُحَمَّد بن أحمد بن مُحَمَّد بن أحمد بن أبي بكر بن مرزوق، الحفيد العجيسي، التلمساني، فقيه أصولي ، محدث، مفسر، صوفي، لغوي، بياني، ينظر: معجم المؤلفين، 317/8.

[6]- ديوان ابن الخطيب،238/1.

الذي تقوم عليه الفضيلة التي أكدها الإسلام، مبتعدًا عما يدنس النفس، فهذه القيمة الإنسانية الحميدة، التي تناقض رذيلة الكذب، تنجي صاحبها من سوء العاقبة، وتقربه من المثل العليا، مقراً حقيقة مفادها أن الصدق إيمان في النفس، أساس الفضائل، وطبيعة الشعر يميل إلى هذه الفضائل وينصح بها.

وهكذا جاء في شعر ابن الخطيب، من صدق الرسول – ﷺ– وصدق محبته، والصدق في المودة، وصحة الأخبار، وفي الثناء الحسن، والذكر الجميل، وفي أفعال الناس عامةً فكان علامة واضحة للتمسك بهذه القيمة الأخلاقية.

الحِـلْـم:

الحلم أساس الأخلاق ودليل كمال العقل وامتلاك النفس، والمتصف به عظيم الشأن، رفيع المكانة، محمود العاقبة، فهو من الخصال العظيمة والحميدة التي يريد الله من عباده أن يتخلقوا بها، وهي خصلة يحبها الله ورسوله، لقوله ﷺ: ((إن فيك لخصلتين يحبهما الله ورسوله ، الحلم والأناة))[1].

الحِلم لغة: ترك العجلة، ((الحاء، واللام، والميم، أصوله ثلاثة: أحدهما: ترك العجلة... وذكر ابن فارس في الأصلين الآخرين، ثم قال: فالأول خلاف الطيش يقال. حَلُمْتُ عنه: أَحْلُمُ، فانا حَلِيمٌ[2].

والحِلم بالكسر: الأناة، والعقل، وجمعه أَحْلَامٌ، وَحُلُومٌ، ومنه قوله تعالى: ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾[3]، ويقال: هو حَلِيمٌ، وجمعه: حُلَمَاءُ وأَحْلَامٌ، وقد حَلُمَ فلان بالضم حُلُمًا، وَتَحلَّم إذا تكلفه[4].

والحِلم: الأناة والتثبت في الأمور[5]. قال ابن وهبون المرسي (ت:483 هـ):[6]

---

[1]- صحيح مسلم، 48/1.

[2]- ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، 93/2.

[3]- سورة الطور، الآية: 32.

[4]- القاموس المحيط، الفيروزآبادي،1096/1.

[5]- لسان العرب، ابن منظور، 305/3.

[6]- القيم الخلقية في الشعر الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، سلمى سلمان على، ص105.

وَفِيهِ أَنَاةُ مُقْتَدِرٍ حَلِيمٍ تَكَادُ تَفِرُّ بِالأَسْدِ النِّمَالا

وفي الاصطلاح: ((هو ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب))[1]، ويقال: ((هو الطمأنينة عند سورة الغضب، وقيل: تأخير مكافأة الظالم))[2].

فالحلم يعد خلقاً من الأخلاق القرآنية الحميدة التي يترتب عليها صلاح الحال وهدوء البال، وهو فرع من فروع الصبر الذي يترتب عليه محبة الله تعالى ، فالقرآن الكريم قد أثنى ثناءً بالغًا على بعض الأنبياء، وبعض عباد الله الصالحين بخلق الحلم، فقد أثنى به على رسوله الكريم– ﷺ– في آيات كثيرة، إن لم يكن من مادته فـإنه من معناه، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى:﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ ﴾[3]، فكان من ذلك: الحلم الذي يدل عليه اللين، وعدم الفظاظة والغلظة؛ لكونه – عليه الصلاة والسلام – لا يستعمل الغلظة والفظاظة مع الناس؛ بل كان رحيمًا عطوفًا، هو ذلك عين الحلم [4]، ومن ذلك ما جاء في مدح ابن الخطيب لرسول– ﷺ– بهذا الخلق العظيم فيقول:[5]

رَسُولٌ أَتَى حُكْمُ الْكِتَابِ بِمَدْحِهِ وَأَثْنَى عَلَيْهِ اللهُ بِالصِّدْقِ وَالْحِلْمِ

وقد تأتي فضيلتا الحلم والحزم معًا، وتقترن هاتان الخلتان في وقت واحد، فيكون الحلم قبل الحزم، والحزم لا يصاحبه تسرع في اتخاذ القرارات؛ بل حسن ترتيب وحسن تدبير، كما جاء في مدح ابن الخطيب للحجاج في قوله:[6]

وَمَنْ كـ يُوسُفَ فِي الْأَمْلَاكِ مِنْ مَلِكٍ بِالْحِلْمِ مُتَّسِمٍ بِالْحَزْمِ مُحْتَزِمِ

وقد يكون الحليم ذا قوة واقتدار، ولكن حلمه اقرب إليه من غضبه، كما في مدح ابن الخطيب لبني عبادة من سلاطين غرناطة ، أن حلمهم أسرع إليهم من غضبهم، فهو أسرع إليهم من حركة جفن العين، يقول في ذلك:[1]

---

[1]– المفردات في غريب القرآن، الراغب الاصفهاني، ص253.

[2]– التعريفات، الجرجاني، ص92.

[3]– سورة آل عمران، من الآية: 159.

[4]– أخلاق النبي ﷺ في القران والسنة، أحمد الحداد، 591/2.

[5]– ديوان ابن الخطيب، 530/2.

[6]– ديوان ابن الخطيب، 533/2.

أَبَنِي (عُبَادَةَ) إِنَّ فَخْرَ قَدِيمِكُمْ تُلِيَتْ بِفُرْقَانِ الْهُدَى أَسْطَارُهُ

النَّصْرُ لَفْظٌ أَنْتُمُ مَدْلُولُهُ وَالدِّينُ رَوْضٌ أَنْتُمُ نُوَّارُهُ

وَالْحلِمُ لَحْظٌ أَنْتُمُ أَجْفَانُهُ وَالْعِلْمُ قَلْبٌ أَنْتُمُ أَنْوَارُهُ

ومنهم من جمع الكثير من الفضائل الأخلاقية، من بينها الندى والبأس والكثير من الشيم الأخرى وعلى رأسها الحلم، كما جاء في مدح ابن الخطيب لأبي حمو فيقول في ذلك:[2]

جَمَعَ النَّدَى وَالْبَأسَ وَالشِّيَمَ الْعُلَا وَالسُّؤْدَدَ الْمُتَوَاتِرَ الْقُدْمُوسَا

وَالْحِلْمُ لَيْسَ يُبَايِنُ الْخُلُقَ الرِّضَي وَالْعِلْمُ لَيْسَ يُعَارِضُ النَّامُوسَا

ومما لا ريب فيه تميز الإنسان عن سائر الأحياء بأعظم صفه خلقية، وهي الحلم، التي جعلته يحتكم إلى عقله في معالجة الكثير من الأمور بدلا من الطيش والغضب، فقد قيل: ((أول عوض الحليم عن حلمه أن الناس أنصاره على الجاهل))[3]، فربما أحرز الحليم النصر المؤزر على من أراد أن يشن عليه حربًا، ولكن بحلمه وصبره فوت عليه ذلك، ومنه قول ابن الخطيب ناصحاً الغني بالله التحلي بخلق الحلم:[4]

وَأَقْبَل وَصِيَّةَ مَنْ أَتَى لَكَ نَاصِحًا وَاشْكُرْهُ وَهْوَ الْكَاذِبُ الْمُتَحَيِّلُ

وَعَلَى التَّثَبُّتِ فِي السِّعَايَةِ فَاعْتَمِدْ فَمَرَدُّ أَمْرٍ فَاتَ لَا يُسْتَسْهَلُ

وَإِذَا جَنَى جَانٍ تَبَيَّنَ جَهْلُهُ فَاحْلُمْ عَلَيْهِ، فَأَيْنَ مَنْ لَا يَجْهَلُ؟

وهناك من كان باب الحلم أقرب إليه من تنفيذ الحكم مع قدرته على تنفيذ حكمه، ولكن باب الحلم أقرب وأوسع إليه، ومنه قول ابن الخطيب في مدح أبي الحجاج :[5]

وَرَأْيُكَ بَيْنَ الْحِلْمِ وَالْحُكْمِ وَاقِفٌ عَلَى أَنَّ بَابَ الْحِلْمِ عِنْدَكَ أَوْسَعُ

---

[1]- ديوان ابن الخطيب، 373/1.

[2]- ديوان ابن الخطيب، 724/2.

[3]- المستظرف في كل فن مستظرف، بهاب الدين الأبشهي، ص 197.

[4]- ديوان ابن الخطيب،504/2.

[5]- ديوان ابن الخطيب،665/2.

ومنهم من جمع بين الحلم والحكمة والجود، وهي زبدة الأخلاق ، إذ يقول ابن الخطيب في مدح معلمه (أبي الحسن الجياب): [1]

يُرِيكَ حِجَى لُقْمَانَ [2] فِي حِلْمِ أَحْنَفٍ [3] وَمَنْطِقِ قُسٍّ تَحْتَ حِكْمَةِ هُرْمُسِ [4]

فَإِن شِئْتَ فِي بَحْرِ النَّدَى مِنْهُ فَاغْتَرِفْ وإِنْ شِئْتَ فِي نَارِ الْهُدَى مِنْهُ فَاقْبِس

ومنهم من كان كالبدر في جماله ؛ بل فاقه بالحلم والندى، وهذا ما جاء في مدح ابن الخطيب لأبي الحجاج :[5]

كَأَنَّكَ بَدْرٌ وَالْبِلَادِ مَنَازِلٌ إِذَا جِئْتَ أَفْقًا رَاقَ نُورُ جَمَالِهِ

وَإِنْ فَقْتَهُ بِالْحِلْمِ وَالْعِلْمِ وَالنَّدَى وَشَارَكْتَهُ فِي نُورِهِ وَانْتِقَالِهِ

ومما سبق يتبين أن أهم مظاهر الحلم في شعر ابن الخطيب، جاء في مدح الرسول – ﷺ– بهذا الخلق العظيم، وجاء الحلم أيضًا مقترن بالحزم، ومنهم من كان حلمه أقرب إليه من غضبه مع أنه ذ و قوة واقتدار، ومنهم من جمع الكثير من القيم الأخلاقية من علم وحزم وكرم وعلى رأسها الحلم، وهي خلاصة الأخلاق الإنسانية الحميدة، وبهذا كان الحلم طريقًا مؤديًا للخير والتقوى والصلاح.

العفو:

[1]– ديوان ابن الخطيب،736/2.

[2] – لقمان بن باعورا بن ناحور، انظر فتح البيان في مقاصد القرآن، 281/10.

[3] – الأحنف بن قيس، أحد من يضرب بحلمه وسؤدده المثل، انظر سير أعلام النبلاء،39/5.

[4] – هرمس، يقصد به الحكيم الثالث المصري، انظر إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص 259.

[5]– ديوان ابن الخطيب، 484/2.

العفو في اللغة: الترك والطلب، وورد في مقاييس اللغة ، لابن فارس : العين ، والفاء ، والحرف المعتل أصلان يدل أحدهما على ترك الشيء، والآخر على الطلب، فالأول: عَفْوُ – الله تعالى– عن خلقه، وذلك تركه إياهم فلا يعاقبهم فضلاً منه... [1]، وعَفَا عَنْهُ وعَفَا لَهُ ذَنْبُهُ: تركه ولم يعاقبه... والْعَفْوُ: المحو والإمحاء[2] .

أما في الاصطلاح: هو ((ترك المؤاخذة بالذنب))[3]، ومحوه من صفحه المؤاخذة مع القدرة على الانتقام.

وإذا كان العفو صفة من صفات الخالق – جل وعلا – فإنه من الجدير بالمؤمن أن يتحلى به؛ كما جاء في حديث الرسول ﷺ: ((وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله))[4] ، فمنهم من كان العفو عن الإساءة هو الطريق الأمثل والأقرب له، وهذا ما جاء على لسان ابن الخطيب في توجيهه للسلطان إسماعيل، وحثه على العفو فهو الطريق الأمثل والأقرب له:[5]

فَالْيَوْمَ إِذْ بَخَعَ الْمُسِيءُ بِذَنْبِهِ مُسْتَسْلِمًا وَتَنَصَّلَ الْمُتَنَصِّلُ

فَاشْمُلْ بِعَفْوِكَ مَنْ تَجَنَّى أَوْ جَنَى وَاسْلُكْ طَرِيقَتَكَ الَّتِي هِيَ أَمْثَلُ

وما زال ابن الخطيب يوجه النصح والإرشاد للسلطان إسماعيل بأن يأخذ بالعفو والستر:[6]

والستر:[6]

بِالْعَفْوِ خُذْ مِنْهُمْ وَلَا تَكْشِفْ لَهُمْ سِتْراً، فَلَسْتَ عَلَى كَبِيرٍ تَحْصُلُ

فالعفو صفة من صفات الله– جل في علاه– وصف الله نفسه به، ونسبه إليه، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ [7] فالله– جل وعلا – كثير العفو على عباده الذين يذنبون المستحقون المجازاة بالعقاب، لكن الله – سبحانه وتعالى – يترك مؤاخذتهم على كثرة ذنوبهم

---

[1] – ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، 364/4.

[2] – ينظر: تاج العروس، مرتضى الزبيدي، 686/19.

[3] – الذريعة إلى مكارم أهل الشريعة، الراغب الاصفهاني، ص241.

[4] – صحيح مسلم، 2001/4.

[5] – ديوان ابن الخطيب، 497/2.

[6] – ديوان ابن الخطيب، 504/2.

[7] – سورة الحج، من الآية: 60.

وجرائمهم؛ لأنه عفو قدير، وهذا ما جاء في رثاء ابن الخطيب لأبي الحجاج، وطلبه العفو والستر والرحمة له من الله فإنه لا يرجى العفو والستر إلا من الله تعالى فيقول:[1]

فَيَا مَلِكَ الْمُلْكِ الَّذِي لَيْسَ يَنْقَضِي وَ يَا مَنْ إِلَيْهِ الْحُكْمُ فِي الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ
تَغَمَّدْ بِسِتْرِ الْعَفْوِ مِنْكَ ذُنُوبَنَا فَلَسْنَا نُرَجِّي غَيْرَ عَفْوِكَ مِنْ سِتْرِ
وَخُصَّ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ بِرَحْمَةٍ تُبَوِّئُهُ دَارَ الْمُقَامَةِ وَالْأَجْرِ

وقوله أيضًا في طلبه العفو من الله – تعالى– على ما صنعه من ذنوب، وطمعه في عفو الله– تعالى– ومغفرته فهو أهل العفو وأهل المغفرة:[2]

جَزَيْنَا صَنِيعَ اللهِ شَرَّ جَزَائِهِ فَيَا فَلَمْ نَرْعَ مَا مِنْ سَابِقِ الْفَضْلِ أَوْلَانَا
ربِّ، عَامِلْنَا بِمَا أَنْتَ أَهْلُهُ مِنَ الْعَفْوِ وَاجْبُرْ صَدْعَنَا أَنْتَ مَوْلَانَا

ومازال ابن الخطيب يطمع في عفو الله ومغفرته؛ لأن العفو صفة من صفات الله – جل وعلا– كما جاء في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً ﴾[3]، فنجده لا يفرط في الملذات بل يذنب ويستغفر ربه؛ لأن الله– تعالى– كريم يغفر الذنوب جميعًا، وكما جاء في الحديث القدسي من قوله ﷺ: ((يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ، ثم استغفرتني غفرت لك، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا؛ لأتيتك بقرابها مغفرة))[4]، وهذا ما جاء في قوله:[5]

وَلَا تُضِعْ فُرَصَ اللَّذَّاتِ إِنَّ لَنَا رَبًا كَرِيمًا يُقِ ي لُ الذَّنْبَ غُفْرَانًا

وما زال ابن الخطيب يسعى ليكسب رضا مولاه، ويطلب العفو والمغفرة منه، مما جنت يداه من ذنوب وخطايا، فيقول:[6]

مَوْلَايَ، مَوْلَايَ، إِنْ أَرْضَاكَ بَذْلُ دَمِي فَقَدْ أَتَيْتُ بِهِ أَسْعَى عَلَى قَدَمِي

---

[1] – ديوان ابن الخطيب، 399/1.
[2] – ديوان ابن الخطيب، 610/2.
[3] – سورة النساء، من الآية: 43.
[4] – سنن الترميذي،440/5.
[5] – ديوان ابن الخطيب،583/2.
[6] – ديوان ابن الخطيب،554/2.

وَإِنْ تَعَاظَمَ ذَنْبٌ قَدْ جَنَتْهُ يَدِي وَطَالَ قَرْعِي عَلَيْهِ السِّنَّ مِنْ نَدَمِ

فَهَبْهُ لِي وَاغْتَفِرْ مَا كَانَ مِنْ خَطَإٍ وَزَلَّةٍ، وَ ارْعَ لِي حُبِّي عَلَى الْقِدَمِ

و قرن ابن الخطيب عفو مولاه أبي الحجاج، من عفو الله – سبحانه– ومغفرته، فقال في ذلك:[1]

بُشْرَاكَ، إِنَّ اللهَ أَكْمَلَ عِيدَنَا بِالْعَفْوِ مِنْكَ وَمِنْهُ بِالْغُفْرَانِ

عِيدٌ أَعَادَ عَلَى الزَّمَانِ شَبَابَهُ فَأَعْجَبُ لِأَشْمَطَ عِيدَ فِي رَيْعَانِ

ويرى ابن الخطيب أن أبا الحجاج وسيلة لاستجابة الدعاء وخاصة أنهم اصطفوا للصلاة خلفه فامتلأت قلوب المسلمين بالسكينة والطمأنينة بالدعاء إلى الله– سبحانه وتعالى– فتيقنوا العفو والمغفرة من الله– جل وعلا– عن ذنوبهم وزلاتهم، يقول:[2]

حَتَّى إِذَا اصْطَفُّوا، وَأَنْتَ وَسِيلَةٌ، وَسَمَا، إِلَى مَرْقَى الْقَبُولِ، دُعَاءُ

مُلِئَتْ صُدُورُ الْمُسْلِمِينَ سَكِينَةً إِذْ ذَاكَ، وَانْتَاشَ الْقُلُوبَ رَجَاءُ

وَتَيَقَّنُوا الْغُفْرَانَ فِي زَلَّاتِهِمْ مِمَّنْ لَدَيْهِ الْخَلْقُ وَالْإِنْشَاءُ

ويتضح أن أبا الحجاج أرحب صدرًا، وأوسع عفوًا، وأن باب العفو والإحسان هو الأقرب إليه دائمًا، وفي ذلك يقول ابن الخطيب:[3]

وَلَا زَالَتِ الْأَمْلَاكُ تَأْتِيكَ خُضَّعًا وَلَازِلْتَ بِالْإِحْسَانِ وَالْعَفْوِ تَكْلَفُ

فالعفو لا يصدر إلا من عزيمة وقوة، ولا يصدر عن ضعف وخنوع ، وهذا ما يراه ابن الخطيب في عفو الحجاج وموافقته على طلب الروم للهدنة، فيقول:[4]

عَلِمُوا مَوَاقِعَ ذَنْبِهِمْ مِنْ عَفْوِهِ فَاسْتَشْعَرُوا الْإِحْسَانَ حِينَ أَسَاءُوا

ويرى ابن الخطيب أن أفضل مكان للعفو عن الذنوب والخطايا في الأراضي المقدسة، فيغفر الله لهم عن جميع الآثام والخطايا، وخاصة أنهم بالقرب من سيدنا محمد– ﷺ– فيقول:[1]

---

[1] – ديوان ابن الخطيب،578/2.

[2] – ديوان ابن الخطيب، 95/1.

[3] – ديوان ابن الخطيب، 672/2.

[4] – ديوان ابن الخطيب، 94/1.

فَيُعْفَى عَنِ الْأَوْزَارِ فِي ذَلِكَ الْحِمَى وَتُغْتَفَرُ الْآثَامُ فِي ذَلِكَ اللَّثْمِ

فَللهِ دَرُّ الْقَومِ فِيهَا وَقَدْ غَدَوْا ضُيُوفًا بِمَثْوَى سَيِّدِ الْعُربِ وَالْعُجْمِ

ولقد حث ابن الخطيب على العفو ، والأخذ بالعرف متناصًا مع الآية الكريمة : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[2]، فقال:[3]

خُذِ الْعَفْوَ، وَابْذُلْ فِيْهِمُ الْعُرْفَ وَ لْتَسَعْ جَرِيرَةَ مَنْ أَبَدَى لَكَ الْغَدَرِ أَخْلاَقُ

ولقد كانت قيمة العفو في شعر لسان الدين بن الخطيب متمثله في طلب الستر والرحمة من الله، والطمع في العفو والمغفرة ؛ لكي تطمئن قلوبهم فباب العفو والمغفرة هو الأقرب إلى الله دائماً.

الحياء :

إن خلق الحياء رأس مكارم الأخلاق، وزينة الإيمان، وشعار الإسلام؛ فهو من صفات النفس المحمودة، فعلى حياة القلب يكون خلق الحياة، فكلما كان القلب أحيا كان الحياء أتم.

الحياء لغة: الانقباض والانزواء. فهو انقباض النفس عن القبيح وتركه لذلك [4]. يقال: الْحَيَا: الخصب والمطر، حَيِيَ منه حَيَاءً واسْتَحْيَا منه، واسْتَحَى منه، واسْتَحْيَاهُ [5]، يقال حيي فهو حيي، واسْتَحَيَا فهو مُسِتَحِي، وقيل اسْتَحَى فهو مُسَتِحٍ. واسْتَقَاهُ من الْحَيَاة؛ لأن الْحَيَ يكون منكسر القوة، منتقص الحياة، لما يعتريه من الانكسار والتغيير[6]، واسْتَحَيْتَهُ واسَتَحِيَتُ منه، وكذلك اسْتَحَيْتُ فيهما، ورجل حَيْ يٌّ: ذُو حَيَاء، والأنثى حَيِيَّة، وَخَجِل خَجَلاً. فعل فِعْلاً يُسْتَحَي مِنْهُ، وأخجله الأمر، وخجلته. والتوبة الاستحياء [7]،وخفر المرأة إذا استحت، وقيل أيضا: أصل الاستحياء من الحياء، واستحيا الرجل من قوة الحياة فيه لشدة علمه بمواقع العيب، فالحياء من

---

[1] – ديوان ابن الخطيب، 530/2.

[2] – سورة الأعراف، الآية: 199.

[3] – ديوان ابن الخطيب، 699/2.

[4]– ينظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب الاصفهاني، ص140.

[5]– ينظر: القاموس المحيط، الفيروز آبادي، 1278/2.

[6]– ينظر: المصباح المنير، الفيومي، ص173.

[7]– ينظر: المخصص، ابن سيدة ، 70/4.

قوة الحس ولطفه وقوة الحياة[1]، ويقال أيضاً أنه: ((تغير وانكسار يعرض للإنسان من تخوف ما يعاب به ويذم عليه))[2]، وهو ألم يعرض للنفس عند الفزع من النقيصة[3].

وهذه المعاني كلها متقاربة مدلولاتها، وإن اختلفت عباراتها وألفاظها.

أما في الاصطلاح فهو: خلق يبعث على تجنب القبيح، ويحض على الحسن ات، ويمنع التقصير في حق ذوي الحق[4].

فالحياء من أجل مكارم الأخلاق؛ لأنه يدل على طهارة النفس، وحياة الضمير، ويقظة الوازع الديني، ومراقبة الله – تعالى – فقد يكون الإنسان بطبيعته على أخلاق حميدة، وعلى رأس هذه الأخلاق الحياء؛ لأن الحياء أبرز أخلاق الإسلام، وذلك دليل على الخيرات كما قال ﷺ: ((الحياء خير كله))[5]،وقد أشار ابن الخطيب إلى خلق الحياء في رثائه لحاجب أبي عنان قائلاً:[6]

قائلاً:[6]

فَأَعْجَزْتَ حُجَّابَ الْعُلَا بِضَرِيبَةٍ مِنَ اللهِ وَالْخُلْقِ الْحَمِيدِ قَرِيبَةٍ

وَنَفْسٍ إِلَى دَاعِي الْكَمَالِ مُجِيبَةٍ تَذُوبُ حَيَاءً، وَهْيَ غَيْرُ مُرِيبَةٍ

وَإِنْ خُصَّ مِنْهُمْ مَاجِدٌ بِنَقِيبَةٍ فَقَدْ حُزْتَ فِي الْعَلْيَا جَمِيعَ الْمَنَاقِبِ

ولعل من أجل أنواع الحياء، أن يتذكر المرء باطلاع الله– تعالى– عليه في كل حال من أحواله، إذا ما تذكر المرء ذلك فإنه يستحي أن يرتكب أي ذنب، أو يزاول أيَّة رذيلة حياءً من الله تعالى، وهذا ما يترتب عليه اجتناب رذائل الأخلاق التي نهى الله عنها، وفي هذا يقول ابن الخطيب في مدح أبي حمو لاجتنابه صغائر الذنوب ولعفته وشدة حيائه:[7]

يَغُضُّ عَنِ الطَّيْفِ الْمُلِمِّ لِعِفَّةٍ وَفَضْلِ حَيَاءٍ لَا يَكِيدُهُمَا الْحِلْمُ

وَيَخْجِلُ سُحْبَ الْغَيْثِ، فَالْبَرْقَ خَجْلَةً إِذَا مَا هَمَى فِي كَفِّهِ وَابِلٌ سَجْمُ

---

[1]– ينظر: تهذيب الأسماء واللغات، ابن شرف النووي، 79/3.

[2]– تهذيب الأسماء واللغات، ابن شرف النووي، 79/3.

[3]– ينظر: ميزان العمل، للغزالي، ص 87.

[4]– جمع الوسائل في شرح الشمائل للقاري مع شرح المناوي، الملا القاري، ص173.

[5]– سنن أبي داود، 252/4.

[6]– ديوان ابن الخطيب، 126/1.

[7]– ديوان ابن الخطيب، 543/2،

ومنهم من تخلى عن حيائه فلا يبالى بأفعاله أيًّا كانت، فمن لم يستحي دعاه ترك الحياء إلى أن يفعل ما يشاء، ولا يردعه عنه رادع، كما جاء في قوله ﷺ :((إن لم تستحي فلصنع ما شئت))[1]، وكما جاء في مخاطبة ابن الخطيب لساقط أفرط في الكبر، وقلة الحياء فقال له:[2]

يَا مَنْ يَغَضُّ بِهِ الزَّمَانُ نَدَامَةً مِنْ كَفِّهِ وَتَرَاهُ قَارِعَ نَابِهِ

وَيَغَضُّ مَنْ فَرْطِ الْحَيَاءِ جُفُونَهُ مِنْ سُوءِ مَا قَدْ جَاءَهُ وَأَتَى بِهِ

وقوله أيضًا في قلة الحياء:[3]

أَوْقَحُ الْقَوْمِ ضَجَّتْ الْأَرْضُ مِنْهُمْ نَـبَـذُوا كُلَّ حِشْمَـةٍ وَحَيَـاءِ

فمن أهم مظاهر الحياء في شعر ابن الخطيب أن يكون سجية بالنفس الإنسانية ؛ لأنه من أبرز الأخلاق الإسلامية، فاستحياء المرء من الله – تعالى – من أجلّ أنواع الحياء ، وتذكر ه بإطلاع الله عليه، فلا يرتكب أي ذنب أو رذيلة حياء منه سبحانه وتعالى.

الصبر:

[1]- صحيح البخاري، 29/8.

[2]- ديوان ابن الخطيب، 137/1.

[3]- ديوان ابن الخطيب،98/1.

يعد الصبر من أبرز القيم الأخلاقية عامة والإسلامية على وجه الخصوص، وهو صفة من الصفات النبيلة، التي تدل على قوة الإيمان، فهو عبادة يحتاجها المسلم في كل أحواله من شدة ورخاء.

فالصبر لغة: الحبس، يقال: صَبَرْتُ على ذلك الأمر؛ أي: حبستها، يقال: صَبَرَ الرجل: يَصْبِرُ صَبْرًا فهو: صَابِر وَصَبُور [1]، وهو حبس النفس عن الجزع [2]، ومنه قول الله تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾[3].

وفي الاصطلاح: هو خلق فاضل من أخلاق النفس، يمنع به فعل مالا يحسن ولا يحمل، وهو قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها [4]. وهو حبس النفس عن الجزع والسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش[5]، وهو ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله لا إلى الله[6]، وقد ورد في القرآن الكريم الأمر بالصبر في قوله تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[7]، وتنويهًا به وبأهله في قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[8]، ومبينًا لأجره العاجل والآجل، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[9].

وقد تجلى خلق الصبر في أبهى صورة في رسل الله – صلوات الله وسلامه عليهم – فما كان لهم من وسيلة يتدرعون بها؛ حتى يتمكنوا من أداء واجبهم، سوى وسيلة الصبر على سفهاء أقوامهم، وظروف حياتهم، فلما صبروا على ما أوذوا وتحملوا أعباء دعوتهم، نجحوا في إبلاغها لأممهم وهدايتهم .

---

[1]– مقاييس اللغة، ابن فارس،329/3.

[2]– مختار الصحاح، الرازي، ص172.

[3]– سورة النحل، من الآية: 127.

[4]– عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، ابن القيم، ص16.

[5]– مدارج السالكين،ابن القيم،155/2.

[6]– التعريفات، الجرجاني، ص131.

[7]– سورة الكهف، من الآية: 28.

[8]– سورة البقرة، من الآية: 153.

[9]– سورة الزمر، من الآية: 10.

ونبينا محمد-ﷺ- أكثر رسل الله- تعالى- دعوةً وجهاداً، ثم كان أكثرهم ابتلاء وإيذاءً، منذ بزوغ فجر دعوته إلى أن لحق بربه جل وعلا[1].

ولقد جاء في مدح صبر الرسول -ﷺ- في نشر دعوته، وصبره على إيذاء عشيرته له ، قول ابن الخطيب:[2]

وَكَمْ قد تَجَشَّمْتَ الْخُطُوبَ كَوَالِحًا وَصَابَرْتَ لَيْلَ الرَّوْعِ وَهْوَ قَدِ ارْبَدَّا
وَآذَتْكَ فِي اللهِ الْعَشِيرَةُ جُهْدَهَا فَجَادَلْتَهَا بِالْحَقِّ أَلْسِنَةً لُدَّا
وَكَمْ قَدْ جَلَوْتَ الْمُعْجِزَاتِ عَلَيْهِمُ شُمُوسًا أَقَامُوا دُونَهَا اللُّبْسَ والْجُحْدَا
وَمَا يُثْمِرُ الْبُرْهَانُ إِلاَّ لَجَاجَةً إِذَا لَقِيَت أَنْوَارَهُ أَعْيُنًا رُمْدا
فَصَلَّى عَلَيْكَ اللهُ يَا خَيْرَ رَاحِمٍ وَأَشْفَقَ مَنْ يَثْنِي عَلَى رَأَفَةٍ كَبْدَا

وورد ذكر هذه الشيمة الخلقية في مدح أبي الحجاج، مشيرًا إلى نسبته الأنصارية للذين نصروا الرسول – ﷺ- وصبروا معه على إيذاء أعدائه، فكانوا له خير عون في نشر الدعوة الإسلامية، فقال فيهم:[3]

أَبَنِي (الْأَنْصَارِ) لَكُمْ شَرَفٌ حُكْمُ الْقُرْآنِ بِهِ نَطَقَا
آوَوْا، نَصَرُوا، أُوذُوا، صَبَرُوا كَانُوا لِرَسُولِ اللهِ وِقَا
حَفِظُوهُ بِبَذْلِ النَّفْسِ، كَمَا حَفِظُوا، بِجُفُونِهِمُ، الْحَدَقَا
وَافَوا للهِ مَا عَاهَدُو هـ مَا كَذَبُوهُ إِذْ صَدَقَا
وَرَضَوْا بِالصَّبْرِ، فَمَا وَهَنُوا جَزَعًا فِي الدِّينِ وَلاَ قَلَقَا
أَمُجَاهِدَ دِينِ اللهِ، لَقَدْ أَمَّنْتَ بِصَارِمِكَ الطُّرُقَا
وَخَلِيفَتَهُ فِي أُمَّةِ مَنْ بِالْوَحْيِ أَتَى، وَبِهِ فَرَقَا

ومنهم من يرى أن طريق الصبر شاقة ومهلكة، فلم يكن له غير الله ليهون عليه مشقة هذه الطريق، وهذا ما جاء في شوق ابن الخطيب لرسول الله- ﷺ- فقال:[4]

---

[1]- أخلاق النبي ﷺ في القران والسنة،أحمد الحداد،439/1.

[2]- ديوان ابن الخطيب،356/1

[3]- ديوان ابن الخطيب،688/2.

[4]- ديوان ابن الخطيب،286/1.

رَكِبْتُ طَرِيقَ الصَّبْرِ وَهْيَ مَفَازَةٌ لِيَ اللهُ مِنْ غَوْلِ الطَّرِيقِ وَبُعْدِهِ
مَوَاقِيتُ هَجْرٍ، أَرْبَعُونَ قَضَيْتُهَا فَيَا مَنْ لِصَبْرِي مِنْ بُلُوغِ أَشُدِّهِ

وقوله أيضًا:[1]

الصَّبْرُ، إِلاَّ فِي هَوَاكَ، حَمِيدُ الْخَطْبُ صَعْبٌ، وَالْمَرَامُ بَعِيدُ
يَا أَيُّهَا الْقَمَرُ الْحِجَازِيُّ الَّذِي تُجْلَى بِغُرَّتِهِ الدَّيَاجِي السُّودُ

ومنهم من كان الصبر من صفاته، وكان صبورًا على النائبات والمصائب، ولكن قد نفد صبره من البعد والفراق، وما يحمله من شوق ووجد وحب للرسول -ﷺ- تتزلزل له الجبال ولا تقدر على حمله، وقد ظهر هذا واضحاً على جسد ابن الخطيب فيقول:[2]

لَقَد ضِقْتُ ذَرْعًا بِالنَّوَى بَعْدَ بُعْدِكُمْ عَلَى أَنَّنِي لِلنَّائِبَاتِ صَبُورُ
أُدَافِعُ مِنْ شَوْقِي، وَوَجْدِي كَتَائِبًا يُزَلْزَلُ (رَضْوَى) عِنْدَهَا وَ (ثَبِيرُ)[3]
سَرَايَا، إِذَا مَا اللَّيْلُ مَدَّ رِوَاقَهُ عَلَى سَاحَةِ الصَّبْرِ الْجَمِيلِ تُغِيرُ
بَرَى جَسَدِي فِيكُمْ غَرَامٌ وَلَوْعَةٌ إِذَا سَكَنَ اللَّيْلُ الْبَهِيمُ تَثُورُ

ولم يجد ابن الخطيب في محنته غير الصبر، الذي يهون عليه الخطب ال شديد ، ويخفف عليه ألم البعد والفراق فيقول في ذلك:[4]

تَكَلَّفْتُ فِيكَ الصَّبْرَ، وَالصَّبْرُ مُعْوِزٌ وَهَوَّنْتُ فِيكَ الْخَطْبَ وَهْوَ عَسِيرُ

ومازال ابن الخطيب صابرًا محتسبًا أمره إلى الله عز وجل؛ بعد أن أكتوى فؤاده من شدة الفراق والبين، ومن ذلك قوله:[5]

وَلَقَدْ كُنْتُ صَبُورًا، إِنَّمَا صَدَعَ الْبَيْنُ فُؤَادِي وَكَوَاهُ

---

[1]- ديوان ابن الخطيب،287/1.
[2]- ديوان ابن الخطيب،394/1.
[3] - اسم لجبلين، يرظر الجبال والامكنة والمياه، أبو القاسم محمود الزمخشري، ص72، ص160.
[4]- ديوان ابن الخطيب،395/1.
[5]- ديوان ابن الخطيب،743/2.

جَلَّ مَا أَلْقَاهُ مِنْ فَرْطِ الْجَوَى حَسْبِيَ اللهُ، فَلاَ رَبَّ سِوَاهُ

أما الصبر على ما تجئ به الأقدار، كموت عزيز أو غيره فيعد من أعلى مقامات الصبر، كما جاء في قوله ﷺ: ((عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا المؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له))[1]، فالله– سبحانه وتعالى– ما أنعم على عبد نعمة فلنتزعها منه، فعاضه من ذلك إلا كان ما عاضه أفضل مما انتزع[2]، وهذا ما وجدناه في معنى الصبر ابن الخطيب وصبره، عندما فقد أباه وأخاه في واقعة طريف، فيقول:[3]

وَالصَّبْرُ أَوْلَى مَا اسْتَكَانَ لَهُ الْفَتَى رَغْمًا، وَحَقُّ الْعَبْدِ أَنْ يَتَأَدَّبَا
وَإِذَا اعْتَمَدْتَ اللهَ يَوْمًا مَفْزَعًا لَمْ تُلْفِ مِنْهُ، سِوَى إِلَيْهِ، الْمَهْرَبَا

وقوله أيضًا لعامر بن محمد[4] شيخ جبل هنتاتة يعزيه في أخيه، ويحثه على الصبر على موت أخيه، فيقول :[5]

هُوَ الْمَوْتُ فِي الْإِنْسَانِ فَصْلٌ لِحَدِّهِ فَكَيْفَ نُرَجِّي أَنْ نُصَاحِبَ مَائِتًا
وَلِلصَّبْرِ أَوْلَى أَنْ يَكُونَ رُجُوعُنَا إِذَا لَمْ نَكُنْ بِالْحُزْنِ نُرْجِعُ فَائِتَا

وفي موضع آخر يسأل ابن الخطيب نفسه ماله عُدِم التجلد والصبر ؟ مع علمه أ ن الصبر هو ملاذ الإنسان أوقات الضيق والأزمات، لكن ما أصابه بعد أن فقد شيخه ابن الجياب أفقده شيئًا من صبره، فقال:[6]

مَا لِي عَدِمْتُ تَجَلُّدِي وَتَصَبُّرِي وَالصَّبْرُ فِي الْأَزَمَاتِ مِنْ أَخْلَاقِ
خَطْبٌ أَصَابَ بَنِي الْبَلَاغَةِ وَالْحِجَا شَبَّ الزَّفِيرُ بِهِ عَنِ الْأَطْوَاقِ
أَمَّا وَقَدْ أَوْدَى أَبُو الْحَسَنِ الرِّضَا فَالْفَضْلُ قَدْ أَوْدَى عَلَى الْإِطْلَاقِ

---

[1] صحيح مسلم،2295/4.

[2]– البيان والتبيين، الجاحظ، 142/3.

[3]– ديوان ابن الخطيب،108/1.

[4] – عامر بن مُحَمَّد بن علي الهنتاتي، يكنى: أبو تابث، ،كبير جبل درن والبلاد المراكشية، ينظر: نفح الطيب، للمقري،209/6.

[5]– ديوان ابن الخطيب،177/1.

[6]– ديوان ابن الخطيب، 709/2.

وفي موضع آخر من القصيدة نفسها نراه يحث أهل شيخه ابن الجياب على الصبر ، فيقول:[1]

صَبْرًا، بَنِي الْجَيَّابِ إِنَّ فَقِيدَكُمْ سَيُسَرُّ مَقْدَمُهُ بِمَا هُوَ لَاقِي
وَإِذَا الْأَسَى لَفَحَ الْقُلُوبَ أُوَارُهُ فَالصَّبْرُ وَالتَّسْلِيمُ أَيُّ رِوَاقِ

وقد يكون الصبر أفضل علاج على ألم الأيام والليالي، وخاصةً إذا كان مقترن بالقناعة، وعدم الاستعجال في طلب المراد قبل أوانه، فالصبر علاج ما لا علاج له، وفي هذا يقول ابن الخطيب:[2]

وَاصْبِرْ عَلَى مَضَضِ اللَّيَالِي إِنَّهَا كَحَوَامِلٍ سَتَلِدْنَ كُلَّ عَجِيبِ
وَاقْنَعْ بِحَظٍّ لَمْ تَنَلْهُ بِحِيلَةٍ مَا كُلُّ رَامٍ، سَهْمُهُ، بِمُصِيبِ
يَقَعُ الْحَرِيصُ عَلَى الرَّدَى وَلَكَمْ غَدَا تَرْكُ التَّسَبُّبِ أَنْفَعَ التَّسْبِيبِ
مَنْ رَامَ نَيْلَ الشَّيْءِ قَبْلَ أَوَانِهِ رَامَ انْتِقَالَ يَلَمْلَمٍ وَعَسِيبِ

ومنهم من جعل الصبر شيمة من شيمه التي يفتخر بها، ولم يجد ما يعوضه عن وحشة الفراق إلا الصبر، وتفويض أمره إلى الله– عز وجل– ومن ذلك قول ابن الخطيب:[3]

وَلَكِنْ أَبَتْ إِلاَّ التَّصَبُّرَ هِمَّةٌ لَهَا قَصَبَاتُ السَّبْقِ فِي مَعْرَكِ الدَّهْرِ
تَعَوَّضْتُ أُنْسَ الصَّبْرِ مِنْ وَحْشَةِ النَّوَى وَفَوَّضْتُ بِهِ التَّصَرُّفَ فِي أَمْرِي

إن الصبر هو أفضل علاج للنفس، فهو كالدواء مُرّ في البداي ات، ولكنه يورث حلاوة الشفاء في النهايات، فإن ألفتْ الصبر ضمنت لها صلاح مزاجها وعلاجها، وفي ذلك يقول ابن الخطيب:[4]

إِنَّ الْهَوَى لَشِكَايَةٌ مَعْرُوفَةٌ صَبِرُ التَّصَبُّرِ مِنْ أَجَلِّ عِلَاجِهَا
وَالنَّفْسُ إِنْ أَلِفَتْ مَرَارَةَ طَعْمِهَا يَوْمًا، ضَمِنْتُ لَهَا صَلَاحَ مِزَاجِهَا

---

[1]– ديوان ابن الخطيب، 711/2.
[2]– ديوان ابن الخطيب، 129/1.
[3]– ديوان ابن الخطيب، 375/1.
[4]– ديوان ابن الخطيب،213/1.

ومن أجلّ أنواع الصبر هو الصبر عن المحرمات، ومنها النظر الحرام بدافع الشهوة، أو كل ما يوجب شهوة: ((فالصبر على ما توجب الشهوة، فإنها إما أن توجب ألما وعقوبة وإما أن تقطع لذة أكمل منها، وإما أن تضيع وقتاً إضاعته حسرة وندامة))[1]، فالصبر صبران: ((فالصبر على المصيبة حسن وأفضل منه الصبر عن المعصية))[2]، وفي هذا يقول ابن الخطيب:[3]

أَعُوذُ بِصَبْرِي مِنْ جُفُونٍ مَرِيضَةٍ لَهَا مَرَضٌ فِي الْقَلْبِ مِنِّيَ لَابِثُ

ومنهم من كان صبره كفتيل السراج، كلما زاد شوقه زاد صبره، كما جاء في قول ابن الخطيب:[4]

صَبُورٌ وَإِنْ لَمْ تَبْقَ إِلاَّ ذُبَالَةٌ إِذَا اسْتَشْعَلَتْ مَسْرَى الصَّبَا اشْتَعَلَتْ وَقْدَا

ومن أهم نتائج الصبر، ما يتمتع به الإنسان من أمن وسلامة، ولقاء الأحبة، فتكون العاقبة حمداً وشكراً لله_ عز وجل_ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[5]، ولهذا كان الإيمان نصفين: نصفه صبر ونصفه شكر[6]، وكما جاء في قول ابن الخطيب:[7]

وَحَمِدْنَا الصَّبْرَ فِي الْأَمْرِ وَكَمْ حَكَّمَ الْعُقْبَى مُحِبٌّ قَدْ صَبَرْ

أما الصبر في الجهاد في سبيل الله، فيعد من أهم عوامل نصر المؤمنين على أعدائهم، على أن يكون صبرهم أشد من صبر أعدائهم واثبت وأشمل، كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[8]، وقوله ﷺ: ((ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيرًا، وأوسع من الصبر))[9]، كما جاء في حث ابن الخطيب لأبي الحجاج على الصبر والجهاد في سبيل الله، بعد أن صح أن طاغية الروم عزم على نقض

---

[1]- الفوائد، ابن القيم، ص 139.

[2]- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، ابن القيم، ص71.

[3]- ديوان ابن الخطيب،189/1.

[4]- ديوان ابن الخطيب،346/1.

[5]- سورة لقمان، من الآية: 31.

[6]- مدارج السالكين، ابن القيم،157/1.

[7]- ديوان ابن الخطيب،394/1.

[8]- سورة آل عمران، الآية: 200.

[9]- صحيح البخاري،122/2.

العهد والخروج إلى بلاد المسلمين، فيقول:[1]

صُبُرًا عَلَى جَوْبِ الْفَيَافِي وَالسُّرَى لَا تَسْأَمُ الْإِسْرَاجَ وَ الْإِ لِجَامَا

ومن خلال دراستنا لمظاهر الصبر في شعر لسان الدين ابن الخطيب، يتبين أن الصبر طريقه شاقة ومهلكة، فالصبر في النائبات، وعلى ما تجيء به الأقدار من أعظم أنواعه ، ونلاحظ أنه هو الذي يهون عليه الخطوب، ويخفف عليه ألم البعد والفراق، وهو همة وشيمة من شمات الإنسان التي يجب التحلي بها، فهو كالدواء المر يورث حلاوة الشفاء في النهاية، والصبر على المحرمات من أجل أنواع ه، ومنهم من كان صبره حمدًا، والصبر أيضًا في الحث على الجهاد في سبيل الله، فهذه أهم مظاهرهالتي تناولها لسان الدين ابن الخطيب في شعره.

العدل:

تعد شيمة العدل من الشيم العظيمة والخلال الكريمة المحببة للنفس؛ وهو قيمة عظيمة جاء الإسلام بها وحث عليها، فهو أساس الإصلاح في المجتمعات.

والعدل لغة: ضد الجور ؛ أي الظلم، وما قام في النفوس أنه مستقيم، من عَدَلَ، يَعْدِلُ: فهو عَادِلٌ من عُدُولٍ، وعْدلٍ[2]، يقال عَدَلَ عليه في القضية فهو عَادِلٌ، وبسط الوالي عَدْلَهُ[1].

[1]- ديوان ابن الخطيب،535/2.

[2]- يرظر: القاموس المحيط، الفيروز آبادي، 1030.

والعدل اصطلاحًا: أن تعطي من نفسك الواجب و تأخ ذه[2]، وقيل العدل مصدر ؛ بمعنى: ((العدالة، وهو الاعتدال والاستقامة، وهو الميل إلى الحق))[3]. والعدل: ((استعمال الأمور في موضعها، وأوقاتها، ووجوهها، ومقاديرها من غير سرف ولا تقصير، ولا تقديم ولا تأخير))[4]، ومن معناه أيضًا: الْقِسْطُ، والحق، والميزان.

القسط ورد ذكره في القرآن الكريم بمعنى: العدل، وهو من أَقْسَطَ بمعنى : عَدَلَ، أما قَسَطَ فهو بمعنى : جار ؛ أي: ظلم، ((أقسط يُقْسِطُ فهو مقسط إذا عدل، وَقَسَطَ يَقْسِطُ فهو قاسط إذا جار))[5]، كما قال تعالى: ﴿ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[6]،فهنا بمعنى العدل، أما بمعنى الجور ففي قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[7].

أما الحق فقد ورد ذكره في القرآن الكريم في آيات كثيرة بمعنى العدل، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَا أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾[8]، فالحق معناه العدل؛ لأن معناه في اللغة: المطابقة، والموافقة للواقع[9].

أما الوزن فورد ذكره في القرآن الكريم كثيرًا بمعنى معرفة قدر الشيء في الغالب، أو يشار به إلى مراعاة العدل في جميع ما يتحراه الإنسان من الأفعال والأقوال [10]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ﴾[11]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾[12].

إن إقامة العدل إحدى دعائم دولة الإسلام وأركان رسالتها التي اتجهت إلى العالمين، حيث

---

[1]- ينظر: مختار الصحاح، للرازي، ص202.

[2]- ينظر: الأخلاق والسيرة في مداواة النفوس، ابن حزم، ص33.

[3]- التعريفات، الجرجاني، ص147.

[4]- أخلاق النبي -ﷺ- في القرآن والسنة، أحمد الحداد، 1247/3.

[5]- النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، 60/4.

[6]- سورة الحجرات، من الاية:9.

[7]- سورة الجن، الآية: 15.

[8]- سورة النساء، الآية: 105.

[9]- ينظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص246.

[10]- ينظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب الاصفهاني ، 868.

[11]- سورة الرحمن، الآية: 9.

[12]- سورة الحديد، من الآية: 25.

أوصى الله– عز وجل – رسوله الأمين بها، قال تعالى: ﴿ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾[1]، ويقول جل شأنه للمؤمنين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[2]، فالعدل أساس الحكم والولايات بصفة عامة، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ﴾[3]، ((فالعدل نظام كل شيء، فإذا أقيم أمر هـ،الدنيا قامت))[4]، فالعدل أساس قيام الدول والملك وبه دوامها، وفي هذا يمدح ابن الخطيب أبا حمو وعدله فيقول:[5]

وَجَدَّدْتَ فِيهَا دَوْلَةً (مُوسَوِيَّةً) سَجِيَّتُهَا عَدْلٌ وَشِيمَتُهَا حِلْمُ

فبالعدل يشاع الحب بين الناس، وبين الحاكم والرعية، فترى ابن الخطيب يوجه النصح والإرشاد إلى سلطانه الغني بالله من خلال تجاربه السياسية، وذلك بأن يفيض بالعدل بين الرعية، وأن يكون مطلعًا على أحوال رعيته، وأن يتلطف بالعباد، كما يحذره من الاستبداد، والانفراد بالرأي، يقول :[6]

أَفِضْ فِي الرَّعَايَا الْعَدْل تَحْظَ بِحُبِّهَا وَحَكِّمْ عَلَيْهَا الْحَقَّ فِي الْحَلِّ وَالْعَقْدِ

فعندما يعدل السلطان، ويبسط عدل هـ في بلاده تـنعم الرعية بـوغدٍ من العيش، فقد قيل: ((الأوطان حيث يعدل السلطان، إذا نطق لسان العدل في دار الإمارة فلها البشرى بالعز والإمارة))[7]، وكما قال ابن الخطيب في عدل أبي الحجاج:[8]

وَأَنْتَ الَّذِي أَحْيَيْتَ شِرْعَةَ دِينِهِ وَقَدْ رُفِضَتْ أَحْكَامُهَا أَيَّمَا رَفْضِ
وَأَنْتَ مَدَدْتَ الْعَدْلَ فَوْقَ بِلَادِهِ فَأَصْبَحْنَ بَعْدَ الْجَهْدِ فِي عِيشَةٍ خَفْضِ

---

[1]– سورة الشورى، من الآية: 15.
[2]– سورة المائدة، الآية: 8.
[3]– سورة النساء، من الآية: 58.
[4]– الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ابن تيمية، ص29.
[5]– ديوان ابن الخطيب،544/2.
[6]– ديوان ابن الخطيب، 308/1.
[7]– زهر الآداب وثمر الألباب، الحصري القيرواني، 730/3.
[8]– ديوان ابن الخطيب، 637/2.

ولما كانت العدالة مفهومًا مطلقًا لكل البشر، والأخلاق سمو النفس فلا يمكن للظلم الاجتماعي أن يكون مقبولاّ في نظر أهل الأندلس، وقد عبروا عن معنى الاستقرار الاجتماعي بمحاورة الظبية للذئب، وهو كناية عن سمو العدل والعدالة الاجتماعية في ذلك العصر:[1]

في مقعد وسع الأنام عدالة وسما فزاحم منكب الخضر اء

عدل يظل بظله الفضى جارا هداك لظبية الوعساء

وهذا ما عبر عنه ابن الخطيب في تحقيق مبدأ العدالة الاجتماعية في عصره، بأن الشاة لا تخشى اعتداء الذئب، وبهذا وصل إلى سمو العدالة الاجتماعية، فيقول:[2]

هِيَ دَوْلَةُ الْعَدْلِ الَّذِي شَمَلَ الْوَرَى فَالشَّاةُ لَا تَخْشَى اعْتِدَاءَ الذِّيبِ

ومن القواعد الأساسية للعدل تحقيق الأمن والأمان للبلاد والرعية، ورفع الظلم والجور عنهم، وبها مدح ابن الخطيب عد الة أبى الحجاج، وخاصة بعد واقعة : إذعان الروم وإرسالهم لطلب السلم رغبةً في الهدنة[3]،فيقول:[4]

لَرَفَعْتَ ظِلَّ الْأَمْنِ خَفَّاقًا فَقَدْ كَادَتْ تَسِيرُ مَعَ الذِّئَابِ الشَّا ءُ

وَكَفَفْتَ كَفَّ الْجَوْرِ فِي أَرْجَائِهَا وَعَمرْتَ رَبْعَ الْعَدْلِ، وَهْوَ خَلَاءُ

ومن مظاهر العدل التي عبر عنها ابن الخطيب في ظل دولة أبي حمو، هو إهمال الراعي للنقاد، فلا يخاف عليها من الأسد، فهذا دليل على توفر العدل بين الرعية، بل زاد على ذلك في مدحه (محمد بن قيس الثغري)[5]؛ أنه من قوم أبي حمو؛ إذا قضوا عدلوا، وإذا جار عليهم الدهر حملوا؛ فيقول:[6]

---

[1]- القيم الخلقية في الشعر الأندلسي في عصر ملوك الطوائف والمرابطين، سلمى سلمان على، ص72.

[2]- ديوان ابن الخطيب، 130/1.

[3]- ينظر: ديوان ابن الخطيب،18/1.

[4]- ديوان ابن الخطيب، 96/1.

[5] - أبو عبد الله محمد بن قيس الثغري، كاتب عن سلطان تلمسان، أبو حمو، ينظر: نفح الطيب،427/6.

[6]- ديوان ابن الخطيب،518/2.

هُوَ الْحِمَى (لِأَبِي حَمُّو) اسْتَجِرْهُ فَفِيهِ الْأَمْنُ مُنْسَدِلٌ، وَالْفَضْلُ مُكْتَمِلُ

وَاللهِ لَوْ أَهَلَ الرَّاعِي النَّقَادَ [1] بِهِ مَا خَافَ مِنْ أُسْدِ خَفَّانٍ بِهِ هَمَلُ

تَكُونُ مِنْ قَوْمِ مُوسَى إِنْ قَضُوا عَدَلُوا وَإِنْ تَقَاعَدَ دَهْرٌ جَائِرٌ حَمُلُوا

بل زاد على ذلك أنه جمع فضيلة العدل وحب النبي ﷺ، وتقوى الله في الحكم بين الناس، وهذا ما جاء في مدح ابن الخطيب لـ سلطانه أبى الحجاج قائلاً :[2]

إِمَامٌ أَفَاضَ اللهُ فِي الْأَرْضِ عَدْلَهُ فَأَوْشَكَ فِيهَا الضِّدُّ أَنْ يَأْلَفَ الضِّدَّا

أَقَامَ عَلَى حُبِّ النَّبِيِّ وَآلِهِ وَأُشْرِبَ تَقْوَى رَبِّهِ الْحَلَّ وَالْعَقْدَا

فعدل السلطان هو الذي يؤلف بين قلوب الرعية، كما جاء في م وضعٍ آخر مادحًا أبا الحجاج، فيقول: [3]

أَعَدْتَ الْخِلَافَةَ، أَنْوَارُهَا سَوَاطِعُ مِنْ بُعْدِ طُولِ الْخُمُودْ

وَأَلَّفْتَ بِالْعَدْلِ بَيْنَ الْقُلُوبِ وَفَرَّقْتَ بَيْنَ الظُّبَا وَالْغُمُودْ

ومنهم من جعل للعدل قسطاسًا، يزن به الأمور والحكم بين الناس قال تعالى: ﴿ وَزِنُواْ بِٱلْقُسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِۚ ﴾[4]، فإذا كان الحكم بين الناس بالقسطاس المستقيم، كان العدل والأمن في ظل هذا الحاكم العادل، ومن ذلك مدح ابن الخطيب للوزير (أبي بكر بن غازي)، يقول: [5]

وَخَلَفْتَ مَوْلَى الْخَلْقِ خَيْرَ خِلَافَةٍ تُرْضِيهِ فِي الْأَعْدَاءِ وَالْأَحْبَابِ

وَرَعَيْتَهُ بَعْدَ الْمَمَاتِ كَأَنَّهُ رَهْنُ الْحَيَاةِ يَرَاكَ خَلْفَ حِجَابِ

هَذَا الْوَفَاءُ يَقِلُّ مَا حُدِّثْتُهُ مِنْ مُقْتَضٍ لِلنَّفْيِ وَالْإِيجَابِ

فَالْعَدْلُ يَحْكِمُ فِي الْوَرَى قِسْطَاسَهُ وَالْأَمْنُ ظِلٌّ وَافِرُ الْإِطْنَابِ

وقوله أيضا في مدح عدل الوزير(أبي القاسم بن رضوان)[1]، ونصرته للحق فيقول:[2]

---

[1] – النقاد: وهي جنس من الغنم صغير الأرجل، ينظر المنتخب من كلام العرب، للأزدي، ص710.

[2]– ديوان ابن الخطيب،357/1.

[3]– ديوان ابن الخطيب،263/1.

[4]– سورة الإسراء، من الآية: 35.

[5]– ديوان ابن الخطيب، 164/1.

(أَبَا الْقَاسِمِ) لَازِلْتَ لِلْفَضْلِ قَاسِمًا بِمِيزَانِ عَدْلٍ يَنْصُرُ الْحَقَّ مَنْ نَصَرْ

ومن صور العدل القضاء بما يرضي الله في السر والعلن، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾[3]، وقوله ﷺ ((سبعة يظلهم الله تعالى يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل....))[4]، وكما جاء في قول ابن الخطيب:[5]

فَمَا زِلْتَ تَهْدِي، فِي الْبَرِّيةِ هَدْيَهُ وَتَقْضِي بِمَا يُرْضِيهِ سِرًّا وَإِعْلَانَا

ومازال ابن الخطيب يوجه النصح والإرشاد لأبي الحجاج، ويحثه على العدل بين الرعية، وجزاء المسيء على إساءته والمحسن على إحسانه، وعدم إتباع الأهواء في الحكم بين الناس، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[6]ومنه قول ابن الخطيب في ذلك:[7]

وَأَجِزِ الْمُسِيءَ إِذَا أَسَاءَ بِفِعْلِهِ وَالْمُحْسِنَ الْحُسْنَى جَزَاءً يَعْدِلُ

وَإِذَا عَدَلْتَ فَلَا الْهَوَادَةُ وَالْهَوَى مِنْ بَعْدِهَا أَبَدًا لَدَيْكَ تُؤَمَّلُ

وقد يكون العدل كالثوب يستر به الخلق، وهذا ما يراه ابن الخطيب في نصحه وإرشاده للسلطان إسماعيل، بأن يجعل العدل ستر على الرعية، فيقول:[8]

وَابْسُطْ عَلَى الْخَلْقِ مِنَ الْعَدْلِ مَا يَسْتَتِرُ الْخَلْقُ بِجِلْبَابِهِ

فعدل السلطان لا يكن حكراً على شعبه فقط؛ بل يشمل الشعوب المجاورة من حوله، كما جاء في عدل أبي الحجاج، فجاره عزيز لا يخشى من ظلم ولا خيانة، وفيه يقول ابن الخطيب:[1]

---

[1] – أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان البخاري، شغل العديد من المناصب في دولة بني مرين، ينظر: الكتيبة الكامنة، ص254

[2]– ديوان ابن الخطيب، 426/1.

[3]– سورة النساء، من الآية: 58.

[4]– صحيح البخاري، 111/2

[5]– ديوان ابن الخطيب، 580/2

[6]– سورة النساء، الآية: 135.

[7]– ديوان ابن الخطيب، 504/2.

[8]– ديوان ابن الخطيب، 135/1.

مَلِكٌ عَزِيزُ الْجَارِ مَمْنُوعُ الْحِمَى مَمْنُوحُ مُنْهَلِّ النَّدَى مَبْذُولُهُ

فللعدل طريق واضحة يهتدي بها الحاكم، وهو الوارد في كتاب الله وسنة رسوله – ﷺ– ومن ذلك قول ابن الخطيب في مدح أبي الحجاج:[2]

وَنَهَجْتَ طُرْقَ الْعَدْلِ مُهْتَدِيًا بِمَا شَهِدَتْ عَلَيْهِ صَحَائِحُ الْأَخْبَارِ

ومنهم من أصبح العدل نهجًا في حياته وحياة شعبه الذي يقوم بأمره، فبعدله كف الجور، والظلم عنهم، وعمر الأرض وأقام الدين، وبهذا يمدح ابن الخطيب أبا الحجاج والنهج الذي سار عليه في حياته، ودفع الجور والظلم عن الإسلام والمسلمين، فيقول:[3]

أَمِيرَ الْعُلَى لَوْلَاكَ أَصْبَحَ رَبْعُهَا خَلَاءً، وَدِينُ اللهِ وَاهٍ عَمُودُهُ

وَلَكِنْ نَهَجْتَ الْعَدْلَ مِنْ بَعْدِ فَتْرَةٍ وَقَدْ دَرَسَتْ آثَارُهُ وَعُهُودُهُ

وَبَدَّدْتَ شَمْلَ الْكُفْرِ بَعْدَ ائْتِلَافِهِ فَأَضْحَى عَمِيدًا فِي الرُّغَامِ عَمِيدُهُ

ويرى ابن الخطيب أن أبا الحجاج وما حققه من عدل وإصلاح ليس غريبًا عنه، فقد ورث هذه الشيم من أسلافه من بني نصر، فأبو الحجاج فرع من ذلك الأصل الشريف، فيقول:[4]

تَنْمِيهِ مِنْ أَبْنَاءِ نَصْرٍ سَادَةٌ سَنُّوا الْهُدَى وَالْعَدْلَ وَ الإِصْلَاحَا

ومازال ابن الخطيب يمدح الحجاج وأسلافه، وما ورثه من شيم وخصال حميدة وعلى رأسها العدل، وما تنعم به الرعية من الأمن والأمان، فيقول:[5]

تَكَنَّفَهَا عَدْلُ الْخَلِيفَةِ (يُوسُف) فَتَرْعَى الظِّبَاءُ الْعُفْرُ فِيهَا مَعَ الْأُسْدِ

إِمَامُ هُدىً مِنْ (آلِ سَعْدٍ) نِجَارُهُ وَنَصْرُ الْهُدَى مِيرَاثُهُ (لِبَنِي سَعْد)

ومنه قوله أيضاً:[6]

---

[1]– ديوان ابن الخطيب، 479/2.

[2]– ديوان ابن الخطيب، 369/1.

[3]– ديوان ابن الخطيب، 269/1.

[4]– ديوان ابن الخطيب، 223/1.

[5]– ديوان ابن الخطيب، 299/1.

[6]– ديوان ابن الخطيب، 552/2.

أَئِمَّةُ عَدْلٍ أَوْضَحُوا سُبُلَ الْهُدَى وَسُحْبُ نَوَالٍ لَا تَشِحُّ غُيُومُهُ

فللعدل في الظلم كالنور الذي يهتدى به وسط الظلام، هذا ما يراه ابن الخطيب في عدل أبي الحجاج وأسلافه من خلال قوله:[1]

خَلائِفٌ لَمْ تَزَلْ بِالْهَدْيِ صادِعَةً بِالْعَدْلِ فِي الظُّلْمِ أوْ بِالنُّور فِي الظُّلَمِ

السَّابِقُونَ إلى الْغَاياتِ إنْ رَكَضُوا والنَّاطِقُونَ بِفَصْلِ الْحُكْمِ في الْكَلِمِ

ومن صفات الإمام العادل أن يكون كريم الخَلْقِ وَالْخُلُقِ، ودافع للظلم والجور، والحكم بين الناس بالعدل، فهو صاحب شمائل رفيعة وبخاصة إذا كان الحاكم هو الناشر للعدل، المدافع عن حقوق العباد، وهذا ما جاء في قول ابن الخطيب في مدح أبي الحجاج:[2]

إِمَامُ عَدْلٍ يُحِبُّ اللهَ سِيرَتَهُ عَفُّ الْغُيُونِ كَرِيمُ الْخَلْقِ وَالْخُلُقِ

أَقَامَ لِلدِّينِ قِسْطًا فَأَمَّنَهُ مَا سَامَهُ الْجَوْرُ مِنْ بَخْسٍ وَمِنْ رَهَقِ

وقد زاد ابن الخطيب في مدح أبي الحجاج بأن جعل منه معلمًا يتعلم البشر من أخلاقه العدل، فيقول:[3]

تَعَلَّمَ مِنْ أَخْلَاقِكَ الْعَدْلَ فِي الْوَرَى فَلِلْعُدْمِ إِعْدَامٌ وَلِلْجُودِ إِيجَادُ

وعندما تنعم الرعية بحاكم عادل يطيب لها العيش وتصف و حياتها، وهذا ما يراه ابن الخطيب في عدل أبي حمو، فهو حاكم عادل شجاع في غير قسوة، لينا في غير ضعف، ولو أن عدله سار طول السنين لن تشتكي البخس، بل وزاد على ذلك أنه لن تكون هناك سنين كبيسة، وذلك لما تنعم به الرعية من خير ورخاء وحاكم عادل، فيقول:[4]

لَوْ سَارَ عَدْلُكَ فِي السِّنِينَ لَمَا اشْتَكَتْ بَخْسًا، وَلَمْ يَكُ بَعْضُهُنَّ كَبِيسَا

---

[1]- ديوان ابن الخطيب، 533/2.

[2]- ديوان ابن الخطيب، 691/2.

[3]- ديوان ابن الخطيب، 272/1.

[4]- ديوان ابن الخطيب، 725/2.

ويرى ابن الخطيب أن أعدل الناس في عصره هو سلطانه الخليفة يوسف أبو الحجاج، حتى أنه سيرفع أمره إليه؛ ليحكم له فيه بالحق المبين، فيقول:[1]

سَأَرْفَعُ أَمْرِي لِلْخَلِيفَةِ (يُوسُفٍ) فَيَحْكُمُ بِالْحَقِّ الْمُبِينِ وَ يَصْدَعُ

شِهَابُ هُدىً يَجْلُو الدُّجنَّة نُورُهُ وَلُجَّةُ جُودٍ مَوْجُهَا يَتَدَفَّعُ

وبهذا تتعدد مظاهر العدل في شعر لسان الدين ابن الخطيب، فمظاهر العدل بين الرعية تحقق الاستقرار الاجتماعي بين الناس، و يؤلف بين القلوب ، فالعدل هو ميزان الأمور والحكم بين الناس، ومن مظاهر العدل أيضاً العدل الكائن في السر والعلن، وبالعدل لا مكان للهوادة والأهواء، فعدل الحاكم لا يكون حكرًا على شعبه فقط؛ بل في جميع معاملاته الداخلية والخارجية، فالعدل هو الطريق الذي يُهتدى به في جميع مناحي الحياة.

الجهاد:

الجهاد في سبيل الله من أعظم القيم الدينية، وذلك لما يترتب عليه من نصرة المؤمنين، وإعلاء كلمة الدين، وقمع الكافرين، وإحكام العدالة بين الخلق أجمعين.

فالجهاد لغة: المشقة، يقال: ((جَهَدْتُ نفسي، وأَجْهَدتُ، والْجُهْدُ الطاقة))[2]، والجِهاد بالكسر: ((القتال مع العدو، كالْمُجَاهَدَةُ؛ يقال: جَاهَدَ العدو مُجَاهَدَةً وجِهَادًا قاتله))[3].

[1]- ديوان ابن الخطيب، 665/2.

[2] - مجمل اللغة، ابن فارس، 200/2.

[3] - تاج العروس، الزبيدي، 537/7.

والجهاد اصطلاحًا: ((محاربة الأعداء، وهو المبالغة واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل))[1]، أو ((قتال من ليس له ذمة من الكفار))[2]، ((والدعاء إلى الدين الحق))[3].

ولقد كان الشعر صادقًا وأمينًا في إبرازه هذه القيمة الخلقية، وبيان فضيلتها، فواكب المجاهدين، ورافق جحافلهم، وغزواتهم وفتوحاتهم الإسلامية، وهي تسلك دروب النور والإيمان، وكان الشعراء المسلمون حريصين على استلهام مضامين الجهاد، وبواعثه، من خلال فهمهم لمبادئ الإسلام وتعاليمه، مقتدين بعظيم المجاهدين سيدنا محمد الكريم – ﷺ–، وصحبه الأكرمين – رضي الله عنهم–، فجسدوا قيمة الجهاد، وحرصوا على ترسيخ صورة المجد والكرامة التي يحظى بها المجاهدون في الدنيا، والآخرة، وهو ما كان يحبب هم في التغني بالجهاد، والالتزام به نهجًا لمواصلة الكفاح، فانعكس ذلك على تأكيد صلابة الم جاهدين ، واستبسالهم في الدفاع عن عقيدتهم، والتضحية والاستشهاد لنشر مبادئ الرسالة الإسلامية[4].

فكان للشعر الأندلسي دوره البارز في مواكبة حركة الجهاد بالأندلس عبر مسيرته الطويلة في الذود عن ديار الإسلام، واشعال حماس المسلمين للجهاد، والترغيب في هـ من أجل إعلاء كلمة الله، ورفع راية الإسلام خفاقة عالية في ربوع الأندلس [5]، وذلك لا يكون إلا بإعداد العدة والقوة التي دعا إليها الإسلام جميع المسلمين؛ ليكونوا قادرين على الدفاع عن العرض والشرف والمال، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾[6]، فإعداد الركاب من أهم العتاد الحربي؛ ولا سيما الخيل الذي يصلح للكرّ والفرّ، والصول والجول، وهذا ما جاء في مدح ابن الخطيب للحجاج في إعداد العدة من الخيل وغيرها للجهاد في سبيل الله، فقال:[7]

وَأَعْدَدْتَ مِنْ غُرِّ الْجِيَادِ صَوَافِنًا تَغَارُ بِأَدْنَاهَا الْبُرُوقُ اللَّوَامِعُ

---

[1] – لسان العرب، ابن منظور، 135/3.

[2] – المعجم الوسيط،الفيروزآبادي،1 /142.

[3] – التعريفات، الجرجاني، ص80.

[4] – ينظر: شعر العقيدة في عصر صدر الإسلام، ص154.

[5] – ينظر: الأدب العربي في الأندلس، د. علي مُحَمَّد سلامة، ص135.

[6] – سورة الأنفال، من الآية: 60.

[7] – ديوان ابن الخطيب، 649/2.

مُطَهَّمَةً جُرْدًا لَهَا مِنْ دَمِ الْعِدَى شِياتٌ وَمِنْ نَسْجِ الْقَتَامِ الْبَرَاقِعُ

ويرى ابن الخطيب في حثه على الجهاد، والدفاع عن الأندلس وحماية حدودها وعزة أهلها، لا يكون إلا بالمبادرة على العدو والقضاء عليه، وهذا ما جاء في حث ابن الخطيب أب ا الحجاج للجهاد في سبيل الله ، والمبادرة للقضاء على العدو ، وخاصة عند اضطراب وتزعز ع صفوفه فيقول: [1]

وَبَادِرْ عَدُوَّ اللهِ عِنْدَ اضْطِرَابِهِ وَعَاجِلْهُ بِالْبِيضِ الرِّقَاقِ الْقَوَاضِبِ

ومازال ابن الخطيب يحث أب ا الحجاج على الجهاد والمبادرة على العدو ليقطع دابر الكفر، وليكون سدًّا بينه وبين أحزاب الضلال، وقد استعان في إحدى صوره بمثل عربي قديم كانت العرب تقوله: ((قد حيل بين العير والنزوان))[2]، فيقول:[3]

فَاضْرِبْ بِجَيْشِكَ مَا وَرَاءَ ثُغُورِهِمْ فَمِنَ الْمَلَائِكِ دُونَهُ جَيْشَانِ

لَمْ تَلْقَ مُجْتَمَعًا لِكُفْرٍ بَعْدَهَا ((قَدْ حِيلَ بَيْنَ الْعَيْرِ وَالنَّزَوَانِ))

ومن أهم مظاهر الحث على الجهاد تحفيز النفوس المؤمنة، وبث روح الحماسة فيها، والدعوة لتبديد شمل الكافرين، فيقول ابن الخطيب في مدح أبي الحجاج وجهاده ضد الروم:[4]

وَبَدَّدْتَ شَمْلَ الْكُفْرِ بَعْدِ ائْتِلَافِهِ فَأَضْحَى عَمِيدًا فِي الرُّغَامِ عَمِيدُهُ

وَجَاهَدْتَهُ فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ فَأَذْعَنَ عَاصِيهِ، وَذَلَّ عَنِيدُهُ

أما نصرة الدين وإعلاء كلمته فضيلة تتردد كثيراً في مدح ابن الخطيب، فالظروف التي عاشتها بلاد الأندلس وقتئذ فرضت على ابن الخطيب زرع تلك الفضيلة في نفس أب ي الحجاج ليقوّي من روح الجهاد لديه، ويسعى إلى تأمين حدود البلاد بما يكفل لها الأمن والاستقرار، ولتكون كلمة الله هي العليا[5]، فيقول في ذلك:[6]

---

[1] – ديوان ابن الخطيب،114/1.

[2] – وهو مثل يضرب في منع الرجل مراده، انظر مجمع الأمثال للميداني: 96/2.

[3] – ديوان ابن الخطيب، 578/2.

[4] – ديوان ابن الخطيب،270/1.

[5] – المدحة في شعر لسان الدين بن الخطيب، سعيد بن مسفر بن سعيد العاصي المالكي، (رسالة ماجستير)، ص83.

[6] – ديوان ابن الخطيب، 103/1

أَظْهَرْتَ دِينَ اللهِ فِي ثَغْرِ الْعِدَى وَقَهَرْتَ تِمْثَالًا بِهِ وَصَلِيبَا

فأبو الحجاج لا يدّخر جهدًا في محاربة أحزاب الضلال؛ لتحقيق النصر المبين، فلم يقدروا على مواجهته؛ بل جنحوا إلى السلم معه والاستسلام إليه [1]، ومنه قول ابن الخطيب في ذلك:[2]

وَجَاهَدْتَ أَحْزَابَ الضَّلَالَةِ جَاهِدًا فَلَمْ يُغْنِهِمْ مِنْ حَدِّ سَيْفِكَ مَا كَادُوا
وَلَاذُوا إِلَى السِّلْمِ اسْتِلَامًا وَرَهْبَةً وَقَدْ شَارَفُوا وِرْدَ الْمَنِيَّةِ أَوْكَادُوا

ومنهم من سخر نفسه لحماية الدين، وإعلاء كلمة الله، ورفع راية الحق، وهذا عمل يرضى الله عنه، وقد سخر أبو الحجاج نفسه لحماية الدين ، وإعلاء كلمة الحق، وفيه يقول ابن الخطيب في مدحه:[3]

أَزْمَعْتَ فِي اللهِ الْجِهَادَ وَطَالَمَا أَرْضَى الْإِلٰه جِهَادُكَ الْمَقْبُولُ
وَأَنِفْتَ لِلدِّينِ الْحَنِيفِ وَأَهْلِهِ مِنْ أَنْ يَطِيحَ نَجِيعُهُ الْمَطْلُولُ

ومازال ابن الخطيب يمدح أبا الحجاج وأسلافه، الذين جاهدوا منذ بداية الدعوة الإسلامية، ونصروا الدين، وضحوا بأنفسهم وأموالهم لإعلاء كلمة الله، فيقول:[4]

مِنَ الْقَوْمِ شَادُوا الدِّين بَدْءًا وَدَافَعُوا بِأَسْيَافِهِمْ عَنْ رُكْنِهِ الوَهْنَ والْوَهْيَا
مِنَ الْقَوْمِ جَادُوا بِالنُّفُوسِ كَأَنَّمَا يُسَقَّوْنَ فِي وِرْدِ الرَّدَى الشَّهْدَ وَالْأَرْيَا

كان المجاهدون لا يتلفتون إلى غرض من الدنيا وما فيها؛ لأن غايتهم رضا الله، فكانت أنفسهم تهفو إلى الجهاد في سبيل الله [5]، وهذا ما جاء في مدح ابن الخطيب لجهاده ضد المسيحيين، فقال:[6]

---

[1] – المدحة في شعر لسان الدين بن الخطيب، سعيد بن مسفر بن سعيد العاصي المالكي، (رسالة ماجستير)، ص84.
[2] – ديوان ابن الخطيب، 272/1.
[3] – ديوان ابن الخطيب، 487/2.
[4] – ديوان ابن الخطيب، 776/2.
[5] – ينظر: شعر العقيدة في عصر صدر الإسلام، أيهم عباس، ص156 .
[6] – ديوان ابن الخطيب، 485/2.

هَوَافٍ إِلَى حَرْبِ الْعَدُوِّ وَإِنَّمَا وَثِقْنَ بِنَصْرِ اللهِ يَومَ قِتَالِهِ
لِمُلْكِكَ عُقْبَى النَّصْرِ فَارْقُبْ طُلُوعَهَا فَقَدْ آنَ لِلْإِسْلَامِ آنُ اقْتِبَالِهِ

ويستدعي ابن الخطيب غزوتيْ بدر وأحد مستلهمًا منهما انتصارات الحق على الباطل، وأن ما تعرض له المسلمون في أحد من هزيمة، إنما هو يشبه حرب ممدوحه وجنوده مع الروم، فالحرب سجال، فلا يغرّ الروم انتصارهم، فهو مجرد إملاء لهم، ومازال ابن الخطيب يحث ممدوحه على الجهاد وطلب الثأر، وإن النصر قريب:[1]

إِنَّ الْحُرُوبَ سِيجَالٌ طَالَمَا وهبت فِي الْيَوْمِ فُرْصَتَهَا وَاسْتَرْجَعَتْ لِغَدِ
لَا يَغْرُرِ الرُّومَ مَا نَالُوا وَمَا فَعَلُوا فَإِنَّ ذَلِكَ إِمْلَاءٌ إِلَى أَمَدِ
فَلِلْقُلُوبِ مِنَ الْغَمَّاء مُنْصَرفٌ بِمَا تَقَدَّمَ فِي (بَدْرٍ) وَفِي (أُحُدِ)
وَإِنَّ دُونَ طِلَابِ الثَّأْرِ أُسْدَ وَغَى مِنْ قَوْمِكَ الْغُرِّ أَوْ آبَائِكَ النُّجُدِ
قَدْ أَقْلَقُوا كُلَّ مَشْحُوذِ الْغِرَا ر إِلَى شَنِّ الْغِوَارِ، وَسَلُّوا كُلَّ ذِي مَيَدِ
وَالْعَزْمُ بَادٍ، وَصُنْعُ اللهِ مُرْتَقَبٌ وَالْفَتْحُ مُنْتَظَرٌ إِنْ لَمْ يَحِنْ فَقَدِ
وَعَادَةُ النَّصْرِ لَا تَسْتَبْطِ مَقْدَمَهَا إِنْ لَمْ تُوَافِكَ فِي سَبْتٍ فَفِي أَحَدِ

كما نجد إصرار ابن الخطيب على حث ممدوحه إلى الاستنفار للجهاد، لملاقاة الأعداء؛ لأنّ الأمر قد اشتد وتجاوز الحد مستدعيًا المثل العربي: ((بلغ السيل الزبى))[2]، فيقول[3]:

أَإِخْوَانَنَا لَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ وَالْعَطْفَا فَقَدْ كَادَ نُورُ الله بِالْكُفْرِ أَنْ يُطْفَا
(وَإِذْ بَلَغَ الْمَاءُ الزُّبَى) فَتَدَارَكُوا فَقَدْ بَسَطَ الدِّينُ الْحَنِيفُ لَكُمْ كَفَّا
تَحَكَّمَ فِي سُكَّانِ أَنْدَلُسِ الْعِدَى فَلَهْفًا عَلَى الْإِسْلَامِ مَا بَيْنَهُمْ لَهْفَا
وَقَدْ مَزِجَتْ أَمْوَاهُهَا بِدِمَائِهَا فَإِنْ ظَمِئَتْ لَا رِيَّ إلاَّ الرَّدَى صِرْفَا
وَجَاسَتْ جُيُوشُ الْكُفْرِ بَيْنَ حِلَالِهَا فَلَا حَافِرًا أَبْقَتْ عَلَيْهَا وَلَا ظِلْفَا

---

[1] – ديوان ابن الخطيب، 277/1.

[2] – لقد استعان بالمثل ((بلغ السيل الزبى)) ويضرب عند إشتداد الأمر حتى تجاوز الحد، انظر مجمع الأمثال للميداني،91/1.

[3] – ديوان ابن الخطيب، 677/2.

لقد كانت بيئة أهل الأندلس بيئة جهاد، وترى ذلك واضحًا في شعر لسان الدين بن الخطيب، في تحفيز المسلمين على الجهاد، وذكره لانتصارات سلاطينهم من بني نصر مع بيان جهاد أسلافهم الأنصار، وبثه فيهم روح الحماسة لإعلاء كلمة الحق والدين.

وفي نهاية هذا الفصل نجد أن المجتمع الأندلسي كان متماسكًا بالقيم الدينية في حياته؛ ويظهر هذا واضحاً في شعر لسان الدين بن الخطيب.

الفصل الثاني: قيم الفروسية

الفروسية

الشجاعة

اقتحام الأهوال

الحياة العسكرية أو الفروسية في الأندلس

لقد درس العرب منذ البداية طبيعة البلاد التي فتحوها، وجندوا منها الأجـ ـ
التي احترفت مهنة الحرب والقتال، وتدربت عليها منذ الصغر، فلم يكن بالأندلس بعد الفتوحات الإسلامية جيش نظامي قائم بذاته، وإنما كانت القبائل والعشائر هي التي تمد الدولة بالأفراد؛ ليكونوا ضمن جيشها، فالقبائل العربية التي حلت بالأندلس قد وزعت على القرى والمدن الأندلسية، وأبيح لها حق استغلالها وجباية الأموال من أهلها، فكانت تأخذ عطاءها من هذه الأموال، وترسل الفائض إلى خزانة الدولة، وفي مقابل هذا الإقطاع كان لكل قبيلة أن تسهم بعدد من أبنائها في حالة الحرب[1]. ومن أهم العناصر التي تكون منها الجيش الأندلسي هي:

العرب: وهم العنصر الحاكم بعد الفتح الإسلامي، وقد دخلوا الأندلس على شكل أفواج متتابعة عرفت باسم الطوالع، و أول طالعة عربية هي طالعة موسى بن نصير سنة 93هـ/712م. وكان معظمها من عرب الحجاز واليمن الذين استقروا في المغرب واختلطوا بأهله الأصليين، حتى عرفوا باسم (البلديين)؛ بمعنى أنهم من أهل البلد[2].

[1] – ينظر: صور من حياة الحرب والجهاد في الأندلس، أحمد العبادي، ص50.

[2] – ينظر: صور من حياة الحرب والجهاد في الأندلس، أحمد العبادي، ص50.

البربر: من المعلوم أن جيش طارق بن زياد الذي بدأ عملية الفتح الإسلامي تشكل من كلا العنصرين: العربي والبربري، وقد كثر البربر في الأندلس في المدة القريبة من الفتح؛ ولم ينقطع وفود هم على الأندلس طوال العصور الإسلامية وأصولهم، واشتهر البربر في الإدارة والحكم والجيش [1].

الصقالبة: وهم المماليك أو العناصر الأوربية الأصل، وقد جلبوا كرقيق إلى الأندلس منذ الصغر، وربوا تربية عسكرية إسلامية ليكونوا جيشًا نظاميًا، واستمرت أعدادهم في ازدياد مستمر[2]، وقد احتل الصقالبة المناصب القيادية والرئاسية والوزارية في الدولة، فكانوا قوةً عسكرية مهمة فتولى بعضهم قيادة الجيش، وأسهم البعض في الأعمال الإدارية والسياسية [3].

السودان: قدموا إلى الأندلس في عداد طوائف فرسان البربر من المغرب، الذين استخدموا بالأندلس كحرس أطلق عليهم (عرافة السود) واستخدموا كمرتزقة في الجيش، وكلفوا ببعض الأعمال الخاصة منها نقل مراسلات الدولة الرسمية، خصوصًا وقد اشتهر عنهم سرعة الركض[4].

فقد كان الجيش الأندلسي مكونًا من خليط من مختلف الأجناس، الذين جلبتهم المصالح والأرزاق للقتال في جيش المسلمين بالأندلس، كما جلبتهم العقيدة الإسلامية للدفاع عن المجتمع الأندلسي، وما أنجزه المسلمون في تلك البلاد، بفضل هذا المزيج من العناصر المختلفة،التي حققت الكثير الانتصارات، فكان هذا الانتماء له القدرة على استعاب مختلف الطوائف الاجتماعية داخل صفوف الجيش إبداعًا يعكس مبدأ المواطنة التي رسخت بكل معانيها في ذلك العصر.

أما تنظيم الجيوش فكان الجيش ينقسم إلى عدد من الفرق، كل فرقة تتألف من خمسة آلاف جندي، وعليها أمير يحمل راية، وكل فرقة تنقسم إلى خمس كتائب، وكل كتيبة تتألف من ألف جندي عليها قائد يحمل علمًا، وكل كتيبة تنقسم إلى خمسة أقسام أخرى، وكل قسم يتكون من أربعين عريف يحمل بندًا، وينقسم كل أربعين إلى خمسة أقسام، على ثمانية جنود وناظر يحمل عقدة[5]، وكان الجيش عندما يقترب من أرض العدو أو دار الحرب ينضم إليه قواد الثغور

---

[1] – ينظر: في الأدب الأندلسي، مُحَمَّد رضوان الداية، ص 22.

[2] – ينظر: صور من حياة الحرب والجهاد في الأندلس، أحمد العبادي، ص65.

[3] – ينظر: في الأدب الأندلسي، رضوان الداية، ص103.

[4] – ينظر: صور من حياة الحرب والجهاد في الأندلس، أحمد العبادي، ص62.

[5] – ينظر: صور من حياة الحرب والجهاد في الأندلس، أحمد العبادي، ص74.

بجيوشهم وعتادهم، ثم يتقدم الجميع لملاقاة العدو، وكان يتقدم الجيش جواسيسه لمعرفة أخبار العدو، وعدد شجعانه، وجنوده.

وإلى جانب الجواسيس، كان هناك الأدلّاء الذين يتقدمون الجيش لإرشاده إلى المسالك والطرقات الصحيحة بين الجبال الوعرة، ولذلك كان يختار لهذه المهمة الرجال الموثوق بهم وبأمانتهم وإخلاصهم للدولة[1].

و على الرغم من تطور أساليب القتال عند المسلمين حسب تطور المدنية وتقدمها، إلا أنهم ظلوا يطبقون طريقة الكر والفر التي اعتادوا عليها منذ القدم، مادام ميدان المعركة فسيحًا ويسمح لهم بذلك؛ إذ إن هذه الطريقة تحتاج إلى ميدان فسيح، حيث يسمح لهم بأن يروحوا وينصرفوا في الطول والعرض [2]، ومع مرور الزمن حدث تطور لهم في الاستراتيجية العسكرية، حيث تأقلموا على البيئة الأندلسية واعتادوا القتال في المناطق الجبلية، وأجادوا في ذلك[3].

أما طريقة القتال والتعبئة فهي أن يتقدم الرجال بالدروع الكاملة، والرماح الطويلة، والمزاريق المسنونة النافذة، فيصفّوا صفوفهم، ويركزوا مراكزهم، ورماحهم خلف ظهورهم في الأرض، وصدورهم شارعة إلى عدوهم، وهم جاثون في الأرض، وكل رجل منهم قد ألقم الأرض بركبته اليسرى، وترسه قائم بين يديه، وخلفهم الرماة المختارون التي تم رق سهامهم من الدروع، والخيل خلف الرماة، فإذا اقترب العدو رشقتهم الرماة بالنشاب، والرجالة بالمزاريق، وصدور الرماة تلقاهم، فأخذوا يمنة ويسرى، وتخرج الخيل من بين الرماة والرجال فتنال منهم إلى ما شاء الله [4]، ورأينا أن هناك نوعًا من التطور والتجديد في طرق الاشتباك في هذا العصر، الذي تحقق على أيدي الجنود الأندلسيين.

و كان للمبارزات الفردية الأثر الكبير على سير المعركة، فقد جرت العادة أن تحدث قبل المعركة مبارزات فردية بين أبطال الجيشين، وهذه عادة قديمة عند العرب وغيرهم، والغرض منها تقوية روح الجنود المعنوية؛ لأن منظر الدماء يثير حماسهم، فضلاً عن أن هذه المبارزات تبين أهمية هذا النوع في سير المعركة بعد ذلك، إذ إن قوة الجيش تقاس بعدد شجعانه وأبطاله، وليس

---

[1] – ينظر: صور من حياة الحرب والجهاد في الأندلس، أحمد العبادي، ص75.

[2] – ينظر: المن بالإقامة على المستضعفين، ابن صاحب الصلاة، ص 507.

[3] – ينظر: البيان المغرب، ابن عذاري، 187/2.

[4] – ينظر: سراج الملوك، أبو بكر الطرطوشي، ص 179.

بكثرة أعداده؛ لهذا حرص ملوك المسلمون وقوادهم على معرفة عدد الشجعان في جيوش أعدائهم عن طريق عيونهم وجواسيسهم، لأن النصر والهزيمة كانا يتوقفان إلى حد كبير على عدد هؤلاء الأبطال والشجعان[1].

أما السلاح فكونه مظهرًا من مظاهر الحياة العسكرية في الأندلس، لذا حافظ الأندلسيون على هذا التراث الصناعي؛ بل طوره وشجعوا على التنقيب عن المعادن ولاسيما الحديد الأندلسي الذي اشتهر بجودته في العالم، ومن بين أهم مراكز صناعة الأسلحة إشبيلية، وطليطلة، والمرية، ومرسية، وغرناطة، حيث كانت تصنع السيوف، والدروع، والخوذات، والمعافر، والسروج وغيرها من الآلات الحربية، ومع ذلك لم يتردد الأندلسيون في شراء الأسلحة الجديدة من البلاد المجاورة مثل: البرذليات المشهورة بالجودة من مدينة بوردو الفرنسية[2].

واستخدم الأندلسيون السيوف المستقيمة النصال ذات الحدين، والتي امتازت واقياتها بثنيتها إلى الأسفل[3].

وإلى جانب السيوف استخدم الأندلسيون أسلحة الرمي مثل: السهام والنبال والنشاب، والتي اشتهرت بها مدينة سبته المغربية، حيث كانت تصنعها وتشتهر بها وبجودتها [4]، واشتهرت مدينة فأس بالمغرب بصناعة السيوف والسكاكين، وكذلك استخدم الأندلسيون سلاح القوس، ومنها قوس اليد، وهي القوس العربية، وقوس الرجل وهي إفرنجية، وهذا النوع كان سائد في الأندلس[5].

وكذلك استخدم الأندلسيون اللتوت ، وهي أعمدة ذات رؤوس مستطيلة ودبابيس، وكذلك استخدموا الطبر وهي الفأس والبلطه وغيرها من أسلحة الهجوم[6].

أما عن أسلحة الحصار التي استخدمها الأندلسيين فمنها:

---

[1] – ينظر: صور من حياة الحرب والجهاد في الأندلس، أحمد العبادي، ص78.

[2] – ينظر: صور من حياة الحرب والجهاد في الأندلس، أحمد العبادي، ص42.

[3] – ينظر: السيف في العالم الإسلامي، عبد الرحمن زكي، ص 82.

[4] – ينظر: صور من حياة الحرب والجهاد في الأندلس، أحمد العبادي، ص44.

[5] – ينظر: حلية الفرسان وشعار الشجعان، ابن هذيل،ص211.

[6] – ينظر: حلية الفرسان وشعار الشجعان، ابن هذيل، ص211.

المنجنيق: وهو أشهر آلات الحصار لرمى الحجارة والسهام والنار، والعذرة والثعابين والعقارب وكل ما يضر العدو.

الدبابة: وهي برج خشبي ذو طوابق، مغلف بالجلود المنقوعة في الخل لدفع النار عنها وتتحرك بعجلات، وتستخدم في ثقب الأسوار.

الكبش: عبارة عن رأس حديدية مثل رأس الكبش، تتصل بعمود غليظ داخل الدبابة معلق بحبال تجرى ببكرة معلقة بسقف الدبابة، يدفعه الجنود وهم داخلها لثقب الأسوار.

سلالم الحصار: وهي سلالم عالية متحركة يصعد المحاربون بواسطتها إلى أعالي الأسوار ليقتحموها من الأعلى.

العرادة: وهي آلة أصغر من المنجنيق، وترمى السهام والحجارة على مسافات طويلة.

الزيارة: وهي آلة قاذفة لإعداد من السهام دفعة واحدة. [1]

تلك هي أهم العناصر المكونة للجيش الأندلسي، وكيفية طرائق القتال في ذلك العصر، وأهم الأسلحة التي استخدمت للقتال في المعارك، وسوف نعرض في هذا الفصل أهم القيم والشيم الخلال الناتجة عن الحروب والمعارك.

الفروسية:

هي الحذق بركوب الخيل وأمرها وركضها والثبات عليها [2]. أو العلم بركوب الخيل وركضها، والفارس الحاذق بما يمارس من الأشياء كلها، وبها سمي الرجل فارسًا[3].

والفروسية مظهر من مظاهر الحياة التي تنشأ نت يجة عوامل اجتماعية وأخلاقية وحربية معينة تتطور وفق أساليب حيوية شاملة، وقد ساعدت على تطورها نظرة عربية سليمة وجدت المثل السامية الحقيقية، وهدفها الذي تسعى إليه[4].

---

[1] – ينظر: الإسلام في حضارته ونطمه الإدارية والسياسية والأدبية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية والفنية، أنور الرفاعي، ص198.

[2] – ينظر: تاج العروس، مرتضى الزبيدي،329/16.

[3] – ينظر: لسان العرب، ابن منظور، 160/6.

[4] – ينظر: القيم الخليقة في الشعر الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، سلمى سلمان على،ص165.

فالفروسية إذً ا: نوع من الأخلاق التي يتميز بها الفرد لتحقيق غاية تتصل به أو بغيره، لإيصال الخير لغيره بإرادة مخلصة، وهذا فيصل حاسم بين السلوك الأخلاقي وغير الأخلاقي، فالدفاع عن الوطن والدين واجب شرعي مسئول عنه كل فرد قادر على الدفاع.

فالفارس شجاع كريم عزيز النفس، يجير المستج يِ ويغيث الملهوف، ويعمل على رفع الظلم عن المظلومين، وفي هذا يقول ابن الخطيب في أخلاق وفروسية السلطان يوسف أبي الحجاج:[1]

إِذَا هَمَّ كَانَ الدَّهْرُ عَبْدَ مَقَامِهِ وَإِنْ قَالَ كَانَ الْحَقُّ عِنْدَ مَقَالِهِ

مُجِيرُ مَنِ اسْتَعْدَاهُ قَبْلَ نِدَائِهِ وَمُغْنِي مَنِ اسْتَجْدَاهُ قَبْلَ سُؤَالِهِ

مُثِيرُ رِيَاحِ الْعَزْمِ فِي حَوْمَةِ الْوَغَى وَمُخْتَطِفُ الْأَبْطَالِ يَوْمَ نِزَالِهِ

وَمُوقِدُ نَارِ الْعَدْلِ فِي عَلَمِ الْهُدَى وَمُطْفِئُ نَارِ الْبَغْيِ بَعْدَ اشْتِعَالِهِ

والفروسية أربعة أنواع: أولها ركوب الخيل والكرّ والفرّ بها، وثانيها الرمي بالقوس، وثالثها المطاعنة بالرمح، وآخرها المداورة بالسيف فمن استكملها استكمل الفروسية [2]، فهي لا تعني القوة الجسمية فحسب؛ بل تشمل أيضًا القوة في العقل الخلق، والشرف، فهي لا تخص الناحية الحربية فحسب؛ بل جميع النواحي، فمن مظاهر الفروسية اجتماع الرأي و الشجاعة، فإذا اجتمع في الفارس الرأي والشجاعة، فهو الذي يصلح لتدبير قيادة الجيوش و سياسة أمر الحرب، كما قال المتنبي:[3]

الرَّأيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشَّجَعَانِ هُو أَوَلُ وَهِي الْمَحَلُّ الثَّانِي

فَإِذَا هُمَا اجْتَمَعَا لِنَفْسٍ مَرَ ةٍ بَلَغَتْ مِنَ الْعَلْيَاءِ كُلَّ مَكَانِ

ومثل هذا ما جاء في قول ابن الخطيب في مدح أبي الحجاج في حسن تدبيره في قيادة الجيش:[4]

---

[1] – ديوان ابن الخطيب،484/2.

[2] – الفروسية، ابن القيم الجوزية، 440.

[3] – ديوان المتنبي، 265.

[4] – ديوان ابن الخطيب،220/1.

وَحَفَّتْ بِهِ الْأَعْدَاءُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ كَمَا حَفَّ بِالْخَصْرِ الْهَضِيمِ وِشَاحُهُ

وَقُدْتَ إِلَيْهَا الْجَيْشَ وَالْعَسْكَرَ الَّذِي تُرَوَّى عَوَالِيهِ وَتُرْوَى صِحَاحُهُ

فَدَوَّخْتَ مَا ضُمَّتْ عَلَيْهِ بِلَادُهُ وَنَفَّلْتَ مَا زُرَّتْ عَلَيْهِ بِطَاحُهُ

وَصَبَّحْتَ جَمْعَ الْكُفْرِ فِي مُسْتَقَرِّهِ فَخَابَتْ مَسَاعِيهِ وَسَاءَ صَبَاحُهُ

فَبَيْنَ صَرِيعٍ، بِالْفَلَاةِ، مُجَدّلٍ طَرِيحٍ، وَعَانٍ لَا يُرجَّى سَرَاحُهُ

ومازال ابن الخطيب يمدح فروسية أبي الحجاج، بما اجتمع به من خصال الفرسان من عزم ومهابة، وما أعده من جياد وسلاح، لبلوغ مراده مستعينًا بالمثل: (هذا أوان الشد فاشتدي زنم)[1]، ما قد أنزل الرعب والروع في قلب ملك الروم فخضع لأبي الحجاج:[2]

وَقُلْتَ لِنَفْسِ الْعَزْمِ هُبِّي وَشَمِّرِي (وَهَذَا أَوَانُ الشَّدِّ فِي اللهِ فَاشْتَدِّي) مِنَ

وَلَوْ لَمْ تَقُدْ جَيْشًا كَفَتْكَ مَهَابَةٌ اللهِ تُغْنِي عَنْ نَصِيرٍ وَعَنْ جُنْدِ فَأَقْبَلْنَ

وَلَكِنْ جَنَبْتَ الْجُرْدَ قُبًّا بُطُونُهَا أَسْرَابًا كَمِثْلِ الْقَطَا تَرْدِي بَوَارِقَ تُدْعَى

وَمَا رَاعَ مَلْكَ الرُّومِ إِلَّا طُلُوعُهَا بِالْمُطَهَّمَةِ الْجُرْدِ

فيوسف هو حامي الجزيرة وفارسها بشدة بأسه وسطوة سيفه، وجوده وكرمه، و اتباع أوامر الله عز وجل، فيصفه قائلا:[3]

أَيُوسُفُ، يَاحَامِي الْجَزِيرَةِ حَيْثُ لاَ نَصِيرٌ، وَمُصْلِي بَأْسِهَا الضُّمَّرَ الْجُرْدَا

أَفَاضَ عَلَيْهَا اللهُ مُلْكَكَ دِيمَةً وَرَوَّى ثَرَاهَا مِنْكَ مُنْسكِبًا عِهْدَا

فَمُلْكُكَ فِيهَا مَا أَجَلَّ جَلَالَهُ وَسَيْفُكَ مَا أَسْطَى، وَكَفُّكَ مَا أَنْدَى

صَدَعْتَ بِأَمْرِ اللهِ فِي جَنَبَاتِهَا فَأَلْبَسَكَ التَّقْوَى، وَقَلَّدَكَ الْعَهْدَا

وقوله أيضاً: [4]

وَحَمَى الْجَزِيرَةَ حَامِلاً أَعْبَاءَ هَا بِلُهَامِ جَيْشٍ لَا يُكَثُّ عَدِيدُهُ

---

[1] – وهو مثل يضرب للرجل بالجد في أمره، انظر: مجمع الأمثال، للميداني، 391/2

[2] – ديوان ابن الخطيب،304/1.

[3] – ديوان ابن الخطيب،357/1.

[4] – ديوان ابن الخطيب،291/1.

وَغَدَا بِأَسْبَابِ الْعُلَى مُتَمَسِّكًا فِيهَا، فَحِفْظُ اللهِ لَيْسَ يُؤُودهُ

وقد سيطرت المثل الإسلامية على حياة الفروسية في الدعوة إلى التحرر من القيود والجرأة في إيقاظ قومه من الغفوة، كصحة الإيمان، وخشية الله، وبـذل كل غالٍ ونفيس في سبيل العقيدة، وصدق القول ونقاء الضمير، وهذه المُثل نر اها في قول ابن الخطيب لأبي الحسن النُّبَاهي وكاتبِه أبي يحيى، في نصرتهم لجيش المسلمين ومقامتهم لسكة المغشوشة التي ظهرت منذ سنة(736هـ) على يد اليهود:[1]

أَنْصَفَتْ جَيْشَ الْمُسْلِمِينَ فَمَا الْقَنَا صَعْبَ الْمَهَزِّ، وَمَا الْحُسَامُ بِنَابِي
وَأَعَدْتَ سَكَّتَهُمْ كَأَنَّ وُجُوهَهَا زَهْرُ الرِّيَاضِ رَبَتْ بِصَوْتِ رَبَابِ

وربما لا تظهر صفات الفروسية إلا أثناء المعارك، فمنهم من حمل نفسه مقدسة مباركة في المعركة، فاستطاع أن يهزم جيشًا لوحده لكونه رجلاً قد جرب الحرب والتطاحن في سياسة القتال، فكان في المعركة فارس الفرسان، ومن ذلك قول ابن الخطيب في فروسية أبي حمو أثناء المعركة:[2]

وَلَقَدْ تَشَاجَرَتِ الرِّمَاحُ فَكُنْتَ فِي مَيْدَانِ نَصْرِكَ فَارِسَ الْفُرْسَانِ

ومما يرتبط بالجهاد الاهتمام بالخيل وأسمائها وأنواعها وذكر صفاتها، ووصف ما تتعرض له من مشاق في المعارك ومتاعبها، مظهر من مظاهر الفروسية، ومن ذلك وصف ابن الخطيب للخيل أثناء المعارك، فيقول:[3]

صَبَّحْتَهُمْ غُرَرَ الْجِيَادِ كَأَنَّمَا سَدَّ الْثَّنِيَّةَ عَارِضٌ مُتَهَلِّلُ
مِنْ كُلِّ مُنْجَرِدٍ أَغَرَّ مُحَجَّلٍ يَرْمِي الْجِلَادَ بِهِ أَغَرَّ مُحَجَّلُ
زَجِلُ الْجَنَاحِ إِذَا أَجَدَّ لِغَايَةٍ وَإِذَا تَغَنَّى بِالصَّهِيلِ فَبُلْبُلُ
جِيدٌ كَمَا الْتَفَتَ الظَّلِيمُ وَفَوْقَهُ أُذْنٌ مُشَنَّفَةٌ وَطَرْفٌ أَكْحَلُ
فَكَأَنَّمَا هُوَ صُورَةٌ فِي هَيْكَلٍ مِنْ لُطْفِهِ، وَكَأَنَّمَا هُوَ هَيْكَلُ

---

[1] – ديوان ابن الخطيب،164/1.

[2] – ديوان ابن الخطيب، 607/2.

[3] – ديوان ابن الخطيب،500/2.

عَجَبًا لَهُ أَيَخَافُ فِي لَيْلِ الْوَغَى تِيَهًا وَذَابِلُهُ ذُبَالٌ مُشْعَلُ

ومن صفات الفارس أن يأمن جاره، ويسلم قطره، وبهذه الصفة مدح ابن الخطيب أبا الحجاج:[1]

فَيَا نَاصِرَ الْإِسْلَامِ دُمْ فِي حُلَى الْعُلَى وَجَارُكَ فِي أَمْنٍ وَقُطْرُكَ فِي سِلْمِ

ومن صفات الفرسان أن يكون وا متأهبين دائما للحرب؛ لأن الحرب أصبحت من قوام حياتهم، وأورثوها لأولادهم، فاتخذوا السيوف كأنها تمائم لحمايتهم، والسروج مهودًا ينامون عليها يقول في ذلك ابن الخطيب:[2]

جِيرَانُ بَيْتِ اللهِ، وَالْعَرَبِ الْأُلَى أَضْحَوْا عَلى قُنَنِ النُّجُومِ قُعُودَا

تَخِذُوا السُّيُوفَ تَمَائِمًا لِوَلِيدِهِمْ وَالْحَرْبَ ظِئْرًا [3]، وَالسُّرُوجَ مُهُودًا

ومن خلال دراستنا لشعر الفروسية نلاحظ أنه يتسم بال مبالغة إلى حد الغلو، فإن الموقعة الصغيرة تبدو ملحمة كبرى، والعدد القليل يجر جيشًا عرمرمًا، ونفر من القتلى يعد بالمئات والألوف، على أن غلوهم لا يأتي مستقبحًا وهو وليد العاطفة المتحمسة تجعله قريبًا إلى النفس، والفطرة الساذجة تسمحه بجمالها الجذاب الذي يخالف الحقيقة، ويصدق في الشعور الفني الذي يجري مع الطبع في نشر الخاطر المتدفق، ولا يهيئه العقل في يقظة الفكر المتكلف.

الشجاعة:

الشجاعة خلق كريم، ووصف نبيل، فهي ينبوع الأخلاق الكريمة والخصال الحميدة، وهي أعز أخلاق الإسلام، وأفخر أخلاق العرب.

فللشجاعة في اللغة: مصدر شَجَعَ الرجل: شَجَاعَةً إذا كان جرئا مقدامًا، الشِّينُ والْجِيمُ والْعَينُ، أصل واحد يدل على جُرْأَةٍ وَإِقْدام... ومن ذلك الشُّجَاعُ الْمِقْدَامُ[4]، وهي ((الشجاعة: شدة القلب عند البأس))[5]

---

[1] – ديوان ابن الخطيب،531/2.

[2] – ديوان ابن الخطيب،352/1.

[3] – الظئر: المرضعة لغير وليدها، ينظر: المعجم الوسيط، 575/2.

[4] – ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس،247/3.

[5] – القاموس المحيط،الفيروزآبادي،732.

وفي الاصطلاح: ((الإقدام الاختياري على مخاوف نافعة في غير مبالات ، وقيل هيئة حاصلة للقوة للغضبية بين التهور والجبن بها يقدم على أمور ينبغي أن يقدم عليها كقتال كفار لم يزيدوا على ضعفنا))[1]، فهذا الخلق مستحسن من جميع الناس، وهو بالملوك وعوانهم أليق وأحسن؛ بل ليس مستحق للملك من عدم هذه الخلة، فأكثر الناس أخطارًا وأحوجهم على اقتحام الغمرات هم الملوك، فالشجاعة من أخلاقهم الخاصة بهم.

فالشجاعة من أمهات الأخلاق، لما تندرج تحتها من فضائل الأخلاق ، كالكرم والنجدة، والحلم، والصبر،....، ولم يكتنفها من رذيلتي الجبن والتهور، المتفرع عنها رذائل جمة من رذائل الأخلاق[2].

وقد صور ابن الخطيب شجاعة ممدوحه السلطان إسماعيل، فهو الشجاع إذا أقبل على أعدائه في الحرب أدبروا هاربين وفارين، ولم يكن مصيرهم سوى الهلاك، فقال في ذلك:[3]

أَقْبَلْتَ فِي يَوْمِ الْهِيَاجِ فَأَدْبَرُوا أَقْدَمْتَ فِي لَيْلِ الْعَجَاجِ فَأَجْفَلُوا
أَعْجَلْتَ حِزْبَ الْبَغْيِ فَاشْتَبَهَتْ بِهِمْ طُرُقُ النَّجَاةِ وَلِلْهَلَاكِ تَعَجَّلُوا

ومما لا شك فيه أن غرناطة عاشت دوامة القلق الدائم على الحياة ومصادر العيش ؛ لذا كانت على استعداد دائم للدفاع عن البلاد والحياة، فللشجاعة أهمية كبرى في صنع مصير الفرد والجماعة، فوجب عليهم أن يكونوا شجعانًا، وعلى استعداد لتلبية نداء الداعي للحرب في كل وقت وحال، وهذا ما مدح به لسان الدين بن الخطيب أبا الحجاج، وما أعده من كتائب للدفاع عن الأندلس:[4]

وَكَتَّبْتَ مِنْ أُسْدِ الْحِفَاظِ كَتَائِبًا إِذَا ثَوَّبَ الدَّاعِي أَتَتْهُ تُسَارِعُ
إِذَا سَحَبُوا ذَيْلَ الدُّرُوعِ إِلَى الْوَغَى كَمَا تَسْحَبُ السُّحْبَ الْبُذُورُ الطَّوَالِعُ

---

[1] – التوقيف على مهمات التعاريف، تاج العارفين، ص202.

[2] – ينظر: أخلاق النبي ــ ﷺ ــ في القران والسنة، أحمد الحداد، 1322/3 .

[3] – ديوان ابن الخطيب،500/2.

[4] – ديوان ابن الخطيب،649/2.

ولعل هذه الأبيات تبين لنا كيف تكون الشجاعة الحربية، في حماية الحمى والغيرة على المحارم، فيقول:[1]

وَأُسْدُ جِهَادٍ أَذْعَنَتْ لِسُيُوفِهِمْ جَلَالِقَةُ الثَّغْرِ الْغَرِيبِ وَرُومُهُ

فَلَوْلاَهُمْ يَا خَيْرَ مَنْ سَكَنَ الْحِمَى لَرِيعَ حِمَاهُ وَاسْتُبِيحَ حَرِيمُهُ

لقد عشق مسلمو الأندلس الشجاعة، ولم يأت إقدامهم من كونهم أمة أحبت الاعتداء والشر؛ بل لكونها أمة أحبت الخير والسلام ، وسعت إلى تثبيت كيانها من خلال مواجهتها للأعداء . فالشجاعة عندهم كانت واضحة عند الرد على الاعتداء في سبيل العز والكرم والوجود، وشمائلهم تشهد لهم بذلك[2]، فالشجاعة صفة متوارثة عندهم من أبائهم وأجدادهم، ومنه مدح ابن الخطيب لقائد الأسطول أبا لقاسم فيقول:[3]

إِرْفَعْ قِسِيَّ الْمُنْشَآتِ بِسَعْدِهِ وَاسْتَنْجِزِ النَّصْرَ الْعَزِيزَ لِوَعْدِهِ

وَانْظُرْ إِلَيْهِ تَلُحْ إِلَيْكَ بِوَجْهِهِ سِمَةَ الشَّجَاعَةِ مِنْ أَبِيهِ، وَجَدِّهِ

أما رباطة الجأش التي تقوم على ضبط النفس عند مواجهة الخطر، مع سكون القلب ، وحضور اللب، وقطع دابر الشر، فلا تكون إلا بشدة البأس، كما جاء في توظيف ابن الخطيب، قوله تعالى: ﴿ وَغِيضَ ٱلْمَآءُ ﴾[4]، ليبين شدة بأس ممدوحه أبي الحجاج، واختفاء أعدائه من أمامه كما تبتلع الأرض الماء، فيقول في ذلك:[5]

لَوْ أَنَّ بَأْسَكَ، وَالْجُمُوعُ زَوَاحِفٌ، فِي مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ غِيضَ الْمَاءُ

ومن مظاهر الشجاعة إرهاب الأعداء وإشاعة الذعر والخوف في نفوسهم، لتفريق صفوفهم، كما جاء في مدح ابن الخطيب لأبي الحجاج:[6]

فَدُمْ تُذْعِرُ الْأَعْدَاءَ فِي شَغَفَاتِهَا وَتَنْقُضُ مَا شَدُّوا وَتَعْمُرُ مَا شَادُوا

---

[1] – ديوان ابن الخطيب،552/2.

[2] – القيم الخلقية في الشعر الأندلسي عصر ملوك الطوائف والمرابطين، سلمى سلمان على، ص150.

[3] – ديوان ابن الخطيب،359/1.

[4] – سورة هود، من الآية:44.

[5] – ديوان ابن الخطيب،94/1.

[6] – ديوان ابن الخطيب،274/1.

وقوله أيضاً في مدح شجاعة الوزير المريني (عمر بن عبد الله)، وإنزاله الروع في قلوب الأعداء:[1]

إِلَى اللَّيْثِ الَّذِي رَاعَ الْأَعَادِي وَأَمَّنَ رِفْقُ سِيرَتِهِ الرِّفَاقَا

وقوله أيضًا: [2]

تَتَضَاءَلُ الْأَعْدَاءُ فَوْضَى حَوْلَهُ كَاللَّيْثِ كَرَّ عَلَى قَطِيعِ شِيَاهِ

أما المبادرة في الهجوم على الأعداء فهي قمة الشجاعة، وهذا ما جاء في قول ابن الخطيب في وصف شجاعة السلطان (أبي سالم المريني) و تحقيقه للنصر، فيقول في ذلك:[3]

وَقُدْتَ إِلَى الْأَعْدَاءِ فِيهَا مُبَادِرًا لُيُوثَ رِجَالٍ فِي مَنَاكِبِ عِقْبَانِ
تَمُدُّ بُنُودُ النَّصْرُ مِنْهُمْ ظِلَالَهَا عَلَى كُلِّ مِطْعَامِ الْعَشِيَّاتِ مِطْعَانِ

فالسيف وحده مظهر من مظاهر الشجاعة، الذي كان له الأثر الأكبر في الطعن والفتك بالأعداء، وإثارة الرعب في قلوبهم وفي ذلك يقول ابن الخطيب:[4]

لَكَ اللهُ مَا أَمْضَى سُيُوفَكَ فِي الْعِدَى إِذَا مَا أُسُودُ الْحَرْبِ خَامَرَهَا الذُّعْرُ
وَدَارَتْ عَلَى أَبْطَالِهَا أَكؤُسُ الرَّدَى فَمَالَتْ كَأَنَّ الْقَوْمَ أَزْرَى بِهَا السُّكْرُ

ورعاية الدخيل وحماي تة شجاعة ، وهذا ما جاء على لسان ابن الخطيب في مدح السلطان أبي سالم المريني، فيقول:[5]

وَمَثْلُكَ مَنْ يَرْعَى الدَّخِيلَ وَمَنْ دَعَا بِيَا (لِمَرِينٍ)، جَاءَهُ الْعِزُّ وَالنَّصْرُ

وصوره ابن الخطيب شجاعة وشدة البأس والكرم الوزير المريني (عمر بن عبد الله بن على)[1]، في قول:[2]

---

[1] – ديوان ابن الخطيب،707/2.
[2] – ديوان ابن الخطيب،247/1.
[3] – ديوان ابن الخطيب،588/2.
[4] – ديوان ابن الخطيب، 401/1.
[5] – ديوان ابن الخطيب، 416/1.

كَمْ دُونَ مَوْقِفِ بَأْسِهِ مِنْ طَاعِنٍ كَمْ دُونَ مَنْزِلِ ضَيْفِهِ مِنْ طَاهِي

أما الشجاعة التي يسبقها العزم والحزم، فهي التي تجعل الصعب سهلًا ، ومن ذلك وصف ابن الخطيب لشجاعة أبي الحجاج:[3]

أَصْمَيْتَ ثُغْرَ ـتهَا بِسَهْمِ عَزِيمَةٍ تَذَرُ الْأَبِيَّ الصَّعْبَ، وَهْوَ ذَلُولُ

ولما كانت الشجاعة أساس الفضائل فهي الموهبة أو الطبع لمن تحلى بها، فمنهم من لقب بالسَّبْعُ لشجاعته واتصافه بهذه الصفة التي جُبِل عليها، ومن ذلك قول ابن الخطيب ل. (محمد بن موسى)[4] الملقب بالسُّبيع:[5]

أَيَا سَبُع الْمَيْدَانِ، دَعْوَةُ آمِلٍ عَلَى يَدِ كَ النَّصْرُ الْعَزِيزُ عَلَى الدَّهْرِ

وليس شرطًا أن تكون الشجاعة صفة فطرية في الإنسان ، على أن بعضهم جُبل على الشجاعة ، فكانت الشجاعة التي يسبقها الحزم والعزم هي التي تجعل الصعب سهلًا، فالمبادرة وضبط النفس هي قمة الشجاعة فهذه هي أهم مظاهر الشجاعة في شعر ابن الخطيب.

اقتحام الأهوال:

هو جهد عال يتوخى تحقيق غاية أو مصير الإنسان في الأرض، بأن يسعى في هذه الحياة إلى التكامل فتبدو اقتحام الأهوال مثالية واقعية عقلية، وطبعية معًا، وتظهر فيها العفوية والسذاجة التي تستدل عليها ظواهر خاصة بها مثل الارتكاس، والغريزة، والعواطف الهوجاء.

ويتطلب من مقتحم الأهوال نوع من شجاعة الفعل، متخطيًّا شجاعة القول متجنبًا الاستكانة والذل عازمًا على ركوب الصعاب والأخطار جازمًا على إجتيازها.

---

[1] – عمر بن عبد الله بن علي بن سعيد الفودودي، كان يخدم السلطان أبا سالم (إبراهيم بن علي)، يعد من كبار الدولة ووزرائها، ينظر: الأعلام للزركلي،52/5.

[2] – ديوان ابن الخطيب، 747/2.

[3] – ديوان ابن الخطيب، 488/2.

[4] – مُحَمَّد بن موسى بن إبراهيم، المنبز بالسبيع، المشهور بالفروسية والثقافة والدربة، ينظر: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، لسان الدين ابن الخطيب،360/2.

[5] – ديوان ابن الخطيب، 430/1.

وربما يتبادر إلى ال ذّهن أن اقتحام الأهوال خلق بعيد عن الحضارة المثالية والمدنية، ولكن هذا لا يقاس بما تحققه القيمة من منفعة وخير، وقد لا يقتصر على نفسه؛ بل يتعدى المجتمع أيضًا[1].

إنّ خوض غمار الحروب الطاحنة يهيئ خائضوها القدرة على ركوب صعابها، واقتحام أهوالها، وفي هذا يصف ابن الخطيب حسن قيادة (أبي حمو) في الأوقات الصعبة، وبخاصة في المعارك واصفًا تأجج نار الحرب وشدتها:[2]

قُدْتَ الصِّعَابَ، فَكُلُّ صَعْبٍ سَامِحُ لَكَ بِالْقِيَادِ، وَكَانَ قَبْلُ شَمُوسَا
تَلْقَى اللُّيُوثَ، وَلِلْقَتَامِ غَمَامَةٌ قَدَحَ الصَّفِيحُ وَمِيضَهَا الْمَقْبُوسَا
وَكَأَنَّهَا تَحْتَ الذُّرُوعِ أَرَاقِمٌ يَنْظُرْنَ مِنْ خَلَلِ الْمَغَافِرِ شُوسَا

فعند المنازلة والاقتحام واشتباك الجنود والتحام الأجسام وكثرة القتلى في أرض المعركة، يقف ابن الخطيب واصفًا الوقائع والأحداث، فيقول:[3]

وَصَبَّحْتَ جَمْعَ الْكُفْرِ فِي مُسْتَقَرِّهِ فَخَابَتْ مَسَاعِيهِ وَسَاءَ صَبَاحُهُ
فَبَيْنَ صَرِيعٍ، بِالفَلَاةِ، مُجَدَّلٍ طَرِيحٍ، وَعَانٍ لَا يُرْجَّى سَرَاحُهُ
وَمِنْ بَيْنِ مَكْلُومٍ بِحَدِّ سُيُوفِهَا تَسِيلُ عَلَى الْأَعْقَابِ مِنْهُ جِرَاحُهُ

فهناك من تدفعه نفسه إلى اقتحام الأهوال، فلا يروم إلا الصعب ولا يطلب إلا الممتنع، فلا تنقاد له إلا بجده وعزمه، وهذا ما جاء في قول ابن الخطيب واصفًا الجِدَّ والمثابرة لأبي الحجاج في اقتحام الصعاب:[4]

إِذَا رُمْتَ صَعْباً أَوْ طَلَبْتَ مُمْنَّعاً فَجَدُّكَ يَدْعُو بِالصَّعَابِ فَتَنْقَادُ

---

[1] – ينظر: القيمة الخلقية في الشعر الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، سلمى سلمان على، ص175.
[2] – ديوان ابن الخطيب،726/2.
[3] – ديوان ابن الخطيب،220/1.
[4] – ديوان ابن الخطيب، 272/1.

ومن أصعب أشكال اقتحام الأهوال هو المخاطرة بالنفس، فلا يفوز باجتياز الأخطار إلا المخاطر، وهذا ما يراه ابن الخطيب في مخاطرة أبي الحجاج بنفسه وكيف استطاع الإفلات من المكيدة البحرية التي دبرت له:[1]

وَخَاطَرْتَ بِالنَّفْسِ النَّفِيسَةِ دُونَهَا وَهَلْ فَا زَ بِالْأَخْطَارِ إِلاَّ الْمُخَاطِرُ

ويقول ابن الخطيب في رثاء أبي الحسن المريني، يصف شجاعته واقتحامه للأهوال في المعركة، ويصف كثرة الرماح كأنها بحر متلاطم الأمواج:[2]

يَا عَابِرَ الْجَيْشِ الْكَثِيفِ كَأَنَّهُ بَحْرٌ تَلَاطَمَ بِالْقَنَا زَخَّارَهُ

وابن الخطيب يصف هول المعركة ويصف كثرة الرماح بالغابة، وشدة المواجهة كأن أُسد تفتك بالأُسد حتى دخل الرعب قلب ملك الروم من شدة هول المعركة فيقول:[3]

وَغَابًا مِن (الْخُطَّ يِّ) تَحْتَ ظِلَالِهِ أُسُودٌ مِنْ الْأَنْصَارِ تَفْتِكُ بِالْأُسْدِ

فَلَمَّا اسْتَفَزَّ الذُّعْرُ مِنْكَ فُؤَادَهُ وَحَقَّقَ مَعْنَى الْفَضْلِ فِي ذَلِكَ الْحَدِّ

ومازال ابن الخطيب يصف مخاطرة أبي الحجاج بنفسه، فيرى أنه قد خاطر بنفسه مرتين مرة في ركوب البحر والأخرى في ملاقاته للأعداء، مخاطبًا إياه بقوله:[4]

عَبَرْتَهُمَا بَحْرَيْنِ: بَحْرًا مِنَ الْعِدَى وَبَحْرًا مِنَ اللُّجِّ الَّذِي هُوَ زَاخِرُ

ومنهم من ألجأته الضرورة لركوب البحر ؛ ليخاطر من أجل غيره ، ليبلغ أماناتهم، ويوصل أعذارهم، متفائلاً له بالسلامة ومقتبسًا قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرَىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾[5]، وكما جاء في قول ابن الخطيب:[6]

أَيَا رَاكِبَ الْبَحْرِ الْأُجَاجِ مُخَاطِراً تَقَدَّم بِاسْمِ اللهِ مُرْسَاكَ وَالْمَجْرَا

---

[1] – ديوان ابن الخطيب، 390/1.

[2] – ديوان ابن الخطيب،442/1.

[3] – ديوان ابن الخطيب، 304/1.

[4] – ديوان ابن الخطيب، 390/1.

[5] – سورة هود، من الآية،41.

[6] – ديوان ابن الخطيب،434/1.

ومنهم كان الهوى دافعًا له إلى اقتحام الأهوال، فيش ـتـ به بأسه في الحرب ويرى الردى والهلاك سهلًا يسيرًا، فلا يهاب مقارعة الأهوال وهذا ما جاء على لسان ابن الخطيب، فيقول:[1]

أَصْبَحْتُ فِي أَمرِ الْهَوَى مُتَعَجِّبًا أُهْدِي إِلَى الْأَعْدَاءِ بَأْسًا صَيِّبَا

وَأَرَى الرَّدَى فِي الْحَرْبِ عَذْباً طَيِّبَا وَأُقَارِعُ الْأَهْوَالَ لَا مُتَهَيِّبَا

وهكذا دفعتهم الشيم والفضائل الأخلاقية إلى اقتحام الأهوال، وخوض المعارك برًا وبحرًا، لتحقيق آمال وطموحات المجتمع، واستنهاض الهمم وإعطائه صور واضحة على اشتداد وطيس المعارك مع الحفاظ على روح الشجاعة والصبر، بعد ركوب الأهوال وتجشم الصعاب.

الفصل الثالث: القيم الاجتماعية

الحكمة

الكرم

الإخلاص

الوفاء

[1] – ديوان ابن الخطيب،583/2.

العفاف

عزة النفس

المحبة

القيم الاجتماعية:

إن القيم الاجتماعية تستمد أصولها، وتشتق وجودها من التجربة الاجتماعية لل خلال تفاعلهم، وتعاطفهم بعضهم مع بعض في حياتهم الاجتماعية المشتركة [1]. فهي ملزمه وجبرية، لها سلطان على الأفراد تضغط عليهم، ويشعر كل واحد منهم أنه مضطر للخضوع لها[2].

وتعد القيم الاجتماعية من القيم المرغ وب فيها، والمحببة للناس، ومرجع ذلك إلى تلقائيتها، وشعور الأفراد بضرورتها لتعاملهم بعضهم مع بعض، ولصلاح حالهم واستقرارهم ، كما يرجع ذلك إلى عملية التنشئة الاجتماعية التي تهدف إلى تشكيل الأفراد على الصورة التي يرضاها المجتمع الذي يعيشون فيه، فتهيئهم لتقبل الظواهر الاجتماعية السائدة فيه، حتى يتوافق بعضهم مع بعض فيتماسكوا وتقوى وحدتهم، ولذلك تلجأ عملية التنشئة الاجتماعية إلى ترويض

[1] – ينظر: القيم والعادات الاجتماعية، فوزية ذياب، ص119.

[2] – ينظر: القيم والعادات الاجتماعية، فوزية ذياب، ص120.

الأفراد منذ نعومة أظافرهم على تقبل العادات الاجتماعية السائدة ، وتمثلها وارتضائها مستعينة لتحقيق ذلك، بالأساليب المختلفة كالتعويد وغرس الأفكار والمعتقدات، فهي من أقوى الوسائل في تثبيت العادات ومساندتها للقيم وربطها بالمصالح النفعية، وتزويدها بعناصر جزئية مختلفة.

وبهذه الطرق والأساليب المختلفة ترسخ العادات في نفوس الأفراد، وتطيب في نظرهم، فيمارسونها عن رضًا وتقبل واطمئنان، وبذلك تصادف في نفوسهم الحماسة لصيانتها وفقاً لها، والعمل على احترامها والذود عنها ومقاومة الخروج عليها[1].

وكان للشعر دور بارز في تثبيت هذه القيم، فهو إيقاظ للضمائر، وتهذيب للنفوس، وتسجيل للوقائع، وهو الذي قيد الناس على المعاني الشريفة، وأفادهم الفوائد الجليلة، وهو عملية تراسل بين الماضي والحاضر، ينقل مكارم الأخلاق على الشاهد، حتى ترى آثار الماضين مخلدة في عقول اللاحقين، وعقول الأولين مردودة في الآخرين، وتجد فيه علمًا مرفوعًا لكل من رام الأدب وابتغى الشرف، وهو داع ومحرض للناشئ على طلب المآثر والمحامد[2].

و تضمن الشعر مناقب العرب وأخلاقهم الفاضلة ، من حكمة ، وكرم، ووفاء ، وإخلاص، وحماية للعرض، وإغاثة للملهوف، وما إلى ذلك من صفات تكونت منها شخصية الرجل المثالي في العصر الأندلسي، كما حرص الشعراء على التغني بهذه المثل والقيم الرفيعة في أشعارهم، وإذاعتها بين الناس، وغرسها في نفوس الناشئة في طبقات المجتمع، فكان شعرهم مدرسة أخلاقية تربي الناشئة على ما تتضمنه من مبادئ وقيم إنسانية، وما تدعو إليه من غايات المجتمع[3].

ومن هنا ازدادت مهمة الشاعر خطورة، حيث اختلط العرب بغيرهم من شعوب البلدان التي فتحوها، وامتزجوا بها ثقافيًا، وحضاريًا، فتسربت إليهم كثير من مساوئ ومفاسد تلك الشعوب[4]، مما جعل بعض الشعراء يتنبهون إلى خطرها، والدعوة إلى تجنبها، والتغني بالفضائل والمثل العربية الإسلامية الأصيلة، والحث على التمسك بها.

---

[1] – ينظر: القيم والعادات الاجتماعية، فوزية ذياب، ص133.

[2] – ينظر: دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني ، ص15.

[3] – ينظر: الالتزام في الشعر العربي، د. أحمد أبو حاقة، ص 67.

[4] – ينظر: الشعر والشعراء في العصر العباسي، مصطفى الشكعة، ص171.

فكان بعض الشعراء يدعو إلى الإصلاح الاجتماعي، بما التزم فيه من حث للعرب على التمسك بسيرة أسلافهم، وتحذير لهم من مساوئ عصرهم التي عبثت بأمتهم وأمجادها، في مجتمع ساد فيه حكم الأعاجم والموالى وغيرهم، ممن استهانوا بالأخلاق الفاضلة، وأهدروا القيم الإسلامية، فالشعر مدرسة أخلاقية تربي به الأمة أبنائها على ما فيه من مثل عليا وقيم إنسانية واجتماعية رفيعة[1].

وس يقدم هذا الفصل دراسة لبعض القيم الاجتماعية، التي وردت في شعر لسان الدين بن الخطيب، والتي كانت سائدة في المجتمع الغرناطي في ذلك العصر.

الحكمة:

وردت الحكمة على ألسنة الشعراء من العصور الأولى للأدب، فهي من الموضوعات التي تغنوا بها، وحثوا عليها في جميع العصور.

والحكمة لغة: العلم مع العمل ،[2]أو العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه، والعمل بمقتضاها ،[3]وهي معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم [4]. **أما في الاصطلاح** : ((فهي كل كلمة

[1] – ينظر: الالتزام في الشعر العربي، د. أحمد أبو حاقة، ص88.

[2] – ينظر: التعريفات، الجرجاني،91.

[3] – ينظر: تاج العروس، المرتضى الزبيدى،512/31.

[4] – ينظر: لسان العرب، ابن منظور،951/2.

وعظتك وزجرتك ودعتك إلى مكرمة ، أو نهتك عن قبيح))[1].وقد قيل: ((من ملك منطقه سمي حكيمًا))[2].

ووردت الحكمة في القرآن الكريم في كثير من الآيات مقرونةً بذكر الكتاب لدلالة على ما في الكتاب الكريم من الأحكام والقيم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ﴾[3]، أو للدلالة على العلم النافع المؤدي إلى العمل الصالح، على نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَنْ يَّشَآءُ ۚ وَمَنْ يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ۗ ﴾[4]، وفي بعض الآيات دلت الحكمة على النبوة في مثل قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾[5].

مما سبق نجد أن لفظ (الحكمة) في آيات الذكر العزيز يدور في فلك معاني الأسلوب الحكيم ، واللفظ اللين بما يؤثر في السامع ويفيده ، أو بما يدل على المواعظ البليغة والهداية الرشيدة، والسداد في الرأي والمنطق بما يوافق الحق.

وجاءت لفظة (الحكمة) في أغلب الذكر الحكيم مقرونةً بذكر (الكتاب) وذلك أن القرآن الكريم في مبادئه وتشريعه الحكيم وأسلوبه القويم، يدعو إلى الموعظة الحسنة ليرتفع بها المسلم في دنياه وأخراه، قد بيّن ذلك صراحة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾[6].

و تأثرت الحكمة في شعر ابن الخطيب بمعانيها في كتاب الله_ عز وجل _ وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَاقْصِدْ فِى مَشْيِكَ ۖ﴾[7] ومن ذلك قوله لـ (عامر بن محمد بن على الهنتاتي):[8]

وَسِرْ فِي مَرَاحِ اللهِ مُقْتَصِرَ الْخُطَى وَكُنْ لِنَوَالِ اللهِ مُنْبَسِطَ الْيَدِ

وتظهر حكمة الأمير محمد ابن أبي الحجاج بين القبض والبسط والاعتدال في كل الأمور، فقد قال

---

[1] – جمهرة اللغة، ابن دوريد، 564/2.

[2] – المقابسات، أبو حيان التوحيدي، ص268.

[3] – سورة البقرة، من الآية: 129 .

[4] – سورة البقرة، من الآية: 269.

[5] – سورة البقرة، من الآية: 251.

[6] – سورة الإسراء، الآية: 9.

[7] – سورة لقمان، من الآية: 19.

[8] – ديوان ابن الخطيب،311/1.

بعض الحكماء: ((عليك بالاعتدال في كل الأمور، فإن الزيادة عيب والنقصان عجز))[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً ﴾[2]، وفي ذلك يقول ابن الخطيب:[3]

تَعَلَّمَ مِنْهُ الدَّهْرُ حَالَيْهِ فِي الْوَرَى فَآونَةً يَسْخُو، وَآونَةً يَسْطُو
وَتَجْمَعُ بَيْنَ الْقَبْضِ وَالْبَسْطِ كَفُّهُ بِحِكْمَةِ مَنْ فِي كَفِّهِ الْقَبْضُ وَالْبَسْطُ

ويصور شعر الحكمة إلى حد كبير همومًا وآلامًا من نوع خاص تعكسها الحكمة، ولو بصورة غير مباشرة، فالشاعر يحاول من خلال نصوصه أن يقدم خلاصة أفكاره وتجاربه التي مر بها، وإدراك تفصيلاتها في هذه الحياة، بعد أن ذاق حلوها ومرها، وعاش أيامها ولياليها وخَبِر الناس وعرفهم على طبيعتهم، وعانى من غدر الزمان وصروف دهره وتقلباته، فخرج الشاعر محملاً بتجارب عميقة، وأفكار تثري عقله، وتغني تجربته ، ومن ثَمَّ قد يُثري بها ويغنيها تجارب الآخرين. فيرى ابن الخطيب أن الشعر هو ديوان حكمة العرب فيقول:[4]

أَمَوْلَايَ، إِنَّ الشِّعْرَ دِيَوانُ حِكْمَةٍ يُفِيدُ الْغِنَ ى وَالْعِزَّ وَالْجَاهَ مُذْ كَانَا

ويظهر هذا واضحًا في شعر ابن الخطيب، وتوجيه النصح والإرشاد إلى سلطانه الغني بالله، ويقدم له خلاصة تجاربه السياسية، فيقول:[5]

أُهْدِيكَ مِنْ أَدَبِ السِّيَاسَةِ مَا بِهِ تَبْأَى [6] الْمُلُوكِ عَلَى الْمُلُوكُ وَتَفْضُلُ
لَا تُغْفِلِ الْحَزْمَ الَّذِي بِعِقَالِهِ إِبِلُ الْإِمَارَةِ وَالْإِدَارَةِ تُعْقَلُ
وَاجْعَلْ صُمَاتَكَ عِبْرَةً فِيمَا مَضَى وَعَلَيْهِ قِسْ مِنْ بَعْدِمَا يُسْتَقْبَلُ
وَالْأَمْرُ تَحْقِرُهُ وَقَدْ يَنْمِي كَمَا تَنْمِي الْجُسُومُ عَلَى الْغِذَاءِ وَتَعْبَلُ
فَاحْذَرْ صَغِيرَ الْأَمْرِ وَلْتَحْفِلْ بِهِ وَإِذَا غَفَلْتَ فَإِنَّهُ يُسْتَفْحَلُ

---

[1] – ادب الدنيا والدين، للماوردي، ص24.
[2] – سورة الإسراء، الآية: 29.
[3] – ديوان ابن الخطيب،458/2.
[4] – ديوان ابن الخطيب، 579/2.
[5] –ديوان ابن الخطيب ، 503/2.
[6] – تبأى: تتفاخر، ينظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي،1261/1.

فَالنَّارُ أَوَّلُ مَا تَكُونُ شَرَارَة وَالْغَيْثُ بَعْدَ رَذَاذِهِ يَسْتَرْسِلُ

شَاوِرْ، إِذَا الشُّورَى دَعَتْكَ، أُولِي النُّهَى فَخَطَابُ غَيْرِ أُولِي النُّهَى لَا يَجْمُلُ

وإبداء الحكمة فهي دلالة على كمال عقل صاحبها ، وعلو شأنه، مما يجعله قريبًا من الناس، يقول فيسمعون، ويأمر فيطعون؛ لأنهم يدركون أن رأيه نعم الرأي، ومشورته خير مشورة، فيصيب في القول والفعل، ويسير على هدى وبصيرة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَنْ يَّشَآءُ ۚ وَمَنْ يُّؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ۗ ﴾[1]، وهذا ما يراه ابن الخطيب في أبي حمو فيقول:[2]

كَمْ حِكْمَةٍ أَبْدَى، وَكَمْ قَصْدٍ هَدَى لِلسَّالِكِينَ أَبَانَ مِنْهُ دَرِيسَا

أَعْلَى (بَنِي زَيَّان) وَالْفَذُّ الَّذِي لَبِسَ الْكَمَالَ فَزَيَّنَ الْمَلْبُوسَا

وقوله أيضًا في مدح الغني بالله:[3]

وَكَمْ حِكْمَةٍ أَبْدَى، وَكَمْ ظُلْمَةٍ جَلَا بِنُورِ هُدىً مِنْ رَأْيِهِ وَرَشَادِ

ومنهم من ظهرت الحكمة عنده في فطنته، وهذا ما ذهب إليه ابن الخطيب في مدحه لوزير بنى مرين:(عمر بن عبد الله)، فقال فيه:[4]

إِلَى حَبْرِ السِّيَاسَةِ لَا يُجَارَى وَلَا يَبْغِي مُعَارِضُهُ اللِّحَاقَا

إِلَى الْفَطَنِ الَّذِي لَوْلاَ نَدَاهُ إِذَا مَا جُسْتَهُ خِفْتَ احْتِرَاقَا

ويرى ابن الخطيب أن من الحكمة أن يكون الإنسان على يقظة وحذر، ومن ذلك قوله:[5]

قوله:[5]

وَخُذْ مِنَ الْأَمْرِ بَعْضاً، وَاقْتَصِدْ وَأَفِقْ وَانْظُرْ لِنَفْسِكَ فِي جَيْشٍ وَفِي مَالِ

---

[1] – سورة البقرة، من الآية: 269.

[2] – ديوان ابن الخطيب، 724/2.

[3] – ديوان ابن الخطيب،343/1.

[4] – ديوان ابن الخطيب، 707/2.

[5] – ديوان ابن الخطيب، 514/2.

وَكُنْ حَذُوراً وَلاَ تُغْفِلَ مَكِيدَة مَنْ يَدْنُو إِلَيْكَ، وَيَنْوِي فَتْكَ مُغْتَالِ

فالحكمة هي أساس التصرف الأخلاقي السليم، فقيل في ذلك: ((من ملك منطقًا سمي حكيمًا))[1]، فمن الحكماء من ملك أكثر من ذلك من إقدام ورأي صائب والتقوى، وهذا ما وجده ابن الخطيب في أخلاق أبي حمّو، فيقول[2]:

مَلِيءٌ بِأَوْصَافِ الْإِمَامِ بِمِثْلِهِ وَلَا مِثْلَ مَنْ يَبْغِي الْإِمَامَةَ يَأْتَمُّ

إِذَا اجْتَمَعَ الْإِقْدَامُ وَالرَّأْيُ وَالتُّقَى وَسَاعَدَ سَعْدٌ وَاسْتَقَلَّ بِهِ عَزْمُ

لقد تميزت الحكمة في شعر ابن الخطيب بسهولة ألفاظها، وبعدها عن الغريب، فصدرت من شعور صادق، عالج بها بعض القضايا الاجتماعية، التى عبر فيها الشاعر عن إحساسه في الحياة.

الكرم:

الكرم قيمة أخلاقية متوارثة، ومن أبرز الصفات الحميدة عند العرب، فالكريم عندهم يمتاز بكرم أخلاقه قبل أن يكون كريم اليد والقلب، فهو من الموضوعات التي تغنى بها الشعراء، وحثوا عليها من الجاهلية إلى وقتنا الحاضر.

فالكرم في اللغة: ضد اللؤم[3]، كَرَمَ الرَّجُلُ كَرَمًا فَهُو كَرِيمٌ، والْكَرَامَةُ اسْمٌ لِلإِكْرَام[4].

[1] – المقابسات، أبو حيان التوحيدي، ص268.

[2] – ديوان ابن الخطيب، 546/2.

[3] – القاموس المحيط،الفيروزآبادي،1153.

[4] – ينظر: جمهرة اللغة، ابن دوريد، 369/2.

أما في الاصطلاح: فهو ((إعطاء الشيء عن طيب نفس قليلاً كان أو كثيرًا))[1]، والكرم أيضًا إذا وصف به الإنسان فهو اسم للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر منه، ولا يقال: هو كريم حتى يظهر ذلك منه[2].

فهو بهذا المعنى أعم مما ذكره غيره من تخصيصه بالعطاء، إذ جعله شاملًا للنوال وسائر كرائم الأفعال والأقوال، فهو: ((جامع لمكارم الأخلاق، فكل خصلة من خصال الخير، أو خلة من خلال البر، أو سجية تضاف على محاسن الطباع والاعتراف، يصدق عليها اسم الكرم))[3].

فقد عني القران الكريم بهذا الخلق وأمر به ، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِۚ وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[4]، وحض عليه في مواضع أخرى منها قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْۚ﴾[5].

إن الكرم قيمة متوارثة اهتم بها العرب على عهود وأجيال طويلة متعاقبة، ولم تكن وليدة حينها، فكان إضرام النار ليلًا من الأساليب القديمة التي اتبعها العرب ليهتدي بها السُّراة، فنار الضيافة من أكثر الأساليب احتواء لمضامين الكرم، ومن ذلك قول ابن الخطيب م ادحًا كرم أبي الحجاج:[6]

يَا ابْنَ الْخَلَائِفِ، وَالَّذِينَ إِذَا احْتَبَوْا أَبْصَرْتَ فِي النَّادِي هِضَابَ وَقَارِ
حَامِينَ يَومَهُمُ الذِّمَارَ، وَنَارُهُم، بِاللَّيْلِ، تَهْدِي فِي الظَّلَامِ السَّارِي

ولم تكن النار وحدها علامة من علامات كرم أبي الحجاج، فقباب قصوره البيض والحمر أصبحت علامة يهتدي بها الساري، يقول ابن الخطيب في ذلك:[7]

---

[1] – الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص175.
[2] – ينظر: المفردات في غريب القران، الراغب الأصفهاني،ص707.
[3] – أخلاق النبي – ﷺ– في القران والسنة، أحمد الحداد، 640/2.
[4] – سورة البقرة، الآية: 267.
[5] – سورة البقرة، من الآية: 272.
[6] – ديوان ابن الخطيب،370/1.
[7] – ديوان ابن الخطيب،273/1.

مَقَامَاتُهُمْ بِيضٌ وَحُمْرُ قِبَابِهِمْ يَرِفُّ بِهَا هَدْيٌ وَيَشْرُقُ إِرْشَادُ

تَحُفُّ بِهَا الْجُرْدُ الْعِتَاقُ وَدُونَهَا لِبَاغِي الْقِرَى، نَارٌ تُشَبُّ وَايقَادُ

فأبو الحجاج هو م أوى الضيوف ومورد الندى، وثمال الفقير، ويسر العسير، وملجأ الغريب، وحامي الطريد، فلقد أجمعت فيه كل صفات الكرم، وهذا ما جاء على لسان ابن الخطيب في ذلك:[1]

بَلَغْتَ (بِيُوسُفَ) مَثْوَى الضُّيُوفِ وَوِرْدَ النَّدَى، وَمُنَاخَ الْوُفُودْ

ثِمَالُ الْفَقِيرِ، وَيُسْرُ الْعَسِير، وَكَهْفُ الْغَرِيبِ، وَمَأْوَى الطَّرِيدْ

و كثرة الرماد دليل على الكرم، وإطعام الضيوف، وقد ورد في مدح ابن الخطيب للوزير (أبي بكر بن الحكيم)[2] فهو رجل كريم قد جمع العديد من القيم الأخلاقية من فضل وشجاعة وحلم وعلى رأسها الكرم:[3]

فَلَقَدْ انْجَبُوكَ يَا عُمْدَةَ الْحَيّ، وَرَبِّ الْبَيْتِ الرَّفِيعِ الْعِمَادِ

مَاجِدًا فَضْلاً شُجَاعاً حَلِيماً وَاسِعَ الْمُنْتَدَى كَثِيرَ الرَّمَادِ

وقوله أيضًا في كرم الغني بالله: [4]

الطَّاعِمُ الْكَاسِي وَرِفْدُكَ كَافِلُ والْعَالَةُ الْمُعْفَاةُ مِمَّا يَثْقُلُ

ففي هذا البيت إشارة إلى قول الحطيئة الذي استخدمه في الهجاء، إلا أن ابن الخطيب قلب بعض ألفاظه للمدح والثناء، فيقول: [5]

دع المكارم لا ترحل لبغيتها وأقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

---

[1] – ديوان ابن الخطيب،264/1.

[2] – أبي بكر بن ذي الوزارتين أبي عبد الله الحكيم، ينظر: الكتيبة الكامنة،ص52.

[3] – ديوان ابن الخطيب،295/1.

[4] – ديوان ابن الخطيب، 2/ 497.

[5] – ديوان الحطيئة، ص 108.

ومنهم من لم يكن كرمه مقتصر على كثرت الضيوف، وإيقاد النار ليهتدي بها السالكين؛ بل شمل كرمه ونواله المبذول وفضله كل الخلائق، وهذا ما جاء في مدح ابن الخطيب لشيخ العرب (مبارك بن إبراهيم بن عطية الخلطي) فيقول:[1]

عَرَصَاتُ دَارِكَ لِلضِّيَافِ مَبَارِكُ وَبِضَوْءِ نَارِ قِرَاكَ يُهْدَي السَّالِكُ

وَنَوَالُكَ الْمَبْذُولُ قَدْ شَمَلَ الْوَرَى طُرًّا، وَفَضْلُكَ لَيْسَ فِيهِ مُشَارِكُ

ولقد افتقد في الأندلس الأسلوب الذي اتبعه رجال الكرم كاستنباح الكلاب وارغاء البعير، وربما يعود ذلك إلى تباين البيئة واختلاف الزمن ، في حين دلت الضيافة على مساعدة المحتاج والضعيف في وقت الشدة، باذلين كل ما بوسعهم لإسعاد ضيفهم [2]، على الرغم من هذا نجد في شعر ابن الخطيب صورة الكرم القديمة الذي افتقدناها في كرم أهل الأندلس سائرًا على نهج شعراء البادية فيقول في ذلك:[3]

فَحُوَارٌ تَرْغُو، وَنَارٌ تَلَظَّى وَطُهَاةٌ تَشِي، وَدَاعٍ يُنَادِي

وَحُبًا مِنْ مَطَارِفِ وَشْي صَنْعَا ء بِهَا كَالرِّيَاضِ غِبَّ الْعِهَادِ

مَعْشَرٌ يَجْعَلُ الضُّيُوفَ أَصْدِقَاءً كَرَمًا، وَالْأَمْوَالَ بَ ع ضَ الْأَعَادِي

ومنهم من كان مشهور بالجود ولا يستطيع أحد أن يجحد جوده وفضله، وهذا ما يراه ابن الخطيب في جود (ابن بطان) فكرمه قد فاق كل من اشتهر بالجود والكرم، من أمثال حاتم الطائي وغيره من الكرماء:[4]

لِلهِ دَرُّكَ يَا (ابْنَ بَطَّان) فَمَا لِشَهِيرِ جُودِكَ فِي الْبَسِيطَةِ جَاحِدُ

إِنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا كَرِيمٌ وَاحِدٌ يَزِنُ الْجَمِيعَ، فَأَنْتَ ذَاكَ الْوَاحِدُ

---

[1] – ديوان ابن الخطيب، 472/2.

[2] – القيم الخلقية في الشعر الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، سلمى سلمان على،ص239.

[3] – ديوان ابن الخطيب،295/1.

[4] – ديوان ابن الخطيب،343/1.

أما الجود: ((فهو سعة العطاء ومنه سمي المطر الغزير الواسع جوداً سواء كان عن طيب نفس أو لا))[1]. ويرى ابن الخطيب أن كرم أبي الحجاج وأسلافه قد فاق الغيث، يقول فيهم:[2]

كِرَامٌ إِذَا مَا الْغَيْثُ فِي الْأَرْضِ لَمْ يَكْفِ بِصَوْبِ حَيَا كَانَتْ أَكُفُّهُمْ تَكْفِي

وهذا ما يراه أيضاً في جود الوزير المريني: (عمر بن عبد الله) الذي يهتفق من يمناه كالغيث الذي لا يتوقف، فهو الغيث إن شح الغيث:[3]

إِلَى (عُمَرَ بَنْ عَبْدِ اللهِ) حَنَّتْ رِكَابِي فَهْيَ تَسْتَبِقُ اسْتِبَاقَا
إِلَى الْغَيْثِ الَّذِي إِنْ شَحَّ غَيْثٌ فَمِنْ يُمْنَاهُ يَنْدَفِقُ انْدِفَاقَا

ويرى ابن الخطيب أن الله قد جاد عليهم بعيش رغد، وذلك جزاء على جود أبي الحجاج على الناس فجوده كالمطر الذي لا يتوقف:[4]

وَوَصْلٍ كَأَنَّا مِنْهُ فِي سِنَةِ الْكَرَى وَعَيْشٍ كَأَنَّ مِنْهُ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ
مَرَابِعُ أُلَّافِي وَعَهْدُ أَحِبَّتِي سَقَى اللهُ ذَاكَ الْعَهْدَ مُنْسَكِبَ الْعِهْدِ
وَجَادَ بِهِ مِنْ جُودِ (يُوسُفَ) سَاجِمٌ مُلِثٌّ هَمُولٌ، دُونَ بَرْقٍ وَلَا رَعْدِ

وقد حطت ركاب ابن الخطيب بباب أبي الحجاج، فهو باب الجود والكرم ، فيقول:[5]

طَوَى الْبُعْدَ عَنْ شَوْقٍ وَحَطَّ رِكَابَهِ بِبَابِكَ بَابِ الْجُودِ فِي جُمْلَةِ الْوَفْدِ

ومازال ابن الخطيب يفتخر بجود أبي الحجاج و أسلافه، فهو امتداد لأسلافه ، وورث الجود عنهم فهم أبحر من الجود:[6]

أَبْحُرُ الْجُودِ، وَأَمْلَاكُ الْوَرَى وَسُيُوفُ اللهِ تُرْدِي مَنْ كَفَرْ

---

[1] – الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص175.
[2] – ديوان ابن الخطيب،675/2.
[3] – ديوان ابن الخطيب،707/2.
[4] – ديوان ابن الخطيب،302/1.
[5] – ديوان ابن الخطيب،305/1.
[6] – ديوان ابن الخطيب،394/1.

لَهُمُ الْفَخْرُ بِحقٍّ، وَكَفَى (بِأَبِي الْحَجَّاجِ) اسْمَا مُفْتَخَرْ

فالجود من المواضيع التي تغنى بها الشعراء ، وحثوا عليها وحاولوا ألّا يشعروا ضيفهم بقلة الحال، مما دفعهم إلى التظاهر بالغنى ووسع الحال، فضيق الحال لا يمنع الجود [1]، وهذا ما نجده في مدح ابن الخطيب لجود أبي الحجاج وأسلافه في سنين الجذب:[2]

إِنْ بَطَشَ الدَّهْرُ بِقَوْمٍ حَمَوْا أَو تَعْثُرِ الْأَيَّامُ قَالُوا: لَعَا [3]

أَوْ جِئْتَهُمْ فِي الْجَدْبِ تَبْغِي النَّدَى سَحُّوا عَلَيْكَ السُّحْبِ الْهُمَّعَا

فأبي الحجاج قد جمع بين الجود والهمة وإشراقة الوجه ورجاحة الرأي، أما طلاقة الوجه والترحيب بالضيف والبشاشة مظهراً من مظاهر الجود، فقد قيل : ((تمام الضيافة والكرم عند أول وهلة، وإطالة الحديث عند المواكلة))[4]، ومن هذا قول ابن الخطيب:[5]

هُوَ السُّحْبُ جُودًا وَالْكَوَاكِبُ هِمَّةً وَبَدْرُ الدُّجَى وَجْهًا وَشَمْسُ الضُّحَى رَأَيًا

وقوله مادحًا أبي عنان: [6]

وَجْهُكَ فِي النَّائبَاتِ بَدْرُ دُجًى لَنَا وَفِي الْمَحْلِ، كَفُّكَ الْمَطَرُ

ومنهم من جمع العديد من القيم الأخلاقية ومن بينها السجاحة والرجاحة والندى وشدة البأس ورجاحة الرأي وعلى رأسها الجود، وهذا ما نجده في مخاطبة ابن الخطيب لـ (شيخ العرب) فيقول:[7]

جَمَعَ السَّجَاحَةَ، وَالرَّجَاحَةَ وَالنَّدَى وَالْبَأْسَ، وَالرَّأْيَ الْأَصِيلَ (مُبَارَكُ)

لِلدِّينِ وَالدُّنْيَا وَلِلشِّيَمِ الْعُلَى وَالْجُودِ، إِنْ شَحَّ الْغَمَامُ السَّافِكِ

---

[1] –القيم الخلقية في الشعر الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين:، سلمى سلمان على، ص234.

[2] – ديوان ابن الخطيب، 651/2.

[3] – لعا: لفظة تقال للاقالة من العثرة، ينظر: لسان العرب، ابن منظور، 3177/4.

[4] – الحياة العربية في الشعر الجاهلي، د. أحمد الحوفى، ص311.

[5] – ديوان ابن الخطيب، 776/2.

[6] – ديوان ابن الخطيب،1/ 404.

[7] – ديوان ابن الخطيب، 472/2.

فالإنفاق وإقامة الصلاة ابتغاء مرضاة الله تعالى من صفات المتقين، وهو الكرم بعينه؛ لأنه يكون بسماحة وسخاء ولا يصاحبه مَنْ ولا أذى، وكما جاء في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1]، وهذا ما جاء في مدح ابن الخطيب ليوسف أبي الحجاج:[2]

فَلِلنَّاسِ فِي يَوْمِ الْعَطَاءِ هِبَاتُهُ وَلِلهِ فِي اللَّيْلِ الطَّوِيلِ هُجُودُهُ

وترى ابن الخطيب يهنئ نفسه لما لقيه من كرم عند أبي حَمُّو فيقول: [3]

هَنِيئًا لِضَيْفٍ فِي ذَرَاكَ قَرَارُهُ بِحَيْثُ النَّوَالُ الْغَمْرُ وَالْكَرَمُ الْجَمُّ

إن قيمة الكرم في شعر لسان الدين بن الخطيب صفة متوارثة من جيل إلى جيل، مزاوجًا في معانيها بين التراث القديم من ذكر النار والرماد وغيرها، وبعض المعاصرة المدنية في زمنهم من ذكر القصور والقباب للدلالة على الكرم والجود والاعتناء بالضيوف، وزاد على ذلك أنه جعل الكرم من صفات المتقين، فقد قرن بين الإنفاق والصلاة في شعره، وجعله الكرم بعينه.

الإخلاص.

الإخلاص كلمة يسيرة في صيغتها كبيرة في معناها؛ فهي لا تحصل إلا لمن اجتمعت فيه صفة الحب للشيء المكلف به، إذ عندها يتحلى الإنسان بالإخلاص وحسن الأداء اللذين هما ثمرتا الإخلاص الحقيقي.

[1] – سورة البقرة، الآية: 3.

[2] – ديوان ابن الخطيب، 269/1.

[3] – ديوان ابن الخطيب،546/2.

والإخلاص في اللغة: تنقية الشيء وتهذيبه [1]. يقال: خَلَصَ الشَّيْء بالفتح، يَخْلَصَ خَلُوصًا أي: نقيًّا من الشوائب المكدرة صفوه، فكل ما يتصور أن يشوب غيره، فإذا صفا عن شوبه وَخَلَصَ منه سمي خَالِصًا، ويسمى الفعل الْمُخْلِصُ: إخْلَاصًا وهو في الطاعة: ترك الرياء[2].

وفي الاصطلاح: ((تخليص القلب عن شائبة الشوب المكدرة لصفائه))[3]. ويقال أيضاً: ((التّبري عن كل ما دون الله تعالى))[4].وقيل أيضاً: ((تصفية العمل من كل شوب))[5].

وحث الله تعالى نبيه- ﷺ -على هذا الخلق العظيم، والثبات عليه في كل أحواله، وذلك في قول تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾[6]، فالإخلاص جوهر الأخلاق السلوكية والإيمانية ونقطة دائرتها؛ لأنه المميز لها، لما يترتب على الأخلاق الحسنة من المدح والثواب وعظم المنزلة في الآخرة، فما كان منها مراداً به وجه الله تعالى أثمر الثمرة النافعة، وما تجرد منها عنه أو شابه شيء غير الله تعالى، كان فاقد الأثر الحميد.

لذلك كان لا بد أن يتصدر هذا الخلق كل الأخلاق السلوكية الإيمانية، والفردية والاجتماعية لما يقصد به من تهذيب النفس وتزكيتها وتجردها عن الشوائب المكدرة لصفاء الأخلاق الإسلامية[7].

ويرى ابن الخطيب أن الوزير (أبا بكر بن الحكيم) متوازيًا في إخلاصه في السر والعلن، رافضاً للغدر، منصفًا لمن يصون وده، نافرًا لمن لا يخلص له حيث يقول:[8]

وَنِعْمَ خَلِيلُ الْخَيْرِ أَنْتَ مُحَافِظًا عَلَى سَنَنِ الْإِخْلَاصِ فِي السِّرِّ وَالْجَهْرِ

---

[1]- ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس،208/2.

[2]- ينظر: الصحاح في تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري، 1037/3، والقاموس المحيط، الفيروز آبادي، 301/2.

[3] - التعريفات، الجرجاني، ص13.

[4] - المفردات في غريب القرآن، الراغب الاصفهاني، ص 293.

[5] - مدارج السالكين، ابن القيم، 93/2.

[6]- سورة الزمر، الآية: 2.

[7] - ينظر: أخلاق النبي- ﷺ- في القران والسنة، أحمد الحداد،158/1.

[8] - ديوان ابن الخطيب،433/1.

ولقد أخلص ابن الخطيب النصح والإرشاد للأمير (أبي عبد الله) يوم عقد البيعة، ممتثلا لقول الرسول ﷺ: ((ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، و مناصحة أئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم، فإن الدعوة تحيط من ورائهم))[1]. ومن ذلك قوله:[2]

أَمَوْلَايَ هَذَا الْأَمْرُ جِدٌّ، وَإِنَّمَا يَلِيقُ بِهِ عَامَلَ الْجِدَّ بِالجِدِّ

وَدُونَكَهَا، مِنْ نَاصِحِ الْجَيْبِ مُخْلِصٍ، وَصِيَّةَ صِدْقٍ أَعْرَبَتْ لَكَ عَنْ وُدِّ

وقد جعل ابن الخطيب القلب مصدر للإخلاص ، فهو من دواعي كمال الأخلاق، ومن ذلك قول الرسول ﷺ: ((قد أفلح من خلص قلبه للإيمان، وجعل قلبه سليماً، ولسانه صادقاً، ونفسه مطمئنة، وخليقته مستقيمة، وجعل أذنه مستمعة، وعينه ناظرة))[3]، وهذا ما تأثر به ابن الخطيب في رثاء حاجب (أبي عنان). يقول:[4]

فَإِنْ شِئْتَ إِخْلَاصًا، فُؤَادُكَ خَالِصٌ وَيَا دُرَّةً، مَا حَازَهَا، قَطُّ، غَائِصُ

نَمتْكَ إِلَى الْمَجْدِ الْأَصِيلِ خَصَائِصٌ يُقَصِّرُ عَنْهَا نَجْلُ (زَيْدٍ) وَ (حَاجِبِ)

فيظهر إخلاص ابن الخطيب وحنينه إلى الأندلس، والرجوع إليها مستعينً ا بقوله تعالى: ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ﴾[5]. فيقول:[6]

وَشَهَادَةُ الْإِخْلَاصِ تُوجِبُ رَجْعَتِي لِنَعِيمِهَا، مِنْ غَيْرَ مَسِّ لُغُوبِ

وهكذا كان الإخلاص عند ابن الخطيب مرتبطاً بالحب ارتباطاً وشيجاً متوازياً بين رفض الغدر وصون الود حتى بعد الفراق والرحيل.

الوفاء

---

[1] – سنن الترمذي، 34/5.

[2] – ديوان ابن الخطيب،308/1.

[3] – مسند الإمام أحمد بن حنبل، 239/35.

[4] – ديوان ابن الخطيب،127/1.

[5] – سورة ق، من الآية: 38.

[6] – ديوان ابن الخطيب،131/1.

يعد الوفاء من مكارم الأخلاق، التي حرص الإسلام على التحلي بها، فهو صفة من صفات النفوس الشريفة، بل من أعظم الصفات الإنسانية، التي تدعم الثقة بين الأفراد، وتؤكد على أواصر التعاون في المجتمع.

فالوفاء في اللغة: إتمام العهد وإكمال الشرط، وَوَفَى أَوْفَى، فهو وَفِي. ويقولون: أَفَيْتُكَ الشَّيْء، إذا قضيته إياه وَافِيًا. وَتَوَفَّيْتَ الشَّيْء واسْتَوْفَيْتَهُ، إذا أخذته كله حتى لم تترك منه شيئاً [1]. وَفَى بعهده يَفِي وَفَاءً وَأَوْفَى إذا تمم العهد ولم ينقض حفظه، واشتقاق ضده وهو الغدر يدل عليه[2].

وفي الاصطلاح: ((هو ملازمة طريق المواساة، ومحافظة عهود الخلطاء))[3].

فالوفاء من الأخلاق الاجتماعية العظيمة، التي أولاها القر آن الكريم عناية فائقة لما له من عظيم الدلالة على تزكية النفوس، وصفاء الفِطر، وسلامة الإيمان ((فالوفاء يختص بالإنسان فمن فُقد فيه فقد انسلخ من الإنسانية، وقد جعل الله تعالى العهد من الإيمان وصيره قواماً لأمور الناس، فالناس مضطرون إلى التعاون ولا يتم تعاونهم إلا بمراعاة العهد والوفاء، ولو لا ذلك لتنافرت القلوب، وارتفع التعايش، ولذلك عظم الله أمره))[4] . قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾[5]. فالإسلام يدعو إلى شيمة الوفاء بالعهود، وقد أشار الله_ سبحانه وتعالى_ إلى ذلك في في كتابه الكريم في قوله تعالى:﴿ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[6].

وفضيلة الوفاء من الفضائل التي هيمنت على مشاعر ابن الخطيب وأحاسيسه ، في بعض مواضع شعره ، نهج الوفاء بالعهد، و الوفاء لدينه، و الوفاء لأهله، فنجده يرعى العهود ويقدس الوفاء، و بذلك أصبح الوفاء سجية من سجاياه، فيقول:[7]

أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ الْوَفَاءَ سَجِيَّتِي إِذَا شَحَطَتْ دَارِي، وَشَطَّ رِكَابِي

---

[1] – ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس،129/6.

[2] – ينظر: التعريفات، الجرجاني، ص 253.

[3] – التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص 339.

[4] – الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني، ص209.

[5] – سورة النحل، من الآية: 91.

[6] – سورة الأنعام، من الآية: 152.

[7] – ديوان ابن الخطيب،156/1.

ومن مظاهر الوفاء المعاملة بالمثل، وهذا ما ظهر في شعر ابن الخطيب: [1]

فَأَوْفِ لِمَنْ أَوْفَى وَكَافِ الَّذِي كَفَى فَأَنْتَ كَرِيمٌ طَهُرَتْ مِنْهُ أَعْرَاقُ

والوفاء عند ابن الخطيب غريزة إنسانية، لا يستوي فيها الوفي والغادر، وهذا ما يراه في وفاء أبي الحجاج وغدر الروم، في المكيدة البحرية التي دبرت له:[2]

وَفَيْتَ وَخَانُوا، وَالْوَفَاءُ غَرِيزَةٌ وَمَا يَسْتَوِي فِي الدَّهْرِ، وَافٍ وَغَادِرُ

ومنهم من كان وفيًّا وله قدوة يقتدي بها، ومن ذلك قول ابن الخطيب في رثاء شيخه (ابن الجياب):[3]

ثِقْ بِالْوَفَاءِ عَلَى الْمَدَى فِي فِتْيَةٍ بِكَ تَقْتَدِي فِي الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ

بل ذهب ابن الخطيب إلى أكثر من ذلك فيرى أن الوفاء صفة متوارثة في الإنسان، وهذا ما جاء في مدح أبناء (أبي الحسن المريني) في قوله:[4]

وَرِثَا عَنِ النَّدْبِ الْكَرِيمِ أَبِيهِمَا مَحْضَ الْوَفَاءِ، وَرِفْعَةَ الْمِقْدَارِ

ولما كان الوفاء قيمة تنبع من نفس الإنسان، من داخل القلب، فالقلب أفضل مكان لحفظ العهود، وهذا ما أكد عليه ابن الخطيب في قوله:[5]

وَأَنَّسَ قَلْبِي فَهْوَ لِلْعَهْدِ حَافِظٌ وَقَلَّ عَلَى الْأَيَّامِ مَنْ يَحْفَظُ الْعَهْدا

فالوفاء ورعي العهود لا يكون إلا في القلب، لئما في قول ابن الخطيب:[6]

رَعَى اللهُ قَلْبِي مَا أَتَمَّ وَفَاءَه إِذَا نَزَحَتْ دَارٌ، وَبَانَ خَلِيلُ
مُقِيمٌ عَلَى رَعْيِ الْعُهُودِ عَلَى النَّوَى كَفَى الْقَلْبَ ذَمًّا أَنْ يُقَالَ مَلُولُ

---

[1] – ديوان ابن الخطيب،700/2.
[2] – ديوان ابن الخطيب،391/1.
[3] – ديوان ابن الخطيب، 711/2.
[4] – ديوان ابن الخطيب، 419/1.
[5] – ديوان ابن الخطيب، 346/1.
[6] – ديوان ابن الخطيب،480/2.

ومن مظاهر الوفاء حفظ العهود والأسرار، وهذا ما جاء في قول ه:[1]

وَ كَلُوا بِحِفْظِ الْعَهْدِ أَيَّ مُرَاقِبٍ وَ اسْتَحْفَظُوا الْأَسْرَارَ غَيْرَ مُذِيعِ

وقد ظهرت خصلة الوفاء في محمد ابن أبي الحجاج في رعايته للعهود وصلته للأرحام، وهذا ما جاء على لسان الدين ابن الخطيب في رثاء الحجاج:[2]

خَلَّفْتَ أُمَّةَ (أَحْمَدٍ) (لِمُحَمَّدٍ) فَقَضَتْ بِسَعْدِ الْأُمَّةِ الْأَحْكَامُ

فَهُوَ الْخَلِيفَةُ لِلْوَرَى فِي عَهْدِهِ تَرْعَى الْعُهُودُ، وَتُوصَلُ الْأَرْحَامُ

إن أعز ما خفقت له الجوارح بعد الله الوطن، فالوفاء للوطن لا يكفي فيه التغني بجماله، والزهو بمجده التليد ومرابعه الساحرة، فقد يكون مدعاة أسى ومرارة إذا افتقر الوطن في حاضره إلى ما كان يتمتع به في ماضيه من أمن واستقرار، ولقد الشاعر وفيا إلى وطنه وأهله حتى بعد خروجه منه، حيث يقول:[3]

دَارُ الْوَفَاءِ، وَمَوْطِنُ الْقَوْمِ الْأُلَى كَفَلُوا وَ بِالنَّصْرِ الْعَزِيزِ تَكَفَّلُوا

ولما كان إنجاز الوعد خلقًا كريمًا وضربًا من الصدق فإن إنجازه يوجد كلما وجد الصدق في الأقوال والأفعال، ومن ذلك قول ابن الخطيب لأبي الحجاج يستنجزه وعداً:[4]

وَأَنْجِزْ جَمِيلَ الْوَعْدِ وَاعْلَمْ بِأَنَّهُ تُلَازِمُ أَقْوَالَ الْكَرِيمِ فِعَالُهُ

وكثيراً ما استحث الشعراء من واعدوهم على إنجاز وعودهم، وقد صور لنا ابن الخطيب ذلك بأسلوب بليغ حين تكررت مطالبته لأبي سالم المريني يستنجزه وعدًا:[5]

وَوَعَدْتَنِي وَتَكَرَّرَ الْوَعْدُ الَّذِي أَبَتِ الْمَكَارِمُ أَنْ يَكُونَ أَفِيكَا

بِبَقَائِكَ الدُّنْيَا تُحَاطُ وَأَهْلُهَا فَاللهُ، جَلَّ جَلَالُهُ، يُبْقِيكَا

---

[1] – ديوان ابن الخطيب، 653/2.

[2] – ديوان ابن الخطيب،558/2.

[3] – ديوان ابن الخطيب، 498/2.

[4] – ديوان ابن الخطيب، 516/2.

[5] – ديوان ابن الخطيب، 475/2.

وفي حفظ العهود وإنجاز الوعد، يقول ابن الخطيب في مدح الوزير (أبي يحيى ابن الكاس):[1]

(أَبُو يَحْيَى) وَحَسْبُكَ مِنْ حَيِيٍّ وَفِيٍّ بِالْعُهُودِ عَلَى التَّمَامِ

ومما سبق تبين أن فضيلة الوفاء هيمنت على قلب ابن الخطيب، فأصبح الوفاء غريزة إنسانية عنده، كما يراها صفة متوارثة، فهي صفة تنبع من القلب، وهذا ما تجده في شعره.

العفاف:

العفاف خلق رفيع، وانتصار عن النفس، والشهوات، وتقوية لها على التمسك بمكارم الأخلاق، وغرسها داخل المجتمع.

فالعفاف في اللغة : العين والفاء أصلان صحيحان، أحدهما الكف عن القبيح، والآخر دالٌّ على قلة الشيء [2]، وعَفَّ عن الحرام يَعُفُّ وَعَفَا وَعَفَافَةٌ أي: كَفَّ، فهو عَفّ وَعَفِيفَ والمرأة عَفَّةٌ وَعَفِيفَةٌ وأَعَفّهُ الله، واسْتَعَفَّ عن المسألة أي: عَفَّ، ويَعُفُّ: تكلف الْعِفَّة [3]. ويقال عَفَّ اللبن في الضّرع: إذا بقي فيه[4].

أما اصطلاحاً: ((فهو هيئة للقوة الشهوانية متوسطة بين الفجور، الذي هو إفراط هذه القوة، والخمود الذي هو تفريطها، فالعفيف من يباشر الأمور على وفق الشرع والمروءة))[5]، ((وهو ((وهو ضبط القلب عن التطلع للشهوات البدنية))[6]،((وتحصين النفس من الوقوع في الحرام))[7]، فهي ((حالة للنفس تمنع بها عن غلبة الشهوة))[8]. فمن ملك نفسه الشهوانية وقهرها، كان ضابطًا لنفسه عفيفًا في شهواته، محتشمًا من الفواحش، متوقيًّا من المحظورات، محمود الطريقة في جميع

---

[1] – ديوان ابن الخطيب، 565/2.

[2] – ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، 3/4.

[3] – ينظر: الصحاح، للجوهري،1405/4.

[4] – ينظر: تاج العروس، المرتضى الزبيدي،174/34.

[5] – التعريفات، الجرجاني، 151.

[6] – الذريعة لمكارم الشريعة، الراغب، ص224.

[7] – الكليات معجم في المصطلحات، للكفوي، ص55.

[8] – المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص573.

ما يتعلق بالذات [1]. فالعفاف إذاً هو: ((مجهود حماية النفس مما يغريها ويشدها إليه شداً عنيفًا))[2].فهو مظهر من مظاهر كمال الإيمان، ومبدأ من مبادئ الأخلاق الإسلامية، لذلك نجد أن القرآن الكريم قد تناوله في آيات كثيرة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ يَحْسِبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِۚ﴾[4]. وكما وكما جاء في حديث الرسول ﷺ ((اللهم إني أسالك الهدى والتقى والعفاف والغنى))[5]. فاقترن العفاف بالتقوى في حديث الرسول ﷺ، وهذا ما قاله ابن الخطيب في ممدوحه (أبي الحسن المريني) إذ جعل التقوى كساءه، والعفاف إزاره، فقال:[6]

مَلِكُ الْمُلُوكِ أَجَلُّ مَنْ كُسِيَ التُّقَى بُرْدًا، وَشُدَّ عَلَى الْعَفَافِ إِزَارُهُ

فحد العفة أن تغض بصرك، وجميع جوارحك عن الأشياء التي لا تحل لك، فما عدا ها فهو فسق وفساد، وما نقص حتى يمسك عما أحل الله – تعالى – فهو ضعف وعجز، فصون النفس دليل على عفافها وطهرها، ويظهر ذلك في قول ابن الخطيب لأبي الحجاج:[7]

حُجِبْتَ بِحُجْبِ الصَّوْنِ عَنْ كُلِّ نَاظِرٍ وَأُسْكِنْتُ لِلتَّرْحِيبِ، أَرْفَعَ نَادِي

وجمع ابن الخطيب شيم العفاف والإقدام والحزم في ممدوحه محمد بن موسى الملقب بالسبيع:[8]

وَمَنْ شَأْنُهُ، واللهُ يَرْفَعُ شَأْنَهُ (عَفَافٌ، وَإِقْدَامٌ وَحَزْمٌ وَنَائِلُ)

---

[1] – ينظر: تهذيب الأخلاق، يحي بن عدي، ص50.

[2] – مفاهيم القرآن في العقيدة والسلوك، د.محمد البهي، ص 259.

[3] – سورة النور، من الآية: 33.

[4] – سورة البقرة، من الآية: 273.

[5] – صحيح مسلم، 2087/4.

[6] – ديوان ابن الخطيب،442/1.

[7] – ديوان ابن الخطيب،342/1.

[8] – ديوان ابن الخطيب، 2/ 516.

وفي هذا البيت اقتباس من قول أبي العلاء المعري:[1]

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل عفاف وإقدام وحزم ونائل

تجد أن ابن الخطيب قرن العفاف بالتقوى لما له من مكانة عنده، كما جعل صون النفس دليل على عفتها وطهارتها ورفعة شأنها عنده

عزة النفس:

وهي شيمة أو خصلة جعلها الله في بعض النفوس العليّة وخصها بها، وهي أن يكون الإنسان عظيمًا في نفسه، مستشعرًا بقيمتها، عالمًا بمقدارها، يحمل بين جنبيه نفسًا أبية، نزاعة إلى المكارم، وثابة إلى معالي الأمور، لا تزعزعها العواطف الهوج [2]، فالعزة لله ولرسوله والمؤمنين، قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3]، فجعل الله تعالى عزة المؤمنين من عزة الله، وعزة الرسول ﷺ؛ بل جعل التساوي في الكرامة الآدمية شرطاً من شروط كلمة السواء[4].

فعزة النفس من القيم الإسلامية شأنها شأن سائر القيم الأخرى، وقد عبر عنها ابن الخطيب من ناحية إيمانية، ووازعٍ ديني، فنفس المؤمن ترفض الخضوع والإذعان ، ولا تقبل الخضوع إلا لله– تعالى– فيقول:[5]

لِيَ اللهُ مِنْ نَفْسٍ شَعَاعٍ وَمُهْجَةٍ إِذَا قُدِحَتْ لَمْ يَخْبُ مِنْ زَنْدِهَا سِقْطُ
وَنُقْطَةُ قَلْبٍ أَصْبَحَتْ مَنْشَأَ الْهَوَى وَنَفْسٌ لِغَيْرِ اللهِ مَا خَضَعَتْ قَطُّ

إن عزة النفس تتطلب يقظة دائمة، وهمة عالية ؛ لتبلغ ذروة الطموح، واسترجاع المجد الآفل، وإن الموت مُقْبِل حيث لا خلود في الحياة ، ولا حياة بدون عزة، وهذا ما عبر عنه ابن الخطيب في قوله بعد أن صح أن طاغية الروم عزم على نقض العهد والخروج على بلاد المسلمين، فهم قوم لا يأنفون الخضوع والإذعان:[6]

---

[1] – سقط الزند، أبو العلاء المعري، ص193.
[2] – ينظر: مجلة الأزهر، 1/مج45/16.
[3] – سورة المنافقون، من الآية: 8.
[4] – ينظر: مجلة الأزهر،1/مج 45/16.
[5] – ديوان ابن الخطيب،458/2.
[6] – ديوان ابن الخطيب،535/2.

عُرْبٌ صَمِيمٌ مِنْ ذُؤَابَةِ يَعْرُبٍ تَأْبَى الدِّنِيَّةَ أَوْ تَمُوتَ كِرَامَا

وظهرت عزة النفس عند ابن الخطيب بعلو همته، واحترام ذاته الإنسانية رغم ما وصل إليه من مكانة قريبة من السلطان، فيقول:[1]

وَمِنْ آيَتِي أَنِّي عَلَى حَالِ عِزَّتِي قَعَدْتُ بِبَابِ الْمُلْكِ مَقْعَدَ حَاجِبِ

ونرى أن عزة النفس عند ابن الخطيب تمثلت في احترام الذات الإنسانية، وذكر الهمة العالية، فنفس المؤمن ترفض الخضوع والإذعان، ولا تقبل الخضوع إلا إلى الله عز وجل.

المحبة:

المحبة في اللغة: (حب) الحاء والباء أصول ثلاثة، أحدهما اللزوم والثبات، والآخر الحبَّة من الشيء ذي الحبِّ والثالث وصف القصر [2]، وأحببت الشيء فهو محب، ويكون الاستحباب بمعنى الاستحسان[3]،وتحببت إليه: تودددت[4]،وهي مأخوذة من حبة القلب وهي سويداؤه، سويداؤه، وسميت المحبة بذلك لوصلها إلى حبة القلب[5].

وفي الاصطلاح: ((هي إرادة ما تراه أو تظنه خيراً))[6]،أو((ميل النفس إلى ما تراه وتظنه خيراً))[7].

وتؤخذ من لفظة (المحبة) مشتقات ومرادفات كثيرة كالحب،والصبابة، والشوق، والعشق، والكف، والشغف، وغيرها... ومعظمها قد جرى على ألسنة الشعراء في شعر التصوف والمدائح النبوية وما يتصل بها، وفي ذلك يخاطب الشعراء الرسول ﷺ بما يخاطب به الشاعر المحبوب من عبارات ومعان ومن ذلك قول ابن الخطيب[8]:

---

[1] – ديوان ابن الخطيب،115/1.

[2] – ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، 2/ 26

[3] – ينظر: المصباح المنير، للفيومي،117/1

[4] – ينظر: لسان العرب، لابن منظور،290/1

[5] – ينظر: الصحاح، للجوهري:105/1

[6] – المفردات في غريب القرآن، للراغب الاصفهاني، ص214

[7] – الذريعة إلى مكارم الشريعة، للراغب الاصفهاني،ص256

[8] – ديوان ابن الخطيب:717/2

نَعَمْ، لَوْلَاكَ مَا ذُكِرَ (الْعَقِيقُ) وَلَا جَابَتْ لَهُ الْفَلَوَاتِ نُوقُ

نَعَمْ أَسْعَى إِلَيْكَ عَلَى جُفُونِي تَدَانَي الْحَيُّ أَوْ بَعُدَ الطَّرِيقُ

إِذَا كَانَتْ تُحَثُّ لَكَ الْمَطَايَا فَمَاذَا يَفْعَلُ الصَّبُّ الْمَشُوقُ

فالمحبة في نظر ابن الخطيب رحلة شاقة كثيرة المخاطر والصعاب، قد تؤدي بالإنسان إلى غاياته فيقطف ثمارها، أو تقوده إلى غير ذلك مما لا يحمد عقباه، وما ينشأ عنه من صرعات[1]، ومن ذلك قوله[2]:

الْحُبُّ حَرَّكَهُمْ لِكُلِّ جِدَالِ وَالْحُبُّ أَقْحَمَهُمْ عَلَى الْأَهْوَالِ

وَالْحُبُّ قَاطَعَ بَيْنَهُمْ وَأَضَلَّهُمْ عَنْ نَيْلِ مَا رَامُوهُ كُلَّ ضَلَالِ

وَالْحُبُّ أَنْشَأَ فِيهِمُ عَصَبِيَّةً بِالقِيلِ، أَضْرَمَ نَارَهَا ، وَالْقَالِ

وفي نهاية هذا الفصل، نجد أنّ القيم والعادات الاجتماعية في حياة المجتمع الأندلسي ، لم تختلف عن قيم العصور التي كانت قبله؛ بل حافظوا عليها وطوروها، ويظهر ذلك واضحًا من خلال شعر لسان الدين بن الخطيب، الذي تناول فيه القيم الأخلاقية بملامحها وصورها المتلونة والمتنوعة.

الفصل الرابع: الخصائص الفنية

الألفاظ

[1] –القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن الهجري الظواهر والقضايا والأبنية، د. عبد الحميد الهرامة،462/1.

[2] – ديوان ابن الخطيب،512/2.

المعاني

الأساليب

الصورة الشعرية

التشبيه

الاستعارة

الكناية

المحسنات البديعية اللفظية

المحسنات البديعية المعنوية

أعجب الأندلسيون بشعر المشارقة سواء أكانوا جاهليين أم إسلاميين أم عباسيين أنهم تأثروا بالإسلاميين والعباسيين بشكل كبير، ولهذا تشابهت بعض خصائص الأندلسي والشعر المشرقي؛ لأن بعض الشعراء الأندلسيين كانوا من المقلدين، وخا

الشعر الأولى ولعلنا نلمس ذلك واضحًا في ألقاب الشعراء، حيث لقبوا ابن هانئ بـ (متنبي الأندلس)، وابن زيدون بـ (بحتري الأندلس)، وابن خفاجة بـ (صنوبري الأندلس)[1].

غير أن التقليد لم يكن ليطفئ على شخصيتهم ويمنعهم من التميز بميزات تخصهم لعدة عوامل منها البيئة الأندلسية، التي طبعت بطابع خاص وجعلته يرتبط بالواقع[2].

وأهم الخصائص أو العناصر الفنية ما يلي:

اللغة: وتتضمن.

أولا- الألفاظ والتراكيب.

لاشك أن الألفاظ والعبارات والتراكيب هي الناقل الحيوي لتجربة الشاعر الشعرية، فكل شاعر يحرص كل الحرص على اختيار ألفاظه وتعابيره، ويحمّلها ما يريد من الدلالات، وكل واحد منهم يختار ألفاظه وتراكيبه بصورة تميزه عن غيره من المبدعين ؛ لأن لكل شاعر أو حتى غير الشاعر أسلوبه الخاص به، الذي يميزه عن غيره من البشر[3].

وهي الوسيلة التي يعبر بها الأديب عما يجول في خاطره؛ ولهذا تجده دائمًا يحاول أن يوصل المعنى كاملا لذهن المتلقي، فهو يجد نفسه يخاطبه باللغة التي يستطيع أن يفهمها، و يختار لذلك ألفاظًا شائعة لدى السامع، ولعلك تلاحظ ذلك في الشعر البدوي إذ يستخدم ألفاظاً وحشية غريبة، وهو بهذه الألفاظ لا يريد أن يجهد المتلقي بإشغال ذهنه في معرفة تلك الألفاظ؛ لأن هذه الألفاظ هي المستخدمة في لغة البدو، فيخاطبهم بها ليوصل إليهم شعره دون قصور أو إبهام، في الوقت الذي تجد فيه الشاعر الحضري مفعم بالألفاظ السلسة السهلة؛ لأن الحضر لا يستعملون تلك الألفاظ الوحشية الغريبة، لهذا السبب فالشاعر الحضري يعبر بألفاظ بعيدة عن الغرابة والوحشية، حتى تناسب مشاعر الأديب وأحاسيسه تعبيرًا حقيقيًّا. فكل أديب يختار ألفاظًا

[1] – ينظر: الخصائص الفنية للشعر الأندلسي، عبد الرحمن جاسر الشلافي، ص 47.

[2] – ينظر: الحنين في شعر لسان الدين بن الخطيب، ص74.

[3] – ينظر: الحنين في الشعر الأندلسي (القرن السابع الهجري)، محمد أحمد دقالي، ص 435.

يعبر بها عن المعنى الذي يجول في خاطره، فيجمع به ذلك اللفظ بعيداً عما أراد، ولهذا يحاول في الغالب أن يكون حريصًا في تخير ألفاظه في التعبير على معانيه.

وللكلمة ميزات اكتسبها من حسن موقعها في الجملة، ومدى ارتباطها ببقية الألفاظ الأخرى فيها؛ لأن اللغة ليست ألفاظًا مفردة، بل ألفاظ متآلفة تكوّن مع بعضها نظامًا جميلًا لا تعطيه الكلمة المفردة.

أولى النقاد قديمًا وحديثًا اهتمامًا بالغًا بالألفاظ والتعابير، وحرصوا على أن تكون الألفاظ سهلة المخارج، فصيحةً خالية من الغرابة، دلالتها واضحة تفهم من خلال سماعها، فكان ذلك شرطًا في الألفاظ الشعرية ، فقد ذكر ذلك صاحب كتاب نقد الشعر إذ قال في شروط اللفظ أن يكون: ((سمحًا سهل مخارج الحروف من مواضعها، عليه رونق الفصاحة، مع الخلو من البشاعة))[1].

فالألفاظ يجب أن تؤدي دورها فيما يدور في خلد الشاعر وتعبر عن عاطفته ووجدانه تعبيرًا دقيقًا تامًا، وهذا ما قاله صاحب كتاب الشعر في عصر المرابطين والموحدين في اللفظة حين قال: ((يمكن أن تؤدي دورها في ترجمة جيشان من العواطف الوجدانية، والتعبير عنها بصورة دقيقة تامة، ويساندها بذلك ما تتمتع به، من أبعاد نفسية، وأطلال موحية، وهالة شفافة تشع عما تكنه من شحنات عاطفية، وما تحتمله من دلالات انفعالية تجتذب إليها الشاعر، فتصدق التعبير عن نفسه وتؤثر في سامعيه))[2].

وإذا نظرنا إلى الشعر الأندلسي نجد أن ألفاظ هسهلة عذبة واضحة لا غموض فيها، بعيدة عن الغريب والحوشي والتعقيد، تمتاز بالرقة والسهولة، لِمَا كان في الأندلس من حضارة وتمدن، ولقد وظف الشاعر الأندلسي الكثير من الألفاظ التي صرحت بالقيم الأخلاقية، ودلت عليها دلالة مباشرة، وانتقاها؛ لتكون معبرة عما في خاطره أدق تعبير، كلفظتي (مجير، ومغني) في قول ابن الخطيب يصف فروسية السلطان أبي الحجاج:[3]

---

[1] – نقد الشعر، قدامة بن جعفر، ص8.

[2] – الشعر في عصر المرابطين والموحدين، محمد السعيد، ص330.

[3] – ديوان ابن الخطيب،484/2.

مُجِيرُ مَنِ اسْتِعْداهُ قَبْلَ نِدَائِهِ وَمُغْنِي مَنِ اسْتَجْدَاهُ قَبْلَ سُؤَالِهِ

فعبر عن (الايجارة) قبل النداء و(الاستغناء) قبل السؤال، فمن صفات الفارس أنه يجير من استجاره قبل ندائه، ومغني من استجداه قبل سؤاله.

و كان للقر آن الكريم والحديث الشريف والبيئة والحضارة الإسلامية في شعر لسان الدين بن الخطيب أثره في تهذيب ألفاظه، وتوسيع دلالتها.

فكانت ألفاظه تعبر عن أركان الدين من ذلك: (الصلاة، والصوم) كما جاء في قوله:[1]

تَلَقَّيْتَ شَهْرَ الصَّوْمِ بِالْبِرِّ وَالتُّقَى تَوَدّ بِأَنْ لَا يَنْقَضِي ذَلِكَ الشَّهْرُ

وقوله جامعًا بين السجود والصلاة والتقى والذكر:[2]

تَوَلَّى شَهِيدًا سَاجِدًا فِي صَلَاتِهِ أَصِيلَ التُّقَى رَطْبَ اللِّسَانِ مِنَ الذِّكْرِ

كما وردت في شعره ألفاظ مركبة :(أمر الله، حفظ الله، اسم الله...) ومن ذلك قوله:[3]

صَدَعْتَ بِأَمْرِ اللهِ فِي جَنَبَاتِهَا فَأَلْبَسَكَ التَّقْوَى، وَقَلَّدَكَ الْعَهْدَا

وقوله في استخدام اللفظ المركب (حسبي الله) :[4]

جَلَّ مَا أَلْقَاهُ مِنْ فَرْطِ الْجَوَى حَسْبِي اللهُ، فَلَا رَبَّ سِوَاهُ

وقوله في (حفظ الله):[5]

وَغَدَا بِأَسْبَابِ الْعُلَى مُتَمَسِّكًا فِيهَا، فَحِفْظُ اللهِ لَيْسَ يَؤُودهُ

---

[1] – ديوان ابن الخطيب،402/1.

[2] – ديوان ابن الخطيب،399/1.

[3] – ديوان ابن الخطيب،357/1.

[4] – ديوان ابن الخطيب،743/2.

[5] – ديوان ابن الخطيب،291/1

واستخدامه لفظ (باسم الله) في قوله:[1]

أيَا رَاكِبَ الْبَحْرِ الْأُجَاجِ مُخَاطِرًا تَقَدَّمُ بِاسْمِ اللهِ مُرْسَاكَ والْمَجْرَا

فمن الملحوظ على النصوص السابقة أ ن بعض ألفاظ ها أخذت حيزًا في شعر القيم الأخلاقية، لما للإسلام من تأثير على مكارم الأخلاق، فقد بعث رسول ﷺ لإتمامها فكان صداه وأثره متسربًا في الفضائل منعكسًا على تعابير الشعر وألفاظه.

أمّا اللفظة من حيث الرقة والشفافية فكان للطبيعة الأندلسية مشاركتها وأثرها في الشعر؛ وذلك للين أخلاقهم ورقة نفوسهم، ومن ذلك :(زهر الرياض، هموم) في قول لسان الدين بن الخطيب:[2]

وَأَعَدْتَ سَكَّتَهُمْ كَأَنَّ وُجُوهَهَا زَهْرُ الرِّيَاض رَبَتْ بِصَوْبِ رَبَابِ

ومن الألفاظ التي تدل على الرفق واللين (هموم) فقال في ذلك:[3]

وَجَادَ بِهِ مِنْ جُودِ يُوسُفَ سَاجِمٌ مُلِثٌّ هَمُولٌ، دُونَ بَرْقٍ وَلَا رَعْدِ

ونجده استخدم في البيت نفسه لفظة غريبه وهي (ملت).

كما جاءت ألفاظ وأسماء لشخصيات تاريخية معروفة اتّصفت بهذه القيم الأخلاقية وجسدتها، فاتصف ربيعة بالشجاعة، والفضل الفضيل، والورع والتقوى مالك، وهذا ما جاء في قول ابن الخطيب:[4]

عِنْدَ الْهِيَاجِ (رَبِيعَةُ بْنُ مُكَدَّمٍ) فِي الْفَضْلِ والتَّقْوَى (الْفُضَيْلُ) و(مَالِك)[5]

---

[1] – ديوان ابن الخطيب، 434/1.

[2] – ديوان ابن الخطيب، 164/1.

[3] – ديوان ابن الخطيب،302/1.

[4] – ديوان ابن الخطيب،473/2.

[5] – تمَّ التعريف بهم في التقوى.

ومن الشخصيات التاريخية التي اتصفت بالحكمة لقمان وهرمس وفي الحلم أحنف والمنطق قس، ومن ذلك قوله:[1]

يُرِيكَ حِجَى (لُقَمَانَ) فِي حِلْمِ (أَحْنَفٍ) وَمَنْطِقِ (قُسٍّ) تَحْتَ حِكْمَةِ (هُرْمُسِ)[2]

كما وردت ألفاظ الحرب ومصطلحاتها في شعر القيم الأخلاقية عند لسان الدين بن الخطيب نتيجة للظروف التي ألمّت بهم، وعاشها سكان الأندلس دفاعًا عنها ، ومن هذه الألفاظ: ((الوغى، الجيش، العسكر، السيف، الرماح،...)) فاستخدم من ألفاظ الحرب الوغى، ومن ذلك قوله: [3]

مُثِيرُ رِيَاحِ الْعَزْمِ فِي حَوْمَةِ الْوَغَى وَمُخْتَطِفُ الْأَبْطَالِ يَوْمَ نِزَالِهِ

ومن الألفاظ التي تدل على الحرب الجيش والعسكر، كما في قوله:[4]

وَقُدْتَ إِلَيْهَا الْجَيْشَ والْعَسْكَرَ الَّذِي تَرَوَّى عَوَالِيهِ وَتُرْوَىَ صِحَاحُهُ

والسيف من الألفاظ التي عرفت في شعر ابن الخطيب، فهو من ألفاظ الحرب والشجاعة، كما جاء في قوله:[5]

فَمُلْكُك فِيهَا مَا أَجَلَّ جَلَالَهُ وَسَيْفُكَ مَا أَسْطَى، وَكَفُّكَ مَا أَنْدَى

وذكر الرماح في صورة مجازية معبرة عن شدة المعركة، كما في قوله:[6]

وَلَقَدْ تَشَاجَرَتِ الرِّمَاحُ فَكُنْتَ فِي مَيْدَانِ نَصْرِكَ فَارِسَ الْفُرْسَانِ

وثمة ألفاظ تنطوي على وقع نفسي عبرت عن علاقتها بالنفس، وما تمت إليها من ((الحزن، والبين، والشوق، والأسى،...))، كما جاء في قول ابن الخطيب:[1]

---

[1] – ديوان ابن الخطيب، 736/2.

[2] – تم التعريف بهم في الحلم

[3] – ديوان ابن الخطيب، 484/2.

[4] – ديوان ابن الخطيب، 220/1.

[5] – ديوان ابن الخطيب، 357/1.

[6] – ديوان ابن الخطيب، 607/2.

أُدَافِعُ مِنْ شَوْقِي، وَوَجْدِي كَتَائِبًا يُزَلْزَلُ (رَضْوَى) عِنْدَهَا و (ثَبِيرُ)

ومن الألفاظ التي لها علاقة بالنفس البين التي لها علاقة بالفراق، كما في قوله:[2]

وَلَقَدْ كُنْتُ صَبُورًا، إِنَّمَا صَدَعَ الْبَيْنُ فُؤَادِي وَكَوَاهُ

إضافةً إلى ذلك تظهر ألفاظ ما أملاه الدين والعرف والواجب كاحترام الجار، وإكرام الضيف، وهذا ما ورد في قول ابن الخطيب:[3]

مَلِكٌ عَزِيزُ الْجَارِ مَمْنُوعُ الْحِمَى مَمْنُوحُ مُنْهَلِّ النَّدَى مَبْذُولُهُ

ومن الألفاظ التي تدل على الشجاعة والكرم، قوله:[4]

يَا ابْنَ الْخَلَائِفِ، وَالَّذِينَ إِذَا احْتَبَوا أَبْصَرْتَ فِي النَّادِي هِضَابَ وَقَارِ
حَامِينَ يَوْمَهُمُ الذِّمَارَ، وَنَارُهُمْ، بِاللَّيْلِ، تَهْدِي فِي الظَّلَامِ السَّارِي

وقد استعان ابن الخطيب بتكرار الحروف الألفاظ والتراكيب؛ لتقرير المعنى وتثبيته عند السامع، وزيادة في موسيقا النص الشعري في مثل قوله: [5]

وَأَجِزِ الْمُسِيءَ إِذا أَسَاءَ بِفِعْلِهِ وَالْمُحْسِنَ الْحُسْنَى جَزَاءً يَعْدِلُ

واستفاد من التكرار في تأكيد المعنى السابق، ومن ذلك قوله:[6]

تَقِيٌّ حَذَا حَذْوَ الْخَلَائِفَ وَاقْتَدَى بِهِمِ مِثْلَ مَا خُ طَّ الْكِتَابُ عَلَى الرَّسْمِ

---

[1]- ديوان ابن الخطيب، 394/1.
[2] - ديوان ابن الخطيب،743/2.
[3] - ديوان ابن الخطيب،479/2.
[4] - ديوان ابن الخطيب،370/1.
[5] - ديوان ابن الخطيب،504/2.
[6] - ديوان ابن الخطيب،531/2.

هكذا صاغ لسان الدين بن الخطيب بألفاظه دررًا تمثل القيم الأخلاقية التي عاشها أهل الأندلس، فجاءت ألفاظه الشعرية منسجمة و متناسقة، معززة قوة التأثير في تربية الوعي الإنساني الخلقي الملموس في تطوره لذاته ولمحيطه.

ثانيا- المعاني:

لقد اهتم شعراء الأندلس بالمعاني اهتمامهم بالألفاظ، فقد اتسم شعرهم بوضوح المعنى، والابتعاد قدر الإمكان عن الغموض، ولسان الدين بن الخطيب واحد من الشعراء الّذين كان شعرهم واضح المعاني إذا ما استثنينا منه الشعر الصوفي الذي اعتراه بعض الغموض، وقد كانت أشعاره ذات تعابير سهلة وواضحة، واستخدم فيها ابن الخطيب الإشارة والرمز وهما يدلان على عمق معانيه، قال ابن رشيق القيرواني: ((والإشارة من غرائب الشعر وملحه، وبلاغة عجيبة، تدل على بعد المرمى، وفرط المقدرة، وليس يأتي بها الشاعر إلا الشاعر المبرز، والحاذق الماهر...))[1].

يستمد الشاعر روح معانيه من روافد كثيرة زودته بخبرات ذاتية ومعارف عامة، رددها المشارقة في شعرهم كالحديث عن الشجاعة والصبر، كما جاءت بعض المعاني لشحذ الهمم في الجهاد والفروسية واقتحام الأهوال؛ لإنقاذ البلاد من خطر الأعداء، وبعض منه مبتكر وجديد كوصف الأساطيل بالصقور وغيرها، ومنه قول ابن الخطيب:[2]

وَلَكَ الْجَوَارِي الْمُنْشآتُ سَوَابحًا فِي الْيَمِّ أَمْثَالِ الصُّقُورِ الْحُوَّمِ

فلكل ((زمان ما يليق به من البيان والناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم))[3]، ((ولا خير في المعاني إذا استكرهت قهرًا))،[4]. فأبتكر الشاعر بعض المعاني في رسم الصور التي تشع جوًّا من الحياة والحركة، بعد أن تناول معاني الحلم، وتوقي الغضب، وسفاهة الجهلاء، فيقول:[5]

---

[1] -العمدة، 302/1.

[2] - ديوان ابن الخطيب ،538/2.

[3] - المرقصات والمطربات، لابن سعيد، ص4.

[4] - الصناعتين أبو هلال العسكري،60.

[5] - ديوان ابن الخطيب،504/2.

وَإِذَا جَنَى جَانٍ تَبَيَّنَ جَهْلُهُ فَاحْلُمْ عَلَيْهِ، فَأَيْنَ مَنْ لَا يَجْهَلُ؟

وكانت معاني الشجاعة والفروسية حقيقة بارزة في أشعار الأندلسيين، لاسيما في شعر ابن الخطيب، ومنها رعاية الدخيل، فيقول:[1]

وَمِثْلُكَ مَنْ يَرْعَى الدَّخِيلَ وَمَنْ دَعَا بِيَا (لِمَرِينٍ) جَاءَهُ الْعِزُّ وَالنَّصْرُ

أمَّا الجهاد فكانت معانيه (جاهد) بالقول والعمل؛ لكون بيئة الشاعر كانت بيئة جهاد ومقارعة الأعداء، فدل معنى الجهاد على العزيمة ومضائها، وعلو الهمّة وتمامها، ومخاطرتها، واقتحامها للأهوال، ومن ذلك قوله:[2]

وَخَاطَرْتَ بِالنَّفْسِ النَّفِيسَةِ دُونَهَا وَهَلْ فَازَ بِالْأَخْطَارِ إِلَّا الْمُخَاطِرُ

أما الصبر فلمسنا من معانيه حبس النفس عمّا يقتضيه العقل والشرع، ومعنى الكتمان كحبس العبرات على المعاناة، فيقول:[3]

وَالصَّبْرُ أَوْلَى مَا اسْتَكَانَ لَهُ الْفَتَى رَغْمًا، وَحَقُّ الْعَبْدِ أَنْ يَتَأَدَّبَا
وَإِذَا اعْتَمَدْتَ اللهَ يَوْمًا مَفْزَعًا لَمْ تُلْفِ مِنْهُ، سِوَى إِلَيْهِ، الْمَهْرَبَا

ولقد امتزجت بعض القيم مع بعضها امتزاجًا لا يمكن فصلها عن بعضها ومنها التقوى والعفاف فدلّ ذلك على تبحر الشاعر ومقدرته الفنية في ائتلاف المعاني مع بعضها البعض، كقول لسان الدين بن الخطيب:[4]

مَلِكُ الْمُلُوكِ، أَجَلُّ مَنْ كُسِيَ التُّقَى بُرْدًا، وشَدَّ عَلَى الْعَفَافِ إِزَارَهُ

أماالثقافة اللغوية فتأثيرها واضح في شعر ابن الخطيب حيث تأثر شعره بـمعاني القرآن الكريم، ومعاني أحاديث الرسول ﷺ، وشعر الجاهليين والمشارقة، وكذلك الأمثال العربية والحكم،

---

[1] – ديوان ابن الخطيب،416/1.
[2] – ديوان ابن الخطيب، 390/1.
[3] – ديوان ابن الخطيب،108/1.
[4] – ديوان ابن الخطيب،442/1.

ولعل في ذلك دلالة على عمق العلاقة بين هـوبين الموروث اللغوي بأشكاله المتنوعة الدينية والأدبية وغيرها، مما يدل على ارتباطه الوثيق بدينه، وتمسكه بعروبته وأصالته، واعتزازه بما ترك له أسلافه من أثار أدبية أثرت فيه، وكل هذه الروافد ظهرت في شعرهومن أهما.

تأثير التراث في شعر القيم الأخلاقية:

القرآن الكريم:

هو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد أثر في الشعر اء العرب بصفة عامة، فاستقوا من معانيه، واقتبسوا من آياته الكريمة، وهذه الاقتباسات زادت المعاني قوة ورصانة؛ لأنه كلام ربِّ العالمين، وكما نعلم أنَّ للدين أهمية كبيرة وواسعة على أفراد المجتمع وتوجهاته، فهو ذو تأثير فعال في أخلاق الفرد وسلوكه، وله الأثر الواضح في توجيه الأفعال ومجريات الأمور لأفراد المجتمع، وسلطته التي لا تدانيها أية سلطة أخرى، خاصة في مجتمع غالبيته تدين بالإسلام، ألا وهو المجتمع الأندلسي.

إن الأ لفاظ القرآنية كانت نبعًا للشاعر الأندلسي حين يستعين بأفكاره وروافد معانيه؛ لإثراء مضامين شعره، وإبراز فاعلية أفكاره في سياقات النص، متوصلًا إلى ذلك من خلال توظيف الأساليب البلاغية وفنونها من اقتباس، وتضمين، أو تلميح، أو إشارة، إذا أحسن توظيفها في خدمة المعنى العام لل نص الشعري وتقويته؛ ولذلك يعد الاقتباس شكلًا من أشكال تعامل الشعراء مع التراث الديني، وأخذ الشعراء يتعاملون مع النصوص القرآنية على مستويات عدة فهناك الاقتباس الإشاري أو النصي.

والاقتباس عند البلاغين هو: ((تضمين النثر والشعر شيئًا من القرآن الكريم أو الحديث النبوي من غير دلالة على أنه منهما، ويجوز أن يغير في الأثر المقتبس قليلا))[1].

وهناك من يرى أن الاقتباس: ((يجب أن يكون دون شعور المقتبس، فإن شعر باقتباسه، فلا يكون اقتباسًا؛ بل استشهادًا))[2]، وفي الاقتباس تكون الصلة بين المعنى اللغوي والمعنى البلاغي

[1] – الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، للقزويني، ص426.

[2] – دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع، بسيوني فيود، ص68.

ظاهرة؛ ((لأن المقتبس لشيء منهما مستفيدًا بما اقتبسه))[1]. وقد ظهر فن الاقتباس من القرآن الكريم واضحًا في المدائح النبوية التي كانوا ينشدون.

وقد تأثر لسان الدين بن الخطيب كغيره من الشعراء الأندلسيين بألفاظ القرآن الكريم ومعانيه، وَقَوْلَبَ ألفاظه في شعره. حيث قال:[2]

وَإِذَا قِيلَ: أَرْضُ اللهِ إِرْثُ عِبَادِهِ بِمُوجِبِ تَقْوىَ، اللهِ أَنْتَ أَقْرَبُ عَاصِبِ

أراد ابن الخطيب أن يظهر لنا ما عليه ممدوحه من تقوى، فاستخدم في ذلك مصطلح التعصيب ليجعل الأرض إرث لممدوحه لما اتصف به من تقوى وصلاح[3]؛ مقتبسًا ذلك من قوله تعال﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[4]،ومنها قوله:[5]

لِلهِ (يُوسُفُ) مِنْ إِمَامِ هِدَايَةٍ مَلِكٍ غَدَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامَا

فقد أخذ قوله (للمتقين إماما) من قول المولى جلّ وعلا: ﴿لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾[6].

وقوله في قيمة التقوى:[7]

سِيمَاهُمُ التَّقْوَى أَشِدَّاءٌ عَلِى الْـ كُفَّارِ فِيمَا بَيْنَهُمْ رُحَمَاءُ

أراد لسان الدين بن الخطيب أن يظهر سمات التقوى في قومه من (آل نصر)، من خلال اقتباسه معنى قوله تعالى: ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾[8].

---

[1] – البديع من المعنى والألفاظ، عبد العظيم المطعني، ص165.

[2] – ديوان ابن الخطيب،114/1.

[3] – المدحة في شعر لسان الدين بن الخطيب الغرناطي، سعيد بن مسفر بن سعيد العاصي المالكي، (رسالة ماجستير)، ص25.

[4] – سورة الأعراف، من الآية: 128.

[5] – ديوان ابن الخطيب،534/2.

[6] – سورة الفرقان، من الآية: 74.

[7] – ديوان ابن الخطيب،95/1.

[8] سورة الفتح، الآية: 29.

وقوله في قيمة الشجاعة:[1]

لَوْ أَنَّ بَأْسَكَ، وَالْجُمُوعُ زَوَاحِفٌ، فِي مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ غِيضَ الْمَاءُ

فقد أخذ المعنى من قوله تعالى: ﴿ وَغِيضَ ٱلْمَآءُ ﴾[2]. فأرد ابن الخطيب توظيف هذا المعني ليبين شدة بأس ممدوحه يوم التقائه الجموع، واختفائها من أمامه أنّ الأرض ابتلعتهم كما تبتلع الأرض الماء.

وقوله في اقتحام الأهوال:[3]

أَيَا رَاكِبَ الْبَحْرِ الْأُجَاجِ مُخَاطِرًا تَقَدَّمْ بِاسْمِ اللهِ مُرْسَاكَ وَالْمَجْرَا

واقبس ابن الخطيب قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرَىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾[4]، في قوله (باسم الله مرساك والمجرا) فهي محور عن الآية الأنفة.

وقوله في العفو والعرف:[5]

خُذْ الْعَفْوَ، وَابْذُلْ فِيهِمُ الْعُرْفَ وَلْتَسَعْ جَزِيرَةَ مَنْ أَبْدَى لَكَ الْغَدْرَ أَخْلَاقُ

نجد أن ابن الخطيب قد اقتبس من قول الله ﷻ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[6]، في قوله(خذ العفو، وابذل فيهم العرف).

ودعا ابن الخطيب إلى التواضع في السير بقوله:[7]

وَسِرْ فِي مَرَاحِ اللهِ مُقْتَصِرَ الْخُطَى وَكُنْ لِنَوَالِ اللهِ مُنْبَسِطَ الْيَدِ

---

[1] – ديوان ابن الخطيب،94/1.

[2] – سورة هود، من الآية: 44.

[3] – ديوان ابن الخطيب،434/1.

[4] – سورة هود، من الآية: 41.

[5] – ديوان ابن الخطيب،699/2.

[6] – سورة الأعراف، الآية: 199.

[7] – ديوان ابن الخطيب،311/1.

فقد اقتبس من قول المولى تبارك وتعالى: ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾[1]،في قوله (وسر في مراح الله مقتصر الخطى).

وقوله في الجمع بين القبض والبسط والاعتدال في الأمور:[2]

وَتَجْمَعُ بَيْنَ الْقَبْضِ وَالْبَسْطِ كَفُّهُ بِحِكْمَةِ مَنْ فِي كَفِّهِ الْقَبْضُ وَالْبَسْطُ

ففي نصه السابق اقتبس من قوله تعالى ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً ﴾[3]، في قوله: (وتجمع بين القبض والبسط كفه).

وقوله في الإخلاص:[4]

وَشَهَادَةُ الإِخْلَاصِ تُوجِبُ رَجْعَتِي لِنَعِيمِهَا، مِنْ غَيْرَ مَسِّ لُغُوبِ

فاقتبس ابن الخطيب من قول الله تعالى: ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾[5]، في قوله: (من غير مسِّ لغوب).

الحديث الشريف:

أمّا تأثره بالحديث الشريف فلا عجب أن يوظف لسان الدين بن الخطيب أقوال النبي_ ﷺ _ في شعره؛ لأنه أصدق وأفصح من نطق بالضاد، وهو ذروة البلاغة_ ﷺ_ ومن ذلك قوله:[6]

وَالْمُسْتَمِدُّ لِمَا يُؤَمِّلُ ظَافِرٌ وَكَفَاكَ شَاهِدُ (قَيِّدُوا وَتَوَكَّلُوا)

---

[1] – سورة لقمان، من الآية: 19.

[2] – ديوان ابن الخطيب،458/2.

[3] – سورة الإسراء، الآية: 29.

[4] – ديوان ابن الخطيب،131/1.

[5] – سورة ق، من الآية،38.

[6] – ديوان ابن الخطيب،495/2.

فلقد استقاه من قوله ﷺ ((اعقلها وتوكل))[1]، في قوله: ((قيدوا وتوكلوا))

تضمين الشعر:

لقد عرف شعراء بني الأحمر التضمين كغيرهم من شعراء الأندلس وشعراء المشرق، ويرجع هذا إلى عامل التأثر والتأثير بين الشعراء أنفسهم، وعلاوة على هذا فقد لجأ إليه بعضهم من باب الإعجاب بكبار الشعراء أمثال المتنبي وأبي تمام، وغيرهم من كبار الشعراء المشارقة والأندلس.

والتضمين: ((هو أن يضمن الشعر شيئاً من شعر الغير مع التنبيه عليه إن لم يكن مشهورًا عند البلغاء))[2] ، وأحسن وجوه التضمين ما دخلته التورية، والتشبيه وباقي الصور البيانية[3].

ولقد جاء التضمين واضحاً في أشعارهم، وربما يكون المتنبي من الشعراء الذين أثروا في أشعار الأندلسيين ، لما له من عبقرية أعجب بها كثير من الشعراء كأمثال ابن الخطيب وغيره، والملاحظ في تضمينهم ذكر البيت صريحاً دون تغيير عليه، لكنه وإن حدث فهو طفيف ويبقى محتفظاً بإيقاعه الموسيقي الثابت، ومن ذلك ما جاء في قول ابن الخطيب:[4]

الطَّاعِمُ الْكَاسِي وَرِفْدُكَ كَافِلُ وَالْعَالَةُ الْمُعْفَاةُ مِمَّا يَثْقُلُ

ففي هذا البيت تضمين جزئي، وقلبه من الهجاء إلى المدح لقول الحطيئة:[5]

دع عنك المكارم لا ترحل لبغيتها وأقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

وقوله في تضمين شعر غيره في صفة العفاف والإقدام والحزم:[6]

---

[1] – سنن الترمذي،249/4.

[2] – الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني، ص430.

[3] – ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني، ص432.

[4] – ديوان ابن الخطيب، 4395/2.

[5] – ديوان الحطيئة، ص108.

[6] – ديوان ابن الخطيب، 516/2.

وَمَنْ شَأْنُهُ، وَاللهُ يَرْفَعُ شَأْنُهُ (عَفَافٌ، وَإِقْدَامٌ وَحَزْمٌ وَنَائِلُ)

وهو تضمين قول أبي العلاء المعري:[1]

ألا في سبيل الله ما أنا فاعل عفاف وإقدام وحزم ونائل

تضمين المثل العربي:

يعد المثل العربي من النصوص التي لهج بها الشعراء والأدباء، وكانت موضع استشهادهم بها في مؤلفاتهم الأدبية والعلمية.

فجاء في قول ابن الخطيب مستشهدًا ب المثل العربي: ((قد حيل بين العير والنزوان))[2]، وهو مثل في منع الرجل مراده ومؤكدًا لما يرمي إليه من معنى:[3]

فَاضْرِبْ بِجَيْشِكَ مَا وَرَاءَ ثُغُورِهِمْ ((قَدْ حِيلَ بَيْنَ الْعَيْرِ وَالنَّزَوَانِ))

وضمن للمثل العربي: ((بلغ السيل الزبى))[4]، وهو مثل يضرب لما جاوز الحد، أي الأمر الأمر إذا بلغ غايته والهول أدرك نهايته:[5]

وَإِذْ بَلَغَ الْمَاءُ الزُّبَى فَتَدَارَكُوا فَقَدْ بَسَطَ الدِّينُ الْحَنِيفُ لَكُمْ كَفَّا

وظَّفَ المثل ((هذا أوان الشد فاشتدي زيم))[6]، وهو مثل يضرب للرجل بالجد في أمره ، فقال:[7]

وَقُلْتَ لِنَفْسِ الْعَزْمِ هُبِّي وَشَمِّرِي ((وَهَذَا أَوَانُ الشَّدِّ فِي اللهِ فَاشْتَدِّي))

---

[1] – سقط الزند، أبو العلاء المعري، ص193

[2] – مجمع الأمثال، للميداني،96/2.

[3] – ديوان ابن الخطيب،578/2.

[4] – مجمع الأمثال، للميداني،91/1.

[5] – ديوان ابن الخطيب، 677/2.

[6] – مجمع الأمثال، للميداني،391/2.

[7] – ديوان ابن الخطيب،304/1.

وبهذا التضمين تزداد معاني القيم في شعر ابن الخطيب قوةً بلاغة.

ثالثا- الأسلوب:

عند دراسة الأسلوب لأي أديب، فإننا أول ما نفعله هو دراسة ما في النص من خبر وإنشاء، ثم نبحث عما فيه من قصر وإيجاز وإطناب، وخروج الغرض الأصلي وتقديم وتأخير...، فهذه تكاد الجوانب التي يدرس من خلالها أسلوب أي أديب.

وقبل دراسة الأسلوب يجدر بنا معرفة مفهومه، فجاء تعريفه عند الجاحظ في قوله :((فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل، جعل الفصاحة واللكنة والخطأ والصواب والإغلاق والإبانة والملحون والمعرب والصواب كله سواء، وكله بيانًا، وكيف يكون ذلك بيانًا))[1]. فالرسالة التي تربط القائل بالمتلقي يجب أن تكون واضحة البيان مبتعدة عن الغموض كشرط

[1] - البيان والتبيين،162/1.

للتواصل، ويؤكد على ذلك القول: ((إن كنت ذا بيان أحسست من نفسك بالنفوذ في الخطابة والبلاغة وبقوة المنة يوم الحفل فلا تقصر في التماس أعلاها صورة))[1].

فللجاحظ يحبب اختيار اللفظ المناسب البين لما فيه من تميز وانفراد ، وحسن تركيب ؛ لما ينجر عنه من حسن صورة ، لأنه ((لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك))[2].

فاختيار البيان والتوصل إلى مطابقته الدال مع المفهوم، أو تجسيد المعنى المراد إيصاله مع اللفظ المتخير له من خلال قدرة المتكلم على بعث المفردات الموجودة بمخزونه الفكري لتأثيره في المتلقي.

وقيل عن الأسلوب: ((إنما يعرف فضل القرآن من كَثُرَ نظره، واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب وأفنانها في الأساليب، وما خص الله به من لغتنا دون جميع اللغات ، فإنه ليس في الأمم أمة أوتيت من العارضة والبيان واتساع المجال ما أوتيته العرب)) [3]، ويقول ابن قتيبة عندما تطرق إلى أنواع الخطب وطرق تأديتها : فالخطيب من العرب إذا ارتجل كلامًا في نكاح، أو حماله، أو تخصيص، أو صلح ، لم يأت به من واد واحد ؛ بل يفتن فيختصر تارةً إذا أراد التخفيف، ويطيل تارةً إرادة الإفهام، ويكرر تارةً إرادة التوكيد، وتكون عنايته بالكلام على حسب الحال، وكثرة الحشد وجلالة المقام[4].

فتجده يربط بين الأسلوب والمقام والحال، ويوضح الطرق السليمة لأداء المعنى إلى المتلقي كل حسب فهمه وقيمته الفكرية واللغوية، ومن هنا، يمكننا القول: بأن الأسلوب عنده هو أساس صناعة الشعر يجمع بين الرؤيا التي يمتلكها الشاعر ، والاحتراف اللغوي ، والإيقاعي ، والجمالي، التي يتأمل المبدع من خلاله.

---

[1] – البيان والتبيين،200/1.

[2] – البيان والتبيين،115/1.

[3] – تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ص12.

[4] – ينظر: تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ص14.

ويقول صاحب كتاب العمدة: ((أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغاً واحداً، وسبك سبكاً واحداً، فهو يجري على اللسان كما يجري على الدهان، وإذا كان الكلام على هذا الأسلوب الذي ذكره الجاحظ لذّ سماعه وخفّ محتمله، وقرب فهمه، وعذب النطق به، ومجّته المسامع فلم يستقر فيها منه شيء))[1].

فالأسلوب إذاً: هو جمع الألفاظ والتراكيب والمعاني العامة، وهذا ما يصفونه بالجزالة في مثل قولهم: ((وشعر جزل الأسلوب فالجزالة هي القوة، وتوصف بها الألفاظ والمعاني معًا))[2]. وبذلك فهو تعبير الأديب عن نفسه بما يشتمل عليه من ألفاظ وتراكيب وصور في العادة تميزه عن غيره وتكون شخصية الأديب.

ولقد تنوع ت أساليب الأندلسيين في المائة الثامنة بتنوع ميولهم، واختلاف اتجاهاتهم، فكان منها: السهل الواضح، المباشر القريب المعاني، الذي تمثل في انتظام الحروف وتجانسها، فهو الأكثر شيوعًا في هذه الفترة فكان سمة هذا العصر الذي تميزت به طائفة من الشعراء، ومنها ما اتسم بغرابة اللغة وجزالتها، و صعوبة التراكيب و الرمز مع مراعاة خصوصية كل موضوع شعري[3].

ومن هنا يخلص إلى أن أسلوب الشعر الأجود يكون في القصيدة الجيدة التي تكون من مخاطب جيد، يورد قصيدته في هيئةٍ مفهومةٍ جميلة، ومتلاحمة الأجزاء بكلام سلس.

أمّا الأسلوب عند النقاد المحدثين فإنها منهج نقدي لساني يقوم على دراسة النص الأدبي دراسة لغوية؛ لاستخلاص أهم العناصر الأدبية المكونة للأدب، منطلقها الأساس الأدبي، فهي تنطلق منه لتصب فيه، وهي قراءة النص بالنص ذاته، وتتفرع الأسلوبية إلى فروع حسب توجيهات المدارس النقدية، فمنها الأسلوب التعبيري، والأسلوب الأدبي، والأسلوب الاجتماعي ، والأسلوب النفسي، وغيرها من الأس اليب التنظيرية، أمّا أبرز رواد الأسلوب الأدبي عربيًا فهو (عبد السلام المسدي) الذي له العديد من الدراسات والمباحث في هذا الميدان تنظيرًا وتطبيقًا،

[1] – ابن رشيق،257/1.

[2] – القصيدة الأندلسية، د. عبد الحميد الهرامة. 265/2.

[3] – ينظر: القصيدة الأندلسية، د. عبد الحميد الهرامة،277/2.

وكتابه التنظيري (الأسلوبية والأسلوب) يعد من مرجعيات الكتب في هذا الميدان الذي يقول فيه: ((إذا فحص الباحث ما تراكم من تراث التفكير الأسلوبي وشقه بمقطع عمودي يخرق طبقاته الزمنية اكتشف أنه يقوم على ركح ثلاثي دعائمه هي المخاطِب ، والمخاطَب، والخطاب، وليس من نظرية تحديد الأسلوب إلا اعتمدت أصوليًّا إحدى هذه الركائز الثلاث، أو ثلاثتها متعاضدةً متفاعلة)) [1]، ويقول في تحديد الأسلوب: ((وهكذا تتنزل نظرية تحديد الأسلوب منزله لوجه الإسقاط الكاشفة لمخبآت شخصية الإنسان، ما ظهر منها في الخطاب وما بطن، ما صرح به وما ضمن، فالأسلوب جسر إلى مقاصد صاحبه من حيث إنه قناة عبور إلى مقدمات شخصية لا الفنية فحسب، بل الوجودية مطلقًا))[2].

فنجد المسدي يؤكد أن بلاغة الأسلوب منطلقها هو النص الأدبي، وتطبيق الإجراءات تتم على الظواهر الأدبية، ويبقى المنهج المتبع الذي يختلفان فيه بسبب اختلاف الأسس المعرفية وبسبب أن الأسلوب هو بديل عن البلاغة بحكم التطور والاستقلال.

وعلى الرغم من هذا يرى بعض الباحثين : ((أن فروع مباحث البلاغة الثلاثة: المعاني ، والبيان ، والبديع على الرغم من اختلافها إلّا أن هناك رابطة تقوم بينها لتوحد ما تنافر من أغراضها، وتلك الرابطة تتمثل في أن الفروع الثلاثة تقع في دراسة الأساليب، فالمعاني يبدأ موضوعه بالتفريق بين أسلوبي الخبر والإنشاء، ثم التفريق بين أضرب الخبر وأضرب الإنشاء، ثم يدرس فيما بقي من موضوعات ظواهر الأسلوب كالفصل والوصل، والحذف، والإيجاز والإطناب...إلخ، والبيان يرى الاستعمال الحقيقي أسلوباً يختلف عن أسلوب الاستعمال المجازي، ويفرق بين أنواع المجاز باعتبارها أساليب، وكذلك يفرق بين كل ذلك وبين الكنايات بهذا الفهم ذاته. أما البديع فطرق التجنيس عنده من قبيل الأساليب أيضاً... وبهذا القول فإن البلاغة في مجموعها تدور حول الأساليب)) [3].

فالمناهج الأسلوبية على الرغم من تشعبها بالحياد تتسم الموضوعية والبعد عن الذاتية؛ مما يجعلها الأقرب إلى طبيعة العلم، والبحث الأسلوبي يعتمد في تحليله للنص الأدبي على اللغة

[1] – الأسلوبية والأسلوب نحو بديل ألسني في النقد الأدبي، عبد السلام المسدي، ص61.

[2] – الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية، د. فتح الله أحمد سليمان، ص13.

[3] – البلاغة والأسلوب مقدمات عامة، يوسف أبو العدس، ص177.

التي يتشكل منها النص، ويُغفل كل الجوانب الهامشية المتصلة به [1]. فهي تبحث في ظواهر النص بشكل تزامني تعاقبي، وتنفرد بتفسير الأسلوب علميًّا وواقعيًّا على الأفق الأوسع لظاهرة اللغة[2].

ويمكن القول أن الأسلوبية تتحدد في ثلاثة مجالات رئيسة:

المجال الأول- الأسلوبية النظرية:

وهي التي تسعى إلى التنظير الأدبي من منطلق اللغة المستخدمة في النص الأدبي، وتطمح إلى ((أن تصل يوماً إلى تفسير أدبية الخطاب الإبداعي بالاعتماد على مكوناته اللغوية، وهذا ما يجعل التعويل المطلق على اللسانيات بمختلف فروعها))[3]، فالأسلوبية النظرية تهدف إلى إرساء القواعد النظرية التي ينطلق منها الناقد الأسلوبي في تحليل النص.

المجال الثاني- الأسلوبية التطبيقية.

وغايتها تعرية النص الأدبي وإظهار خصائصه وسماته؛ من حيث إنه شكل فني يبغي المنشئ عن طريقة التأثير والإقناع، ومدخلها في التطبيق هو لغة الأثر الأدبي[4].

المجال الثالث- الأسلوبية المقارنة.

وتعتمد على المقارنة أساسًا، ولا تتجاوز حدود لغة واحدة، وهي تدرس أساليب الكلام في مستوى معين من مستويات اللغة الواحدة لتبين خصائصها المميزة عن طريق مقابلة بعضها بالبعض الآخر؛ لتقدير أدوارها المختلفة في بناء صورة الجمال في النص الأدبي[5].

أما الأسلوب في شعر القيم الأخلاقية الذي ضم مختلف الأصوات من شعراء العامة والخاصة والملوك والوزراء، فجاء شعرًا مثالًا للرزانة والوقار، ووسيلة للخير الأخلاقي فتباين

---

[1] – ينظر: الأسلوبية، احمد فتح الله، ص42

[2] – ينظر: البلاغة والأسلوب، يوسف أبو العدوس، ص171

[3] – الأسلوبية،فتح الله احمد سليمان، ص42.

[4] – الأسلوبية، فتح الله احمد سليمان، ص42.

[5] – الأسلوبية، فتح الله احمد سليمان ، ص43.

أسلوبهم، كما تباين أسلوب الشاعر الواحد بين القيم، فأسلوبه في الحلم والحياء والعفة غير أسلوبه في الشجاعة والجهاد، فهو يسلس في الأولى ويضخم ويفخم في الأخرى، ولما كانت وظيفة الأسلوب الإقناع تلميحًا دون الخوض في التفاصيل مثّل سجاياهم وطباعهم في الصحة، والوضوح، والدقة، وبلاغة فطرية بعيدا عن الصنعة والتكلف، فالشاعر لم يضلل سامعيه باستعمال كلمات مشتركة بين معان كثيرة ولم يأت في تعبيره حشو فأسلوبه قوي رصين كل ما فيه ضروري ولازم بأساليب سهلة معان قريبة[1].

وبعد هذه الإلماحة لمفهوم الأسلوب نصل إلى عرض بعض أساليب التعبير عن شعر القيم الأخلاقية في شعر لسان الدين بن الخطيب.

أسلوب الخبر والإنشاء: كل النصوص الأدبية سواء كانت شعرية أو نثرية نلاحظ أن أغلب أساليبها الموجودة أساليب خبرية؛ لأنها الأصل في الكلام، ولا نريد إيرادها هنا تجنبًا للإطالة وابتعادًا عن الحشو، أما الأساليب الإنشائية، فنجدها مبعثرة في النصوص سواء كانت نثرية أم شعريةً، ومتنوعةً حسبما تقتضيه الضرورة، وهكذا الأمر بالنسبة لشعر لسان الدين بن الخطيب.

فالخبر: هو كلام يحتمل الصدق والكذب لذاته [2]، فقال لذاته ؛ لأنه ينظر في احتمال الصدق والكذب إلى الكلام نفسه لا إلى قائله.

فجلّ الأعمال الأدبية من هذا النوع وهو: الخبر، ومن ذلك قول لسان الدين بن الخطيب:[3]

لَوْ سَارَ عَدْلُكَ فِي السِّنِينَ لَمَا اشْتَكتْ بَخْسًا، وَلَمْ يَكُ بَعْضُهُنَّ كَبِيسَا

ففي هذا القول نجد مجموعة من الأخبار ، حيث قال: (لو سار عدلك في السنين) وهذا أمر يحتمل أن يكون صدقًا أو كذبًا.

---

[1] – ينظر: القيم الخلقية في الشعر الأندلسي، سلمى سلمان على، ص309.

[2] – جواهر البلاغة، السيد أحمد الهاشمي، ص35.

[3] – ديوان ابن الخطيب،725/2.

أمّا الإنشاء: ((فهو كلام لا يحتمل صدقًا ولا كذبًا لذاته))[1]، وقد جاء على عدة صور في شعر ابن الخطيب في مبحثي هذا.

الأمر: وهو طلب حصول الفعل من المخاطب: على وجه الاستعلاء مع الإلزام [2]، وجاء الأمر في قول لسان الدين بن الخطيب بصيغة الدعاء لأنه يخاطب أعلى منه منزلةً وشأنًا [3]، فقال:[4]

أَفِضْ فِي الرَّعَايَا العدل تَحْظَ بِحُبِّهَا وَحَكِّمْ عَلَيْهَا فِي الْحَلِّ وَالْعَقْدِ

فأسلوب الأمر هنا هو إنشاء لا يحتمل كذبًا أو صدقًا، فجاء فعل الأمر (أفض) ولم يقل أحكم لأن التعبير بالإفضاء أبلغ من التحكيم؛ لأن الإفضاء ((هو انفساح الشيء و اتساعه))[5]؛ أي: اتسعْ في العدل بين الرعية حتى تحضى بحبها، ولو قال: احكم لكان معناها العدل في الحكم والقضاء فقط دون المعاملات الأخرى، لكنه تعمد أن يستخدم هذا الفعل لبلاغة تعبيره عما أراد أن يقول، وبهذا نجد أن المعنى الذي خرج إليه أسلوب الأمر هو النصح والإرشاد.

أسلوب النداء:

النداء: وهو طلب المتكلم إقبال المخاطب عليه بحرف نائب مناب أُنَادي المنقول من الخبر إلى الإنشاء، وأدواته ثمانية: الهمزة، وأي، ويا، وآ، وآيْ، وأيا، وهيا، ووا[6].

وجاء النداء في شعر ابن الخطيب بصيغة (يا أيها) لتنبيه المنادى بأمر عظيم يجدر به أن يكون على وعي به، فيقول: [7]

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمُرَجَّى وَالَّذِي شَهِدَتْ بِتَقْوَى رَبِّهِ أَخْبَارُهُ

---

[1] – جواهر البلاغة، السيد أحمد الهاشمي،ص52.
[2] – جواهر البلاغة، السيد أمد الهاشمي، ص53.
[3] – ينظر: علم المعاني، عبد العزيز عتيق، ص77.
[4] – ديوان ابن الخطيب،308/1.
[5] – معجم مقاييس اللغة ،ابن فارس، 4/ 508 .
[6] – جواهر البلاغة، السيد أحمد الهاشمي، ص77.
[7] – ديوان ابن الخطيب،373/1.

كما استخدم حرف النداء (يا) لعلو مرتبة المنادى، في مثل قوله (يا بن الخلائف)، فيقول:[1]

يَا ابْنَ الْخَلَائِفِ، وَالَّذِينَ إِذَا احْتَبَوْا أَبْصَرْتَ فِي النَّادِي هِضَابَ وَقَارِ

ويأتي حرف النداء للتنبيه ومن ذلك قول ابن الخطيب في (ياعابر الجيش الكثيف):[2]

يَا عَابِرَ الْجَيْشِ الْكَثِيفِ كَأَنَّهُ بَحْرٌ تَلَاطَمَ بِالْقَنَا زَخَّارُهُ

وها هو ابن الخطيب يبني قصيدة كامله على تكرار حرف النداء (ياء)، لجزر ساقطٍ أفرط في الكبر والتباهي فقال فيها:[3]

يَا طَلْعَةَ الشُّومِ الَّتِي مَهْمَا بَدَتْ يَئِسَتْ عُفَاةُ النُّجْحِ مِنْ أَسْبَابِهِ
يَا وَقْفَةَ النَّاعِي بِمَقْتَلِ وَاحِدٍ أَذْكَى عَلَى الْأَحْشَاءِ حَرَّ مُصَابِهِ
يَا مَنْ تَشْكَّى عَصْرُهُ مِنْ عَارِهِ يَا مَنْ تَبَرَّمَ دَهْرُهُ مِنْ عَابِهِ
يَا مَنْ يَغَضُّ بِهِ الزَّمَانُ نَدَامَةً مِنْ كَفِّه وَتَرَاهُ قَارِعَ نَابِهِ
يَا مَنْ تَجَمَّلَ بِالْحَرَامِ وَ إِنَّمَا قَدْرُ الْفَتَى مَا كَانَ تَحْتَ إِهَابِهِ

واستخدم لسان الدين بن الخطيب حرف النداء(أيا) للتذكير بمخاطر البحر، مبينًا شجاعة ممدوحه في قوله:[4]

أَيَا رَاكِبَ الْبَحْرِ الْأُجَاجِ مُخَاطِرًا تَقَدَّمْ بِاسْمِ اللهِ مُرْسَاكَ وَالْمَجْرَا

ونجد ابن الخطيب يلجأ أحيانًا إلى حذف حرف النداء وتكرار المنادى، وذلك للرفع من شأن المنادى وتعظيم منزلته كقوله:[5]

---

[1] – ديوان ابن الخطيب،370/1.
[2] – ديوان ابن الخطيب،442/1.
[3] – ديوان ابن الخطيب،137/1.
[4] – ديوان ابن الخطيب،434/1.
[5] – ديوان ابن الخطيب،442/1.

مَلِكُ الْمُلُوكِ، وَنُخْبَةُ النُّخَبِ الَّذِي عُرِفَتْ عَلَى طُولِ الْمَدَى أَنْوارُهُ

أسلوب الاستفهام:

الاستفهام هو طلب العلم بشيء لم يكن معلومًا لدى المتلقي من قبل ، وذلك بإحدى الأدوات الأتية، وهي: (الهمزة ، وهل، ومتى، وأيان، وكيف، وأين، وأنى، وكم)[1].

لقد استفاد ابن الخطيب من الطاقة التعبيرية التي يتيحها التساؤل الذي يخرج به إلى تحقيق معنى مدحي يأخذ شكل الحقيقة التي لا يدخلها شك أو ارتياب، فتصبح لذلك حقيقة متفقٌ عليها، ومن ذلك قوله:[2]

أَقْرَضْتُ فِيكَ اللهَ صِدْقَ مَحَبَّتِي أَيَكُونُ تَجْرِي فِيكَ غَيْرَ رَبِيحِ؟

فاستخدم الهمزة في الاستفهام التي تدل على التصديق في الجملة الفعلية في قوله (أيكون تجري فيك غير ربيح؟) لتكون الإجابة بلفظة نعم أولا.

كما أستخدم أسلوب الاستفهام في قوله:[3]

أَمَوْلَايَ، إِنَّ الشِّعْرَ دِيوَانُ حِكْمَةٍ يُفِيدُ الْغِنَى وَالْعِزَّ وَالْجَاهَ مُذْ كَانَا

و استخدمهللاستفهام في الجملة الاسمية يراد به التصديق، وذلك في (أمولاي، إن الشعر ديوان حكمة) لتكون الإجابة بلى.

وقوله أيضًا:[4]

فَقُلْ لِلْعِدَا ذَهَبَ ابْنُ الْخَطِيبِ وَفَاتَ وَمَنْ ذَا الَّذِي لَا يَفُوتْ؟

[1] – جواهر البلاغة، السيد أحمد الهاشمي،ص60.

[2] – ديوان ابن الخطيب،243/1.

[3] – ديوان ابن الخطيب،579/2.

[4] – ديوان ابن الخطيب، 185/1.

وفي قوله (من ذا الذي لا يفوت) إيماء بأن كل حيٍّ سيموت وإن طال عمره، فهو يستفهم بسؤال استخدم فيه اسم الاستفهام (من) الذي يستعمل للعاقل، وهو يقصد نفسه حين قال: (أَذَهِبٌ ابْنُ الْخَطِيبِ وَفَاتَ)؟.

أسلوب التمني:

التمني هو طلب الشيء المحبوب الذي يرجى حصوله، إما لكونه مستحيلا، أو كونه ممكنًا غير مطموع في نيله[1] .

والتمني من الأساليب التي عُرفت في الشعر العربي، فكثيراً ما يتمنى الإنسان سواء كان شاعرًا أو إنسانًا عاديًا أشياء قد تتحقق، وقد لا يمكن تحقيقها، والشاعر ليس كغيره فهو صاحب الحس المرهف والشعور الرقيق، فكم تمنى لكن كثيرًا ما تذهب أمنياته أدراج الرياح، كالشاعر الذي تمنى عودة الشباب ، ومن المستحيل أن يعود ما مضى، ولعل شاعرنا لسان الدين بن الخطيب واحد ممن تمنوا الأمنيات لكنها بقيت أمنيات، فها هو يقول:[2]

عَسَى اللهُ يُدْنِي سَاعَةَ الْفَرَجِ الَّتِي بِهَا يَتَسَرَّى عَنْ فُؤَادِي خَبَالُهُ

يتمنى ابن الخطيب من الله أن يدني ويقرب ساعة الفرج حتى يزول الهم الذي هو فيه، واستخدم أداة التمني (عسى) للأمر المحبوب مما يرجى حصوله فكان بذلك طلبه رجاء.

فهذا ما اشتملت عليه القيم الأخلاقية في شعر لسان الدين ابن الخطيب، من أساليب خبرية وإنشائية، على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر، تجنبًا للإطالة وابتعادًا عن الحشو.

[1] – جواهر البلاغة،السيد احمد الهاشمي، ص75.

[2] – ديوان ابن الخطيب،495/2.

رابعًا– الصورة الشعرية.

تعد الصورة الشعرية أبرز ملامح القصيدة العربية بصفة عامة، عرف ذلك القدماء كما عرفه المحدثون، وإن اختلفت مصطلحاتهم، وتطورت مفاهيمهم.

مفهومها :

لقد أدلى القدامى بدلائهم في الصورة الشعرية وبذلوا جهودًا في إيجاد تعريف لها، فالجاحظ في القرن الثالث الهجري يرى أنّ الشعر ((صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير))[1]، فهي أول خطوة نحو التحديد الدلالي لمصطلح الصورة، وتواصل تطور هذا المفهوم منذ ذلك الحين حتى وصل إلى القرن الثامن الهجري، حيث قد أصبحت هناك عناية بالتصوير

[1] – الحيوان، 132/3.

والمحاكاة في مثل قول حازم القرطاجني: ((واعتماد الصناعة الشعرية على تخييل الأشياء التي يعبر عنها بالأقاويل، وبإقامة صورها في الذهن بحسن المحاكاة))[1]، ومنه تسرب هذا المفهوم إلى أعلام القرن الثامن فانعكس ذلك في عنايتهم بالتخييل والمحاكاة [2]، فالشاعر الحاذق هو الذي يمزج تجربته الشعرية مع الخيال؛ ليتمكن في النهاية من الإحاطة بأبعاد صورته الكلية.

وفي مواجهة هذا التطور لمفهوم الصورة في النقد العربي، نجد من ينكر على النقاد العرب القدامى فهمهم للصورة الشعرية، ويعد علاجهم للاستعارة مسفًّا [3]، وهناك من يشكك في مفهوم الصورة المباشرة، والصورة الكلية، ويقول: ((فلم تعد الصورة البلاغية هي وحدها المقصودة بالمصطلح؛ بل قد تخلو الصورة– بالمعنى الجديد– من المجاز أصلًا، فتكون عبارات حقيقة الاستعمال، ومع ذلك فهي تشكل صورةً دالة على خيال خصب))[4]. فالمفهوم القديم قد قصر الصورة على التشبيه والاستعارة [5]، ((فالتشبيه شقيق الاستعارة، لأنهما يخدمان الصورة الشعرية سويًّا، فينبغي بذلك عدم فصل دراسة التشبيهات عن دراسة الاستعارات ؛ لأنهما معًا مظهران لنفس الأداة، ألا وهي الصورة))[6].

ولقد عرف النقاد والشعراء الصورة بمصطلح آخر ، وهو مصطلح: (الوصف).

فالوصف في اللغة: التحلية، والنعت [7]. والمعنى الأول يدل على ذكر المحاسن، والآخر مطلق وصف الشيء، ومن معانيه الأقرب للمعنى الاصطلاحي التصوير بالكلمات.

فالوصف إذًا هو: نقل ملامح شيء ما إلى الآخرين، ووسيلته في الأدب هو الألفاظ، وقد عرّفة ابن عاشور فيقول: ((المراد بالوصف معناه المصدري وهو التصوير والإيضاح ... فإصابة

---

[1] – منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص62.

[2] – القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن الهجري، د.عبدالحميد الهرامة، 2 /358.

[3] – ينظر: الصورة الأدبية، د. مصطفى ناصف، ص3.

[4] – الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، علي البطل، ص25.

[5] – الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، علي البطل، ص25

[6] – القصيدة الأندلسية، د. عبدالحميد الهرامة، 2/ 360.

[7] – تاج العروس،459/24.

الوصف هي أن يصور المتكلم ما أراد التعبير عنه من المعنى تصويراً مطابقاً لما عليه الشيء الموصوف))[1].

وبذلك يعد الوصف مساويًّا للصورة الشعرية المباشرة وغير المباشرة.

وأورد بعض النقاد الوصف من ضمن أغراض الشعر، ومن ذلك قول قدامة بن جعفر فيقول في ذلك: ((الوصف إنما هو ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات))[2] ، فقد جعل هذا التعريف مفهوم الوصف أكثر تفصيلًا وإدراكًا.

وعرفه أبو هلال العسكري بأنه: ((أن أجود الوصف ما يستوعب أكثر معاني الموصوف حتى كأنه يصوره))[3]، وبذلك يرى أنّ الوصف أداة للتصوير مع تركيزه على دقته.

أما ابن رشيق فيرى أن: ((الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف، ولا سبيل إلى حصره واستقصائه، وهو مناسب للتشبيه مشتمل عليه وليس به؛ لأنه كثيرًا ما يأتي في أضعافه))[4]، فعزز بذلك دلالة الوصف على أداة التصوير، ووضعه في مستوى التشبيه والاستعارة، وليس عرضًا مستقل الخصائص والشواهد.

أمّا الوصف في المصطلح الحديث فإنه: ((إعطاء صورة ذهنية عن مشهد أو شخص أو إحساس أو زمان))[5]، وبهذا فإننا لا نجد فرق كبير بين دلالة الوصف على التصوير.

أمّا مصطلح الصورة الشعرية فهو مصطلح حديث، ولكنه ورد عند النقاد القدامى أيضاً، فلقد جاء في كلام الجرجاني قوله: ((جعلوا كالمواضعة بينهم أن يقولوا اللفظ وهم يردون الصورة))[6]، وبهذا فقد أدرك النقاد أهمية الصورة، ولكنهم لم يتفقوا على وضع مصطلح محدد لها. أمّا مفهوم الصورة الشعرية في القرن الثامن والتي يكون ابن الخطيب أحد

---

[1] – شرح المقدمة الأدبية لشرح الإمام المرزوقي على ديوان الحماسة لأبي تمام، ، ص71.

[2] – نقد الشعر، ص41.

[3] – الصناعتين، ص128.

[4] – العمدة، 294/2.

[5] – معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة، وكامل المهندس، ص238.

[6] – دلائل الإعجاز،عبد القاهر الجرجاني، ص482.

أقطابها، فكانت ترتكز على التخييل في الصناعة الشعرية ، كما ذكرها حازم القرطاجي: ((فالمحاكاة التامة في الوصف هي استقصاء الأجزاء التي بموالاتها يكمل تخييل الشيء الموصوف))[1]، فالوصف لديهم أداة من أدوات التصوير؛ لتكتمل بذلك عناصر تكوين الصورة المباشرة وغير المباشرة.

أمّا مصطلح الصورة في العصر الحديث، فقد جاء بعدة تعريفات منها:

إنّ الصورة الشعرية : ((هي وسيلة الأديب في التعبير عن عالمه الخيالي بمختلف مصادر الواقعية والخيالية والعقلية))[2]، وهي إبداع ذهني صرف [3]،وهي هيئة تثيرها الكلمات الشعرية بالذهن شريطة أن تكون هذه الهيئة معبرة وموحية في آن[4].

وبهذا تتركز الصورة الشعرية على ثلاثة جوانب وهي: اللفظ، والخيال، ومادة الصورة المدركة بالحواس، فهي أقدر الرسائل على نقل الأفكار والمشاعر، لما تمثله من قيم إبداعية وذوقيه وتعبير متوحد مع التجربة المجسدة لها.

ومنهم من جعل الشعر محصورًا في الصورة الشعرية، ومن ذلك قول أبي القاسم بن جزي: ((وأمّا الشعر فهو ما يتضمن تشبيهًا، أو تمثيلًا، أو استعارة، أو تخييل أمرٍ في النفس))[5].

وابن الخطيب يرى أن الشعر الذي يبلغ عناية الرقي ينزع إلى التخييل والتشبيه والاستعارة، وهو ما يسمى سحرًا[6]، ومن ذلك قوله: ((ولما كان السحر قوة ظهرت للنفوس أفعالها، أفعالها، واحتلت بحسب الوارد أحوالها، فتراءى لها– في صورتها الحقيقية– خيالها، وتبدى– في الهيئة الواجب– محالها، وكان الشعر يملك مقلدتها، ويغلب عادتها، وينقل هيئتها، ويسهل بعد الاستصعاب خبيتها...))[7].

---

[1] – منهاج البلغاء، ص105.

[2] – القصيدة الأندلسية، د. عبد الحميد الهرامة،364/2.

[3] – ينظر: الرمز في الشعر العربي، الطاهر مُحَمَّد بن طاهر، ص38.

[4] – ينظر: الصورة الفنية في النقد الشعري، عبدالقادر الربّاعي، ص83.

[5] – تقريب الوصول إلى علم الأصول، ص149.

[6] – السحر والشعر، ابن الخطيب، ص8.

[7] – السحر والشعر، ابن الخطيب، ص6.

وهذا ما أشار إليه بوصف الشعر بالسحر فقال:[1]

وَمَا الشِّعْرُ إِلَّا مِنْ قَوَافٍ نَظَمْتُهَا وَمَا خَلَصَتْ إِبْرِيزَهُ شُعْلَةُ اللُّبِ

وقوله في موضع آخر:[2]

خَلِيلَّى إِنَّ الشِّعْرَ سِحْرٌ، وَإِنَّنِي إِذَا شِئْتُمَا تَحْقِيقَهُ، (بَابِلُ) السِّحْرِ

أنواع الصورة:

الصورة المباشرة:

لقد فرق النقاد بين الصورة المباشرة وغير المباشرة، فأما الصورة المباشرة فهي تكون بالوصف، وهو:((ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات))[3].

والصورة المباشرة هي التي تحكي الواقع لما يصفه الشاعر على حقيقته، ولا دخل للتصوير البياني الذي هو التشبيه والمجاز والكناية . وقد استخدمها لسان الدين بن الخطيب في

[1] – ديوان ابن الخطيب،118/1.

[2] – ديوان ابن الخطيب،377/1.

[3] – نقد الشعر، قدامة بن جعفر، ص41.

شعره حينما يصف آثار معركة امتزجت فيها مناظر الصرعى بالأسرى والمكبلين، دون أن يستخدم أدوات التصوير غير المباشر، فيقول في صفة الفروسية:[1]

فَبَيْنَ صَرِيعٍ، بِالْفَلَاةِ، مُجَ ن دّلٍ طَرِيحٍ، وَعَانٍ لَا يُرجَّى سَرَاحُهُ

وَمِنْ بَيْنِ مَكْلُومٍ بِحَدِّ سُيُوفِهَا تَسِيلُ عَلَى الْأَعْقَابِ مِنْهُ جِرَاحُهُ

واستخدم ابن الخطيب الصورة المباشرة، في وصف عدل أبي الحجاج في السر والعلن فقال :[2]

فَمَا زِلْتَ تَهْدِي، فِي الْبَرِّيةِ هَدْيَهُ وَتَقْضِي بِمَا يُرْضِيهِ سِرًّا وَإِعْلَانَا

الصورة غير المباشرة:

لا شك أن هذه الصورة من أهم عناصر الشعر، وأقربها إلى دراسة الأدب بشكل عام، والدراسة البيانية بشكل خاص، فاعتمد الشاعر علىها مستخدمًا من أنواعها التشبيه، والاستعارة، والكناية، باعتبارها الأركان الرئيسة في بناء الصورة الشعرية وتشكيلها البلاغي، وهي مجال اهتمام النقاد والشعراء قديمًا وحديثًا، وهذه الصور الثلاث أكثر ورودًا في الشعر بشكل عام، وعند ابن الخطيب خاصة، وسأعرض بعضًا منها في الصفحات الآتية.

التشبيه:

التشبيه لغة: ((التمثيل، وهو مصدر مشتق من الفعل (شبَّه)، يقال: شبهت هذا بهذا تشبيهاً، أي مثلته به))[3].

وأما في الاصطلاح: ((فهو صفة الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة أو جهات عدة، لا من جميع جهاته؛ لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه))[4].

---

[1] – ديوان ابن الخطيب،220/1.

[2] – ديوان ابن الخطيب، 2/ 580

[3] – لسان العرب، ابن منظور، 2189/4.

[4] – ينظر: العمدة، ابن رشيق،286/1.

وهو : ((عقد مماثلة بين أمرين، أو أكثر، قصد اشتراكهما في صفة، أو أكثر، بأداة لغرض يقصده المتكلم))[1].

ويعد التشبيه من أقدم صور البيان، وأقربها إلى الفهم والأذهان، والهدف منه ترسيخ المعنى في النفس عن طريق التعبير عن الشيء المحسوس، وقد أكثر العرب من استخدام التشبيه في كلامهم فقد قيل: ((التشبيه جار كثير في كلام العرب، حتى لو قال قائل: هو أكثر كلامهم لم يبعد))[2].

فالتشبيه يقوم على أربعة عناصر:

- المشبه : هو الأمر الذي يراد إلحاقه بغيره.
- المشبه به: هو الأمر الذي يلحق به المشبه.
- أداة التشبيه: هي اللفظ الذي يدل على التشبيه، ويربط المشبه به، وقد تذكر الأداة في التشبيه، وقد تحذف.
- وجه الشبه: هو الوصف المشترك بين الطرفين[3].

وابن الخطيب كغيره من الشعراء قد استخدم التشبيه في شعره، وقد أبدع في هـ بالتشبيه، ومن أمثلة ذلك قوله في صفة الشجاعة:[4]

تَتَضَاءَلُ الْأَعْدَاءُ فَوْضَى حَوْلَهُ كَاللَّيْثِ كَرَّ عَلَى قَطِيعِ شِيَاهِ

أما التشبيه في البيت فهو تشبيه تمثيلي، فقد مثل ابن الخطيب هيئة الأعداء وهم فوضى من شجاعة ممدوحه بقطيع الشياه.

وقوله في الصبر:[1]

---

[1] – ينظر: جواهر البلاغة، السيد أحمد الهاشمي، ص.205.

[2] – ينظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد، 70/3.

[3] – ينظر: جواهر البلاغة، السيد أحمد الهاشمي، ص205.

[4] – ديوان ابن الخطيب،747/2.

وَاصْبِرْ عَلَى مَضَضِ اللَّيَالِي إِنَّهَا كَحَوَامِلٍ سَتَلِدْنَ كُلَّ عَجِيبِ

وشبه ابن الخطيب الليالي بالحوامل التي ستلد كل الأمور القاسية والعجيبة، وهو تشبيه تمثيلي أيضاً.

وقوله في الجود:[2]

هُوَ السَّحْبُ جُودًا وَالْكَوَاكِبُ هِمَّةً وَبَدْرُ الدُّجَى وَجْهًا وَشَمْسُ الضُّحَى رَأْيًا

ففي هذا البيت شبه ممدوحه بعدة صور حيث شبهه بالسحب والكواكب والبدر وشمس الضحى، فكان المشبه (هو) ويقصد به ممدوحه، والمشبه به: السحب، ووجه الشبه: الجود، والكواكب، وجه الشبه فيها الهمة، وبدر الدجى، وجه الشبه فيها وجها أي: الضياء والبهاء، وشمس الضحى، وجه الشبه فيها رأياً أي: الوضوح، وهذا تشبيه بليغ لأنه حذفت منه الأداة.

وقوله في الكرم أيضًا:[3]

وَجْهُكَ فِي النَّائِبَاتِ بَدْرُ دُجىً لَنَا وَفِي الْمَحْلِ، كَفُّكَ الْمَطَرُ

فقد صور وجه ممدوحه كبدر الدجى، وجعل كفه كالمطر، وحذف أداة التشبيه ووجه الشبه، فالتشبيه في هذا البيت تشبيه بليغ.

وقوله في الحكمة:[4]

فَاحْذَرْ صَغِيرَ الْأَمْرِ ولْتَحْفِلْ بِهِ وَإِذَا غَفَلْتَ فَإِنَّهُ يُسْتَفْحَلُ
فَالنَّارُ أَوَّلُ مَا تَكُونُ شَرَارَةً وَالْغَيْثُ بَعْدَ رَذَاذِهِ يَسْتَرْسِلُ

---

[1] – ديوان ابن الخطيب،129/1.

[2] – ديوان ابن الخطيب،776/2.

[3] – ديوان ابن الخطيب، 404/1.

[4] – ديوان ابن الخطيب،503/2.

ففي هذا البيت لم يصرح ابن الخطيب بالتشبيه، بل لجأ إلى تضمينه وإخفائه، حيث شبه الأشياء الصغيرة التي تولد عظائم الأمور، فالنار أول ما تكون شرارة صغيرة، والسيل أول ما يكون رذاذ يسترسل حتى يصبح غيثاً يعم النجاد والوهاد.

وقوله في الفروسية:[1]

وَحَفَّتْ بِهِ الْأَعْدَاءُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ كَمَا حَفَّ بِالْخَصْرِ الْهَضِيمِ وِشَاحُهُ

ففي هذا البيت تشبيه ضمني، لم يصرح به بل لجاء إلى تضمينه فشبيه حصار الأعداء له كما يلف الوشاح على الخصر.

الاستعارة:

الاستعارة لغة: استعار: طلب العارية، واستعارة الشيء طلب منه أن يعيره إياه ... واستعارة ثوبا فأعاره إياه [2]. **وفي الاصطلاح:** ((هي مجاز لغوي علاقته المشابهة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي مع قرينةٍ مانعة عن إرادة المعنى الأصلي))[3]، وحذف أحد طرفي التشبيه لا يعني الاستغناء عنه، لكن القصد من ذلك تحفيز نفسية المتلقي لإدراكه المعنى دون

[1] – يوان ابن الخطيب،220/1.

[2] – ينظر: لسان العرب، ابن منظور، 3168/4

[3] – الجامع لفنون اللغة العربية والعروض، عرفان مطرجي، ص138.

التصريح به، وتكون أكثر تعقيداً من التشبيه. وهي أيضاً: ((استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى المنقول عنه والمعنى المستعمل فيه، مع قرينة صارفةٍ عن إرادة المعنى الأصلي))[1].

أما عناصر الاستعارة فهي: مستعار منه، ومستعار له، ومستعار. فالمستعار منه: هو معنى المشبه به. والمستعار له: هو معنى المشبه. والمستعار هو اللفظ[2].

أقسام الاستعارة:

الاستعارة التصريحيه، الاستعارة المكنية، الاستعارة التبعية، الاستعارة الاصلية، والاستعارة، باعتبار الملائم، الاستعارة التمثلية[3].

وقد استخدم لسان الدين بن الخطيب الاستعارة في شعره، ومن ذلك قوله:[4]

أَقْرَضْتُ فِيكَ اللهَ صِدْقَ مَحَبَّتِي أَيَكُونُ تَجْرِي فِيكَ غَيْرَ رَبِيحِ؟

حيث استعارة (التجر) لما قام به من أعمال توجب محبة الرسول ﷺ وكذلك استعار (الربح) لثواب وأجر الآخرة، فهي استعارة مكنية.

كما استخدم الاستعارة في صفة الصبر، فقال:[5]

رَكِبْتُ طَرِيقَ الصَّبْرِ وَهْيَ مَفَازَةٌ لِي اللهُ مِنْ غَوْلِ الطَّرِيقِ وَبُعْدِهِ

استعار الطريق وهي طريق الصبر، وقال إنها مفازة، والمعلوم أن الصبر شيء معنوي وليس له طريق حتى تكون مفازة يمكن ركوبها، فهي استعارة مكنية.

وقوله في صفة العفاف:[1]

---

[1] – جواهر البلاغة، السيد احمد الهاشمي،251.

[2] – جامع العبارات في تحقيق الاستعارات،192/1.

[3] – ينظر : جواهر البلاغة، السيد أحمد الهاشمي، ص253.

[4] – ديوان ابن الخطيب،243/1.

[5] – ديوان ابن الخطيب،286/2.

مَلِكُ الْمُلُوكِ أَجَلُّ مَنْ كُسِي التُّقَى بُرْدًا، وَشُدَّ عَلَى الْعَفَافِ إِزَارُهُ

لقد استعار ابن الخطيب اللباس وهو التقوى، والعفاف إزار، فالتقوى والعفاف شيء معنوي وليس لباس أو غيره، فالاستعارة مكنية.

واستخدم الاستعارة التصريحية في صفة الجهاد،فقال:[2]

وَأُسْدُ جِهَادٍ أَذْعَنَتْ لِسُيُوفِهِمْ جَلَالِقَةُ الثَّغْرِ الْغَرِيبِ وَرُومُهُ

ففي هذا البيت جعل شجاعة المسلمين كالأُسد في أرض المعركة قوله: (أُسد جهاد)، فصرح بلفظ المشبه به، فالاستعارة تصريحية.

الكناية:

الكناية لغة: هي مصدر كنيت أو كنوت بكذا، تركت التصريح، وكنى عن الأمر بغيره يكني كناية، والكناية مقابلة للمصارحة[3].

وفي الاصطلاح: ((هي لفظ أُريد لازم معناه مع قرينةٍ لا تمنع إرادة المعنى الأصل ي))[1]، وهي ((لفظ أريد به غير معناه الذي وضع له، مع جواز إرادة المعنى الأصلي؛ لعدم وجود قرينة مانعة من إرادته))[2].

---

[1] – ديوان ابن الخطيب،442/1.

[2] – ديوان ابن الخطيب،552/2.

[3] – يظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، 139/5

فالكناية مظهر من مظاهر البلاغة، وغاية لا يصل إليها إلا من لطف طبعه، وصفت قريحته، ومن أسبابها أنها تضع المعاني في صورة المحسوسات، وتجعل ما كنت تعجز في التعبير عنه واضحاً ملموساً[3].

وقد كنى ابن الخطيب في شعره بكنايات زادت المعنى وضوحاً وجمالاً، ومما قال في ذلك:[4]

فَإِذَا ظَلَامُ اللَّيْلِ مَدَّ جَنَاحَهُ كَحَّلُوا جُفُونَ عُيُونِهِمْ تَسْهِيدَا

ففي هذا البيت كناية عن صفة حيث كنى عن الظلمة في قوله: (فإذا ظلام الليل مد جناحه)، والحذر واليقظة والسهر في قوله:(كحلو جفون عيونهم تسهيدا).

وقوله في قيمة الجهاد[5]:

صُبُرًا عَلَى جَوْبِ الْفَيَافِي وَالسُّرَى لَا تَسْأَمُ الْأَسْرَاجَ وَالْإِلْجَامَا

جاءت الكناية في هذا البيت عن صفه، حيث كنى عن الصبر والجهاد في سبيل الله في قوله:(لا تسأم الإسراج والإلجاما) .

وقوله في الحث على الجهاد[6]:

تَخَذُوا الْسُّيُوفَ تَمَائِمًا لِوَلِيدِهِمْ وَالْحَرْبَ ظِئْرًا، والسُّرُوجَ مُهُودا

فالكناية في هذا البيت عن صفه، فكنى ابن الخطيب في على حال المسلمين، وهم متأهبين للحرب دائمًا، حيث جعل السيوف وكأنها تمائم تعلق للمواليد في قوله: (تخذوا السيوف تمائمًا لوليدهم)، والسروج وكأنها أسرّة ينامون عليها في قوله: (السروج مهودًا).

---

[1] – الجامع لفنون اللغة العربية والعروض، عرفان مطرجي ، ص165.

[2] – جواهر البلاغة، السيد احمد الهاشمي، ص271

[3] – ينظر: جواهر البلاغة، السيد احمد الهاشمي، ص277

[4] – ديوان ابن الخطيب،352/1.

[5] – ديوان ابن الخطيب،535/2.

[6] – ديوان ابن الخطيب ،352/1.

وقوله تقوى أبي الحجاج:[1]

يَا مَدْفَنَ التَّقْوَى، وَيَا مَثْوَى الْهُدَى مِنِّي عَلَيْكَ تَحِيَّةٌ وَسَلَامٌ

فالكنايةِ في هذا البيت عن موصوف، فقد كنى على أن أبا الحجاج هو منتهى التقوى ومنتهى الهدى، بقوله: (يا مدفن التقوى ويا مثوى الهدى).

وقوله مادحًا معلمه أبي الحسن الجياب:[2]

فَإِنْ شِئْتَ فِي بَحْرِ النَّدَى مِنْهُ فَاغْتَرِفْ وَإِنْ شِئْتَ فِي نَارِ الْهُدَى مِنْهُ فَاقْتَبِسِ

نجد الكناية في هذا البيت عن نسبه، حيث كنى ابن الخطيب عن مكارم أخلاق معلمه (أبي الحسن الجياب) بالبحر مهم اغترفت منه لا ينتهي والنار التي يهتدى بها.

وقوله في قيمة العدل:[3]

هِيَ دَوْلَةَ الْعَدْلِ الَّذِي شَمَلَ الْوَرَى فَالشَّاةُ لَا تَخْشَى اعْتِدَاء الذِّيبِ

ففي هذا البيت كناية صفه، فكنى عن العدل في قوله: (فالشاة لا تخشى اعتداء الذيب).

وقوله في الكرم:[4]

حَامِينَ يَوْمَهُمُ الذِّمَارَ، وَنَارُهُمْ، بِاللَّيْلِ، تَهْدِي فِي الظَّلَامِ السَّارِي

أما الكناية في هذا البيت عن صفه، فالنار بالليل كناية عن الكرم في هذا البيت في قوله: (ونارهم بالليل، تهدي بالظلام الساري).

---

[1] – ديوان ابن الخطيب،558/2.

[2] – ديوان ابن الخطيب،736/2.

[3] – ديوان ابن الخطيب،130/1.

[4] – ديوان ابن الخطيب ،370/1.

المحسنات البديعية:

1 المحسنات المعنوية:

الطباق:

من المحسنات المعنوية الطباق ونجده بارزًا في شعر ابن الخطيب، فقد أبدع فيه وفي غيره من المحسنات المعنوية، فقد كان يعمد إليها ولم تكن تأتي تلقائياً[1]، فيقول:[2]

خُذْهَا إِلَيْكَ عَلَى النَّوَى سِينِية تَرْضَى الطِّبَاقَ وَتَشْكُرُ التَّجْنِيسَا

[1] –ينظر: مقدمة ديوان ابن الخطيب،51/1.

[2] – ديوان ابن الخطيب،728/2.

فيصرح بالطباق والجناس في سينيته هذه، وسوف نحاول أن نعرض بعض ما ورد في شعره من طباق.

فللطباق: ((هو الجمع بين لفظين متقابلين في المعنى))[1]، وهو يزيد المعنى وضوحًا وقوةً مع ضده.

وقد أظهر ابن الخطيب براعة واضحةً في الوصول إلى ما يريد في أشعاره، فهو يعطي الفكرة واضحة مكتملة المعالم من خلال عبقريته النافذة، في الجمع بين الأضداد، ومن ذلك قوله في الحكمة:[2]

وَأَقْبَل وَصِيَّةَ مَنْ أَتَى لَكَ نَاصِحًا وَاشْكُرْهُ وَهْوَ الْكَاذِبُ الْمُتَحَيِّلُ

جاء الطباق في قوله:(النصح، التحيل)؛ ليوضح لممدوحه أخذ النصيحة حتى من الكاذب المتحيل وشكره عليها

ومنه قوله في قيمة العدل:[3]

فَمَازِلْتَ تَهْدِي، فِي الْبَرِّيةِ هَدْيَهُ وَتَقْضِي بِمَا يُرْضِيهِ سِرًّا وَإِعْلَانًا

فالطباق في كلمتي (سرًّا، وإعلانًا) أراد أن يقدم كلمة سرًّا ؛ ليبين لممدوحه بأن الله مطلع على السر والعلن.

وقوله في قيمة الكرم:[4]

مَعْشَرٌ يَجْعَلُ الضُّيُوفَ أَصْدِقَاء كَرَمًا، وَالْأَمْوَالَ بَ ع ضَ الْأَعَادِي

نجد الطباق لفظتي (أصدقاء، الأعادي)، أنهم معشر يجعلون الضيوف أصدقاء، والأموال تبغض الأعادي.

---

[1] – جواهر البلاغة، السيد أحمد الهاشمي،ص285.

[2] – ديوان ابن الخطيب،504/2.

[3] – ديوان ابن الخطيب،580/2.

[4] – ديوان ابن الخطيب،295/1.

وقوله في قيمة الصبر:[1]

وَالْيُسْرُ، بَعْدَ الْعُسْرِ مَوْعُودٌ بِهِ وَالصَّبْرُ بِالْفَرَجِ الْقَرِيبِ مُوَكَّلُ

نلتمس الطباق في لفظتي (اليسر، العسر)، أراد ابن الخطيب أن يبين لممدوحة أنه ليس بعد العسر إلا اليسر.

وقوله في العدل:[2]

وَأَلَّفْتَ بِالْعَدْلِ بَيْنَ الْقُلُوبِ وَفَرَّقْتَ بَيْنَ الظُّبَا وَالْغُمُودْ

فجاء الطباق في لفظتي (ألفت، فرقت)، فقد وفق في استعمال الطباق في هاتين اللفظتين، وقد قدم لفظة ألفت على فرقت لما للعدل من فضل في تألف القلوب.

المقابلة:

المقابلة: ((وهي أن يؤتى بمعنيين أو معانٍ متوافقةٍ، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب))[3]، كقوله تعالى: ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾[4].

فهي ترتيب الكلام على ما يجب، فيعطى أول الكلام ما يليق به آخراً، ويؤتي في الموافق بما يوافقه، وفي المخالف بما يخالفه، وأكثر ما تجيء المقابلة في الأضداد، فإذا جاوز الطباق ضدين كان مقابلة[5]، وهذا ما جاء في قول لسان الدين بن الخطيب:[6]

---

[1] – ديوان ابن الخطيب،495/2.

[2] – ديوان ابن الخطيب،263/1.

[3] – جواهر البلاغة، السيد احمد الهاشمي، 286.

[4] – سورة الأعراف، من الآية:157.

[5] – يظر: العمدة، ابن رشيق ،15/2.

[6] – ديوان ابن الخطيب،504/2.

وَأَجِزِ الْمُسِيءَ إِذَا أَسَاءَ بِفِعْلِهِ وَالْمُحْسِنَ الْحُسْنَى جَزَاءً يَعْدِلُ

حيث قابل ابن الخطيب (المسيء و المحسن)، و(الإساءة و الحسنى) حيث جاءت مقابلة اثنين باثنين.

وجاءت المقابلة في قوله أيضاً: [1]

وَمُوقِدُ نَارِ الْعَدْلِ فِي عَلَمِ الْهُدَى وَمُطْفِئُ نَارِ الْبَغْيِ بَعْدَ اشْتِعَالِهِ

ففي هذا البيت نجد المقابلة (موقد و مطفئ)، و(العدل والبغي)، فكانت مقابلة اثنين باثنين.

2 المحسنات اللفظية:

الجناس: وهو ((أن يورد المتكلم في الكلام القصير نحو البيت من الشعر، كلمتين تجانس كل واحدة منها صاحبتها في تألف الحروف))[2]، أو((تشابه اللفظتين في النطق تشابهًا تامًا أو جزئيًا واختلافهما في المعنى))[3]، ومن أهم أقسام الجناس:

الجناس التام: وهو ((ما اتّفق فيه اللفظان في أبعة أمور: نوع الحرف، وفي هيئتها ، أي: في حركاتها وسكناتها، وفي عددها))[4].كقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ

[1] – ديوان ابن الخطيب،484/2.

[2] – الصناعتين، أبو هلال العسكري، ص33.

[3] – فن البديع،عبد القادر حسين، ص109.

[4] – البلاغة العربية، راجي عبد الرحمن بن حسن،487/2.

غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾[1]. فـ (الساعة) الأولى تعنى يوم القيامة، و (الساعة) الثانية هي المدة المحدّدة بستين دقيقة زمنية؛ فاللفظتان متشابهتان في الشكل، ومختلفتان في المعنى.

وقد ورد الجناس التام في شعر ابن الخطيب، وهذا ما جاء في قوله:[2]

إِمَامُ عَدْلٍ يُحِبُّ اللهَ سِيرَتِهِ عَفُّ الْعُيُونِ كَرِيمُ الْخَلْقِ والْخُلُقِ

فالجناس في قوله: (الخَلْقِ، والْخُلُقِ) فالأولى هي الطبيعة والخِلقة، والثانية ما يتمتع به ممدوحه من أخلاق فاضلة.

ومثل قوله في قيمة العدل:[3]

خَلَائِفٌ لَمْ تَزَلْ بِالْهَدْيِ صَادِعَةً بِالْعَدْلِ فِي الظُّلْمِ أَوْ بِالنُّورِ فِي الظُّلَمِ

فالجناس في هذا البيت (الظُّلْمِ،و الظُّلَمِ) فالأولى بمعنى الجور، والثانية بمعنى سواد الليل أو الظلام.

والجناس الناقص: ((هو ما اختلف فيه اللفظان في واحد في هيئة الحروف، واتفقا في نوعها وعددها وترتيبها))[4].

وقد ورد الجناس الناقص في شعر ابن الخطيب ومن ذلك قوله:[5]

إِمَامُ الْهُدَى،غَيْثُ النَّدَى،دَافِعُ الْعِدَى بَعِيدُ الْمَدَى فِي حَوْمَةِ الْمَجْدِ وَالْفَخْرِ

ففي هذا البيت نجد الجناس الناقص في (الهدى، والندى، والعدى، و المدى) فلقد وقع الاختلاف من ناحية أنواع الحروف، ويشترط في هذا الاختلاف ألا يتعدى الحرف الواحد.

وقوله في قيمة العدل:[1]

---

[1] – سورة الروم، من الآية:،5.

[2] – ديوان ابن الخطيب،691/2.

[3] – ديوان ابن الخطيب،533/2.

[4] – البلاغة العربية، عبدالرحمن بن حسن، 491/2.

[5] – ديوان ابن الخطيب،398/1.

السَّابِقُونَ إِلَى الْغَايَاتِ إِنْ رَكَضُوا وَالنَّاطِقُونَ بِفَضْلِ الْحُكْمِ فِي الْكَلِمِ

فنلتمس الجناس الناقص من ناحية أنواع الحروف في هذا البيت، كما جاء في قوله: (الحكم، والكلم).

وقد ورد الجناس الناقص من ناحية عدد الحروف في شعر ابن الخطيب في قوله: [2]

وَخَفْ إِنْ كَذَبْتَ طُرُوَّ افْتِضَاحِ فَمَا كَذَبَ الْفَجْرُ إِلَّا افْتَضَحَ

فجاء الجناس الناقص في هذا البيت من ناحية عدد الحروف في قوله: (افتضاح، افتضح).

التَّصريع:

التصريع في الشعر بمنزلة السجع في النثر، وفائدته أنه قبل كمال البيت الأول من القصيدة نعلم قافيتها، وذلك بسبب التوافق في حرف الروي (وهو الحرف الذي تبنى عليه القصيدة) بين الضرب (وهي آخر تفعيلة في المصراع الثاني)، والعروض (وهو آخر تفعيلة في المصراع الأول) [3]. كما جاء في قول ابن الخطيب:[4]

أَحَبُّ مِنَ الْمَحْيَا، وأَجْدى مِنَ الْحَيَا وَأَهْدَى لِمَنْ ضَلَّ السَّبِيلَ مِنَ النَّجْمِ

ففي هذا البيت اتفقت لفظة: (المحيا، والحيا)، ولفظة:(أجدى، وأهدى)، وزنًا وتقفيةً.

---

[1] – ديوان ابن الخطيب،533/2.

[2] – ديوان ابن الخطيب،249/1.

[3] – الجامع لفنون اللغة العربية والعروض، عرفان مطرجي،ص231.

[4] – ديوان ابن الخطيب، 530/2.

وقوله في قيمة الكرم:[1]

ثِمَالُ الْفَقِيرِ وَيُسْرُ الْعَسيرُ وَكَهْفُ الْغَرِيبِ، وَمَأْوَى الْطَّرِيدْ

فجاء الترصيع في قوله: (الفقِيرِ، الْعَسيرُ) فلقد اتفقتا وزناً وقافيةً.

وتتفق الجملتان وزناً وقافية [2]، نحو قوله تعالى: ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾[3]، ومن ذلك قول ابن الخطيب:[4]

وَمَنْ كـ يوسُفَ فِي الْأَمْلَاكِ مِنْ مَلِكٍ بِالْحِلْمِ مُتَّسِمٍ بالْحَزْمِ مُحْتَزِمِ

اتفقت الجملتان وزنًا وتقفيةً في قوله:(بالحلم متسم، بالحزم محتزم).

التقسيم:

فن من فنون البديع المعنوي، وهو في اللغة: مصدر قسمت الشيء إذا جزأته [5]. أما في الاصطلاح: فهو ((أن تقسم الكلام قسمة متساوية، تحتوي على جميع أنواعه، ولا يخرج منها جنس من أجناسها))[6]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِے يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾[7]، وجاء التقسيم في شعر ابن الخطيب، حيث قال:[8]

وَ يَا مَلْحَدَ التَّقْوَى، وَ يَا مَدْفَنَ الْهُدَى وَ يَا مَسْقِطَ الْعَلْيَا، وَ يَا مَغْرِبَ البَدْرُ

---

[1] – ديوان ابن الخطيب،264/1.

[2] – ينظر: علوم البلاغة، راجي الأسمر،ص183.

[3] – سورة الغاشية:13،14

[4] – ديوان ابن الخطيب، 533/2.

[5] – ينظر: القاموس المحيط، الفيروز آبادي، ص1149.

[6] – الصناعتين، أبو هلال العسكري، ص341.

[7] – سورة الرعد، من الآية: 13.

[8] – ديوان ابن الخطيب، 398/1.

فالتقسيم في هذا البيت في قوله: (يا ملحد التقوى، و يا مدفن الهدى)، و(و يا مسقط العليا، و يا مغرب البدر)، وبهذا تجده قد أضاف إلى كل معنى ما يلائمه.

وقوله في قيمة الكرم: [1]

هُوَ السُّحْبُ جُودًا والْكَواكِبُ هِمَّةً وَبَدْرُ الدُّجَى وَجَهًا وشَمسُ الضُّحى رَأْيًا

ويظهر حسن التقسيم في هذا البيت في قوله: (السحب جودًا، والكواكب همة)، و(بدر الدجى وجهًا، وشمس الضحى رأيا)، حيث جعل ابن الخطيب ممدوحه، جوادًا كالسحب، وهمته كالكواكب رفعة، ووجهه كالبدر، ورائه ساطعًا كشمس الضحى، وبهذا جعل لكل معنى ما يلائمه.

وقوله في الحكمة: [2]

كَمْ حِكْمَةٍ أَبْدَى، وَكَمْ قصدٍ هَدَى لِلسَّالِكِينَ أَبَانَ مِنْهُ دَرِيسَا

فالتقسيم في هذا البيت، (كم حكمة أبدى، وكم قصد هدى)، فحسن التقسيم يظهر في إسناد الإبداء للحكمة، والهدى للقصد.

فَدَمْ تُذْعِرُ الْأَعْدَاءَ فِي شَغَفَاتِها وَتُنْقِضُ مَا شَدُّوا وَتُعْمُرُ مَا شَادُوا

أمَّا التقسيم في هذا البيت، جاء في قوله: (تنقض ما شدوا، وتعمر ما شادوا)، فيظهر حسن التقسم، من حيث تساوي تفعيلاته.

لزوم ما لا يلزم:

هو فنٌّ في الشعر يلتزم فيه الشاعر، قبل الحرف الأخير في أبيات قصيدته، مالا يلزم، كأن يكون الحرفان الأخيران متماثلين في كل القوافي، أو الثلاثة الأخيرة، أو تكون الكلمات مع

[1] – ديوان ابن الخطيب، 776/2.

[2] –ديوان ابن الخطيب،724/2.

الكلمات مع الكلمات مع ذلك متماثلة الوزن، إلى غير ذلك من التزام ما ليس بلازم في نظام التقفيات[1].

وهو أيضا التضييق أو الإعنات، وهو أن يأتي الناظم قبل حرف الروي بما لا يلزم في التقفية من حرف مخصوص أو أكثر يلتزمه في بيتين أو أكثر[2].

فهو أن يلزم الشاعر نفسه باتّخاذ حروف وحركات في القافية لا يتطلبها علم القافية، نحو قول ابن الخطيب في صفة التقوى:[3]

الْأَرْضُ إِرْثٌ وَالْمَطَامِعُ جَمَّةٌ كُلٌّ يَهَشُّ إِلَى الْتِمَاسِ نَصِيبِ
وَخَلَائِفُ التَّقْوَى هُمُ وُرَّاثُهَا فَإِلَيْكَهَا بِالْحَظِّ وَالتَّعْصِيبِ

حيث التزم ابن الخطيب بالصاد والياء قبل الرويّ وهو(الباء).

وقوله في صفة العدل:[4]

أَعَدْتَ الْخِلَافَةَ، أَنْوَارُه ا سَوَاطِعُ مِنْ بُعْدِ طول الخُمُودْ
وَأَلَّفْتَ بالْعَدْلِ بَيْنَ الْقُلُوبِ وَفَرَّقْتَ بَيْنَ الظُّبَا والْغُمُودْ

والتزم ابن الخطيب في هذين البيتين بالميم والواو قبل الروي وهو(الدال).

ويقول في صفة الكرم:[5]

فَلَقَدْ انْجَبُوكَ يَا عُمْدَةَ الْحَيّ، وربِّ الْبَيْتِ الرَّفيعِ الْعِمَادِ
مَاجِدًا مُفْضِلًا شُجَاعًا حَلِيمًا وَاسِعَ الْمُنْتَدَى كَثِيرَ الْرَّمَادِ

فالتزم ابن الخطيب في هذين البيتين بالميم والألف قبل الروي وهو(الدال).

---

[1] – البلاغة العربية، عبد الرحمن حسن، 532/2.
[2] – العقد البديع في فن البديع، للخوري بولس عوادت، ص298.
[3] – ديوان ابن الخطيب، 132/1.
[4] – ديوان ابن الخطيب، 263/1.
[5] – ديوان ابن الخطيب، 1/ 295.

فكانت هذه الأبيات في لزوم ما لا يلزم على سبيل المثال لا الحصر.

رد العجز على الصدر:

من المحسنات اللفظية في علم البديع رد العجز على الصدر، وهو أن نأتي بلفظين مكررين أمتجانسين، فيكون أحدهما في الشطر الأول من البيت الشعري والثاني في آخره [1]، نحو قول ابن الخطيب في قيمة الفروسية:[2]

مِنْ كُلِّ مُنْجَرِدٍ أَغَرَّ مُحَجَّلٍ يَرْمِي الْجِلادَ بِهِ أَغَرَّ مُحَجَّلُ

حيث نلاحظ لفظة(محجل) آخر الصدر، وفي آخر العجز في هذا البيت الشعر، أو أن تكون أحدهما في أول الصدر والأخر في آخر العجز، نحو قول ابن الخطيب: [3]

وصَبَّحْتَ جمْعَ الْكُفْرِ فِي مُسْتَقرّهِ فَخَابَتْ مَسَاعِيهِ وسَاءَ صَبَاحُهُ

أو أن يكون أحد المكرّرين، في حشو الصدر، والآخر في حشو العجز، كما جاء في قول ابن الخطيب:[4]

أَمَوْلَايَ هَذَا الْأَمْرُ جِدٌّ، وَإِنَّمَا يَلِيقُ بِهِ مَنْ عَامَلَ الْجِدُّ بِالْجِدّ

هذ ه أهم الخصائص الفنية في شعر لسان الدين بن الخطيب، والتي درستها في هذا الفصل.

[1] - ينظر جواهر البلاغة، السيد أحمد الهاشمي، ص289.
[2] - ديوان ابن الخطيب،500/2.
[3] - ديوان ابن الخطيب، 220/1.
[4] - ديوان ابن الخطيب، 308/1.

الخاتمة

إن اختيار دراسة القيم الأخلاقية في شعر لسان الدين بن الخطيب، كموضوع لبحثي، يهدف بالأساس إلى رصد القيم الأخلاقية والتعريف بها.

وقادني هذا الاختيار إلى تسليط الضوء على عدة أمور منها.

إن عنوان البحث مطابق ومنسجم لما جاء في ثناياه من روافد للقيم والفلسفة الأخلاقية

أما الفصل الأول: فيظهر تأثير الثقافة الدينية من قرآن كريم، وأحاديث نبوية، في شعر لسان الدين بن الخطيب، فكانت القيم الدينية من اكثر القيم الأخلاقية في شعره.

تداخل القيم مع بعضها فجاءت قيمة التقوى مع قينتي العدل العفاف، والصدق مع الحلم إلى غير ذلك من القيم الأخرى، بتلاحم جيد دون وقوع خلل.

الالتزام بتعاليم الإسلام في شعر لسان الخطيب والدفاع عن الوطن والجهاد في سبيل الله ونصرة المظلومين.

ترابط القيم الأخلاقية بعضها ببعض، في الفصل الثاني، فكانت الفروسية ترتبط بالشجاعة، واقتحام الأهوال يحتاج إلى الشجاعة والفروسية.

وفي الفصل الثالث: تجد أن الاندلسيين قد حافظوا على القيم الاجتماعية المتوارثة، مع اختلاف الأساليب.

إن شعر لسان الدين بن الخطيب، فيه من الخصائص الفنية ما أكسبه قوة وروعة.

خلت معاني القيم في شعر لسان الدين من الألفاظ المكشوفة والمعاني الفاحشة، وتمسكوا بالقيم وطهارة الخلق فتجلت في صور محللين مضامنها.

وبهذا كانت أشعار لسان الدين بن الخطيب نابعة، من إيمانه بالقيم الإسلامية والمثل الأخلاقية.

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية قالون.

أولًا: المطبوعات.

1- اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري، د.نافع محمود، وزارة الثقافة والإعلام دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد، ط1، 1990م.

2- الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب، تح ، محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي- القاهرة، ط:2، 1973- 1975م.

3- أخبار العلماء بأخبار الحكماء، جمال الدين أبو الحسن القفطي، تح ، إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط 1، 1426هـ- 2005م.

4- الأخلاق الإسلامية في الشعر الأندلسي عصر ملوك الطوائف، يوسف شحدة الكحلوت، 2010م.

5- أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة دراسة تطبيقية لقول عائشة_ رضي الله عنها_((كان خلقه القران))، د. أحمد عبدالعزيز قاسم الحداد،إشراف ومراجعة، عبد الستار فتح الله سعيد، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1416هـ- 1996م.

6- الأخلاق في الإسلام والفلسفة القديمة، أسعد الحمراني، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ط،1، 1408هـ- 1988م.

7- الأخلاق في مداواة النفوس، لابن حزم، دار الآفاق الجديدة- بيروت، ط 3، 1400هـ- 1980م.

8- الأخلاق والعرف، هنية مفتاح القماطي، منشورات جامعة قاريونس، ط1، 1991م.

10- أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، دار مكتبة الحياة، دط، 1986م

11- الأدب العربي في الأندلس ، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر- بيروت، ط2، 1976م.

12- الأدب العربي في الأندلس تطوره- موضوعاته،وأشهر أعلامه، د.علي محمد سلامة، الد ار العربية للموسوعات، ط1، 1989م.

13- الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل البخاري، تح ، محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية- بيروت، ط3، 1409هـ- 1989م.

14- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، المقري التلمساني تح: مصطفي السقاد، إبراهيم الإبياري، عبد العظيم شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة، دط، 1358هـ- 1939م.

15- الإسلام في حضارته ونطمه الإدارية والسياسية والأدبية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية والفنية، أنور الرفاعى، دار الفكر، دمشق- سورية، ط3، 1983م.

16- الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية،د. فتح الله أحمد سليمان، دار الآفاق العربية، ط1، 1428هـ- 2008م.

17- الأسلوبية والأسلوب نحو بديل ألسني في النقد الأدبي: عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب- تونس، دط، 1977م.

18- الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي الدمشقي، (1396هـ)، دار العلم للملايين، ط5، 2002م.

19- الأغاني، لأبي فرج الأصفهاني، عن طبعة بولاق الأصلية، دار صادر- بيروت، د ط، د ت.

20- الإلتزام في الشعر العربي، د. أحمد أبو حاقة، دار العلم الملايين- بيروت، ط1، 1979م.

21- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ابن تيمية الحراني الدمشقي ، وزارة الشئون الإسلامية والافاق والدعوة والإرشاد، دط ، دت.

22- الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع،جلال الدين القزويني، دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان، ط،1، 1405هـ-1985م.

23- البديع من المعنى والألفاظ، عبد العظيم المطعنى، مكتبة وهبة- القاهرة، ط1، 1423هـ- 2002م.

24- البلاغة والأسلوب مقدمات عامة، يوسف أبو العدس، الأهلية للنشر والتوزيع- المملكة الأردنية الهاشمية- عمان، ط1، 1999م.

25- البيان المغرب، ابن عذاري المراكشي، تحقيق ، ج.س.كولان، وليفي بروفنسال، لندن، دار الثقافة، بيروت، دت، 1984م- 1951م.

26- البيان والتبين، أبو عمرو بن بحر الجاحظ ، تح، عبد السلام هارون، دار النشر مكتبة الخانجي- القاهرة،ط7، 1418هـ- 1988م.

27- تاج العروس، مرتضى الزبيدي، دار الفكر- بيروت، ط1، 1414هـ.

28- تأويل مشكل القرآن: ابن قتيبة، شرحه ونشره: السيد أحمد صقر، دار إحياء التراث - القاهرة، ط2، 1973م.

29- التبيان في البيان، الحسين بن محمد بن عبدالله الطيبي، دار البلاغة، ط 1، 1411هـ- 1991م .

30- التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، (ت: 816هـ)، تح: ضبطه وحققه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، ط 1، 1403هـ- 1983م.

31- تقريب الوصول إلى علم الأصول، ابن جزي الكلبي الغرناطي، تح: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان، ط1، 1424هـ- 2003م.

32- التقوى تعريفها وفضلها ومحذوراتها وقصص من أحوالها، عمر بن سليمان العتيبي، دار النفائس للنشر والتوزيع- الأردن، ط1، 1433هـ- 2012م.

33- تهذيب الأخلاق، يحيى بن عدي، دراسة ونص بقلم، جاد حاتم، منشورات دار المشرق، 1985م.

34- تهذيب الأسماء واللغات، أبو زكريا النووي، تح: شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية، دار الكتب العلمية،بيروت- لبنان، د ط، د ت.

32- التوقيف على مهمات التعاريف، زين الدين محمد المناوي ، القاهرة، ط 1، 1410هـ- 1990م.

35- الثقافة الإسلامية تخصصا ومادة وقسما علميا، عبد الله إبراهيم الطريقى وآخرون، ط 1، 1417هـ.

36- الجبال والأمكنة والمياه، أبو القاسم محمود الزمخشري، تح: أحمد عبد التواب عوض، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، 1319هـ- 1999م.

37- جامع العبارات في تحقيق الاستعارات، أحمد مصطفى الطرودى ، تح: محمد رمضان الجربى، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ط1، 1395و.ر- 1986م.

38- الجامع لفنون اللغة العربية والعروض، عرفان مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية، ط 1، 1407هـ- 1987م.

39- جمع الوسائل في شرح الشمائل للقاري مع شرح المناوي، علي بن(سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري، المطبعة الشرقية- مصر، د ط، د ت.

40- جمهرة اللغة، ابن دريد الأزدي، تح ، رمزي منير بعلبكى، دار العلم للملايين- بيروت، ط1، 1987م.

41- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، السيد أحمد الهاشمي، تح ، محمد رضوان مهنا، مكتبة الإيمان، ط1، 1420هـ- 1999م.

42- حق في الاختلاف الفلسفي، المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء- المغرب، ط 2، 2006م.

43- حلية الفرسان وشعار الشجعان، ابن هذيل، تح، محمد عبد الغني حسن، دار المعارف القاهرة، د ط- 1949م.

44- الحنين في الشعر الأندلسي (القرن السابع الهجري)، محمد احمد دقالي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر- الإسكندرية، ط1، 2008م.

45- الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، طه عبدالرحمن، المركز الثقافي العربي، 2006م.

46- الحياة العربية في الشعر الجاهلي، د.أحمد الجوفى، دار القلم – بيروت- لبنان، د ط، د ت.

47- الحيوان، الجاحظ، تح، عبد السلام محمد هارون، دار إحياء التراث العربي- بيروت- لبنان، ط 3، 1388هـ- 1969م.

48- الخصائص الفنية للشعر الأندلسي، عبد الرحمن جاسر الشلافي، د ط، 1429م

49- الخطابة أصولها وتاريخها في أزهر عصورها عند العرب، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، د ط، د ت.

50- دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع، بسيوني فيود، القاهرة موسسة المختار للطباعة والنشر،ط2، 1998م.

51- دعائم العقيدة في الإسلام، د. محمد الدسوقي، كلية الدعوة الإسلامية، ط 1، 1400- 1980م.

52- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني ، قرأ هوعليق عليه، محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة، ط 3، 1413هـ - 1992م.

53- ديوان الحطيئة، من رواية، ابن حبيب عن الأعرابي وأبي عمر الشيباني، شرح أبي سعيد السكري، دار صادر- بيروت، د ط، 1401هـ- 1981م .

54- ديوان لسان الدين بن الخطيب السلماني، تح ، محمد مفتاح، دار الثقافة- الدار البيضاء، ط 1، 1409هـ- 1989م.

55- ديوان المتنبي، دار صادر بيروت، ط 1، 1958م .

56- الذريعة إلى مكارم الشريعة، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت: 502)، تح، أبو اليزيد أبو زيد العجمي، دار السلام- القاهرة،1428هـ- 2007م.

57- الرمز في الشعر العربي (دراسة تطبيقية في شعر بدر شاكر السياب)، د. طاهر محمد بن طاهر، منشورات جامعة 7 أكتوبر إدارة المطبوعات والنشر، ط 2، 2007م.

58- الروض المعطار في خبر الأقطار، أبو عبدالله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري (ت: 900هـ)، تح، إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة- بيروت، ط2، 1980م.

59- زهر الآداب وثمر الألباب، أبو إسحاق الحصري القيرواني، تح ، زكي مبارك،دار الجيل- بيروت، د ط، د ت.

60- السحر والشعر، لسان الدين بن الخطيب، تح: محمد كمال شبانة، إبراهيم محمد حسن الجمل، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، د ط، د ت.

61- سراج الملوك، أبو بكر الطرطوشى، تح، شوقي ضيف، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ط 1، 1414هـ- 1994م.- -

62- السيف في العالم الإسلامي، عبد الرحمن زكي، القاهرة، د ط، 1957م.

63- سقط الزند، أبو علاء المعري، دار صادر- بيروت، د ط، 1412هـ، 1992م.

64- سنن أبي داود، تح ، محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، د.ط، د.ت.

65- سنن الترمذي، تح ، أحمد شاكر(ج 1، 2) ومحمد فؤاد عبد الباقي(ج 3) وإبراهيم عطوه عوض(ج 4، 5)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي- مصر،ط: 2، 1395هـ- 1975م.

66- سير أعلام النبلاء، شمس الدين بن قايماز، دار الحديث - القاهرة، د ط، 1427هـ- 2006م.

67- شرح المقدمة الأدبية لشرح الإمام المرزوقي على ديوان الحماسة لأبي تمام، محمد الطاهر ابن عاشور، الدار العربية للكتاب- ليبيا- تونس، ط 2، 1398هـ- 1978م.

68- شعر العقيدة في شعر صدر الإسلام،أيهم عباس حمودي القيسي، عالم الكتاب مكتبة النهضة العربية، ط 1، 1406هـ -1986م.

69- الشعر في عصر المرابطين والموحدين، محمد السعيد، الدار العربية للموسوعات- بيروت- لبنان، ط 2، 1985م.:

70- الشعر والشعراء في العصر العباسي، مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين- بيروت، ط 4، 1979م.

71- الصحاح في تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تح ، أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، ط،1، 1376هـ- 1956م.

72- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تح ، محمد زهير بن ناصر الناصر، در طوق النجاد، ط 1، 1422م.

73- صحيح مسلم، تح، محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، د ط، د ت.

74- كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، تح ، على محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية- بيروت، د ط، 1419هـ.

75- الصورة الأدبية، د. مصطفى ناصف، دار الأندلس- بيروت- لبنان، ط 3، 1983م.

76- الصورة الفنية في النقد الشعري(دراسة في النظرية والتطبيق)، عبدالقادر الربّاعي، دار جرير للنشر والتوزيع، ط،1، 1430هـ- 2009م.

77- الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، د.علي البطل، دار الأندلس- بيروت- لبنان، ط 3، 1983م.

78- صور من حياة الحرب والجهاد في الأندلس، أحمد العبادي، منشأة المعارف بالإسكندرية، ط 1، 2000م.

79- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، ابن القيم الجوزية، دار ابن الكثير- دمشق- بيروت، مكتبة دار التراث- المدينة المنورة- المملكة العربية السعودية، ط 3، 1409هـ- 1989م.

80- العقائد الإسلامية، سيد سابق، دار الكتاب العربي- بيروت، د ط، د ت.

81- العقد البديع في فن البديع، للخوري بولس عواد، تح: د. حسن محمد نورالدين، دار المواسم للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2000م.

82- علم البديع، عبد العزيز عتيق، دار الآفاق العربية، ط 1، 1420هـ- 2000م.

83- علم البيان، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت، د ط، 1405هـ- 1982م.

84- علم المعاني، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت، د ط،1405هـ- 1985م.

85- علوم البلاغة، راجي الأسمر، إشراف: د. إميل يعقوب، دار الجيل بيروت، ط 1، 1420هـ- 1999م.

86- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تح ، محمد محي الدين عبد الحميد، ، دار الجيل- بيروت، ط 5-1981م.

87- فتح البيان في مقاصد القرآن، أبو الطيب صديق البخاري، عني بطبعه وراجعه: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا بيروت، 1412هـ- 1992م.

88- الفروسية ابن القيم الجوزية، تح ، مشهور بن حسن بن محمود بن سلمان، دار الأندلس- السعودية- حائل، ط 1،1414 هـ-1993م.

89- الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، تح، إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة والنشر والتوزيع- القاهرة- مصر، د ط، د ت.

90- فن البديع، عبد القادر حسين، دار الشروق، بيروت، ط 1، 1983م.

91- فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب، محمد مسعود جبران، بدر للطباعة والنشر- الرباط، 1416/ 1417هـ- 1996/1995م.

92- الفوائد، ابن القيم الجوزية، دار الكتب العلمية- بيروت، ط 2 ، 1393هـ- 1973م.

93- في أدب الإسلام عصر النبوة والراشدين وبني أميه دراسة وصفية تحليلية، د، محمد عثمان على، جامعة الفاتح، 1404- 1984م.

94- في الأدب الأندلسي، محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصرة بيروت- لبنان، ط 1، 1461هـ- 2000م.

95- القاموس المحيط، مجد الدين الفيروز آبادي، تح ، لجنة التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت- لبنان، ط 8، 1426هـ- 2005م.

96- القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن الهجري الظواهر والقضايا والأبنية، د. عبد الحميد عبد الله الهرامة، كلية الدعوة الإسلامية، ط 1، 1996م.

97- القيم الخلقية في الخطابة العربية من الجاهلية حتى بداية القرن ال ثالث الهجري، د. سعيد حسين منصور، منشورات جامعة بنغازي، د ط،1991م.

98- القيم الخلقية في الشعر الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، سلمى سلمان على، دار الآفاق العربية- القاهرة، ط 1، 2007م.

99- القيم بين الإسلام والغرب دراسة تأصيلية مقارنة، مانع المانع، دار الفضيلة- ط 1، 1426هـ.

100- القيم والعادات الاجتماعية، د. فوزية ذياب، دار النهضة العربية للطباعة والنشر- بيروت، د ط، 1980م.

101- الكامل في اللغة والأدب، أبو العباس المبرد، تح ، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي- القاهرة، ط 3، 1417هـ- 1997م.

102- كتاب العين، أحمد الفراهيدي، تح ، مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، من منشورات دار الهجرة- إيران، ط 1، 1405هـ.

103- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (ت: 1094)، تح: عدنان درويش- محمد المصري، مؤسسة الرسالة بيروت، دط، دت.

104- كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري، محمد الخضر الجكني الشنقيطي، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط 1، 1415هـ- 1995م.

99- لسان الدين بن الخطيب حياته وتراثه الفكري، محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط 1- 1388هـ- 1968م.

105- لسان العرب، محمد ابن منظور، تح، عبد الله على الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف- القاهرة، د ط، د ت.

106- مبادئ الفقه الإسلامي، يوسف قاسم الحداد، دار النهضة العربية- القاهرة، د ط- 1981م.

107- مجمع الأمثال، أبـو الفضل أحمد الميداني، تح ، محمد محيى الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية صيدا- بيروت، د ط ،1419هـ- 1998م.

108- مجمل اللغة، أحمد بن فارس، تح، زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط 2، 1406هـ- 1986م.

109- مختار الصحاح، أبو بكر الرازي، تح ، يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية- الدار النموذجية- بيروت- صيدا، ط 5، 1420هـ- 1999م.

110- المخصص، أبو الحسن على ابن سيدة ، تح ، خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، ط 1، 1417هـ- 1996م.

111- مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم الجوزية، تح ، محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي- بيروت، ط 3، 1416هـ - 1996م.

112-المرقصات والمطربات، نور الدين علي ابن الوزير عمران، بيروت دار حمد ومحيو، 1973م.

113- المستطرف في كل فن مستطرف، شهاب الدين، عالم الكتب- بيروت، ط 1، 1419م

114- مسند الإمام أحمد بن حنبل، تح ، شعيب الأرنؤوط- عادل مرشد وآخرون، إشراف: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط 1، 1421هـ- 2001م

115- المصباح المنير، للفيّومي، دار الحديث- القاهرة، ط 1، 1421هـ- 2000م.

116- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة، وكامل المهندس، مكتبة لبنان- بيروت، د ط، 1979م.

117- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار)، دار الدعوة، د ط، د ت.

118- معجم متن اللغة، أحمد رضا، دار مكتبة الحياة بيروت، د ط، 1377هـ- 1958م.

119- معجم المؤلفين، عمر بن رضا بن محمد راغب بن عبد الغني كحالة الدمشق، (ت: 1408هـ)، مكتبة المثنى- بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت، د ط، د ت.

120- مفاهيم القرآن في العقيدة والسلوك، د.محمد البهي، مكتبة وهبة- القاهرة، ط 2، 1415هـ- 1994م.

121- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تح، صفوان عدنان الدوادي، دار القلم، الدار الشامية- دمشق- بيروت، ط1، 1421م.

122- المقابسات، أبو حيان التوحيدي، تح ، حسن السندوبي، دار سعاد الصباح، ط 3، 1992م.

123- مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تح ، عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، د ط، 1399هـ - 1979م.

124- المن بالإقامة على المستضعفين، عبد الملك بن محمد بن أحمد، تحقيق ، عبدالهادي الغازي، بيروت- لبنان، د ط، 1964م.

125- المنتخب من غريب كلام العرب، علي بن الحسن الهنائي الأزدي، أبو الحسن الملقب بـ(كراع النمل)، (ت بعد 309هـ)، تح: د. محمد بن أحمد العمري، جامعة أم القرى، ط 1، 1409هـ- 1989م.

126- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، أبي الحسن حازم القرطاجني، (ت: 684هـ)، تح: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ط3، 1986م.

127- منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين، أبي حامد الغزالي، تح، د. مصطفى حلاوي، دار البشائر الإسلامية، ط 4، 1427هـ- 2006م.

128- موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم،محمد على التهانوي، إشراف ومراجعة: رفيق العجم، تح ، على دحروج، نقل النص من الفارسي إلى العربية: عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: جورج زيتاني، أش مكتبة- لبنان، د ط، د ت.

129- الموطأ: مالك بن أنس، تح ، محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية- أبو ظبي- الإمارات، ط1، 1425هـ- 2004م.

130- ميزان العمل، أبو حامد بن محمد الغزالي، تح، د. سليمان دنيان، دار المعارف- مصر، ط 1- 1964م.

131- نظرة النعيم في أخلاق الرسول الكريم، لعدد من المتخصصين بإشراف الشيخ صالح إمام وخطيب الحرم المكي، دار الوسيلة للنشر والتوزيع- جدة، ط 4، د ت.

132- نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، لسان الدين بن الخطيب، تح: السعدية فاغية، المغرب- المطبعة الجديدة، 1409هـ- 1989م.

133- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقرّي التلمساني، تح ، إحسان عباس، دار صادر- بيروت، د ط، 1408هـ- 1988م.

134- نقد الشعر، قدامة بن جعفر ، مطبعة الجوائب- قسطنطينية، ط 1، 1302هـ.

135- النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، المكتبة العلمية- بيروت، د ط،1399هـ-1979م.

136- نور من السنة في السلوك الاجتماعي، إسماعيل سالم، قسم الشريعة كلية دار العلوم، ط،1، 1409هـ-1988م.

137- وفيات الأعيان وأنباء الزمان، أبو العباس شمس الدين ابن خلكان، تح ، إحسان عباس، دار صادر- بيروت، ط 1، 1994م.

ثانيًا: الدوريات

1- مجلة الأزهر، الجزء الأول، المحرم سنة 1365هـ- المجلد السادس مطبعة الأزه ر- 1945م.

2- مجلة دعوة الحق، العدد 90، تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، في المملكة المغربية، مدير المجلة، احمد قسطاس، مدير التحرير، محمد مغراوي، د ت.

ثالثًا: الرسائل الجامعية

1- الحنين في شعر لسان الدين بن الخطيب، عائشة إبراهيم المحروق، (رسالة ماجستير)، جامعة الجبل الغربي، 1435هـ، 2014 م.

2- المدحة في شعر لسان الدين بن الخطيب الغرناطي البعد والتشكيل، سعيد بن مسفر بن سعيد العاصمي المالكي (رسالة ماجستير)، جامعة أم القرى بمكة المكرمة 1422هـ، 1423هـ.